عبد ربه الغناي

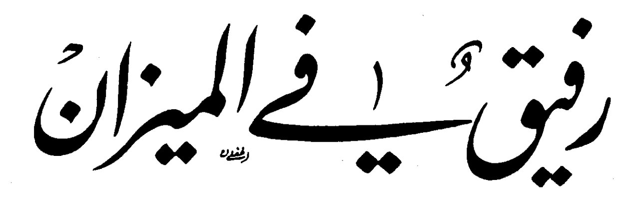
رفيق في الميزان

دراسة وتحليل لشعر رفيق المهدوي

رفیق فی المیزان

الطبعة الاولى
ايار (مايو) ١٩٦٧

عبد ربه الغناي



دراسة وتحليل لشعر رفيق المهدوي

منشورات مكتبة الأندلس
البركة – بنغازي – ليبيا

مقدمة

يحتل أحمد رفيق المهدوي منزلة كبرى في ليبيا ، فهو شاعر ملك ناصية البيان ، وطوّع القوافي والأوزان ، هذا من جهة . أمّا من الجهة الأخرى فهو وطني مخلص قارع الاستعمار الايطالي بقلمه ، حتى أبعد عن بلده . وقد عاش منفياً سنوات حتى إذا ما انتهت الحرب عاد إلى بلده ، لكي يقاوم تجزئتها . فهو إذن أديب حرّ ، حريص على حرية وطنه ، وكرامة ابناء وطنه ...

إن شعر هذا الشاعر الكبير ، الذي يكن له ابناء ليبيا كل تقدير واحترام ما زال غير مدروس . وقد قام الأستاذ عبد ربه الغناي الناقد والأديب المعروف بهذه المهمة .

إن الأستاذ عبد ربه الغناي يحاول في هذه الدراسة أن يلقي الأضواء على شخصية الشاعر أحمد رفيق المهدوي وأدبه ؛ بأسلوب سلس نفّاذ .

ودار مكتبة الأندلس يسرها أن تقدم هذا الشاعر الكبير ، بقلم هذا الناقد الكبير .

الناشر

١

لمحات عن رفيق ...

كان رفيق صديق والدي رحمها الله . حـــين عرفته لم أكن أعتقد أنه ما زال في شرخ السن وفتوة الرجل ، وقد عرفته عن قرب بعد عودته من المهجر.. فكان في حدسي كهلاً متحطماً يتجاوز الستين .. ثم مــا لبثت أن رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ..عرفت رفيقاً الذي قال لي عنه أبي أنه الرجل الذي تعرض لأسوأ ما عرفه شاعر معاصر في بلاد ما... عرفته عن قرب فلمست فيه خصائص وفضائل .. أهم هذه الخصائص أنه ذو مزاج خاص يمقت من أراد في غير ريــاء أو خبث ويحب من شاء في غير تملق أو نفاق .. ويقول كلمته الجبارة ولو كانت جارحة ماسة ... ولو كانت ستعرضه للانتقام أو الهلكة . وأهم تلك الفضائل أنه ذو نفس قوية وعزيمة صلبة لا تعرف المهادنة ،كريم.. كريم بطبعه.. إن أحمد رفيق يمثل قول القائل :

ولو لم يكن في كفه غير روحه   لجاد بهـــا فليتقِ الله سائله

عفيف .. لا يمكن أن يتقرب رغبة في جاه ولا مال ولا منصب . غيور .. لا يكف عن المشاكسة متى رأى انها أصلح طريق للذود عن الغـير .. خفيف

الروح .. نكاتـــه معروفة ومحفوظة عند عارفيه وأصدقائه .. وهو حيي يستحي من كل شيء حتى لا تكاد تفرق فيما إذا كان رفيق الشيخ أو رفيق الفتى الذي يخجل من ظله .

إن هذه المدينة بنغاري لا شك أنها افتقدت أعز بنيها ،افتقدت ذلك الرجل الساخر من الحياة العابث بالدنيا .. الضاحك الباكي ... يحمل بكفيه الممتدتين إلى الخلف عصاه تلك التي كانت تصل إلى كتفيه .. وهو يناجيها بقوله :

عصاتي يا مسعودة ... كانت مسعودة تأخذ قسطاً كبيراً مـن غزل الشاعر الكبير .. وفي مقهى ميدان البلدية لصاحبه الحاج مصطفى العرودي .. كان رفيق بطل (الطاولة) وكان المرحومان خليل القـــلال وعلي الزياني ينافسان الشاعر ويداعبانه .وكان التلاميذ والأصدقاء والمعارف والمعجبون يكتظ بهـم مقهي العرودي ينصتون إلى النكاة ويستمتعون بدعابات الشاعر .. والأصدقاء عن (الطاولة) .

وعرفت رفيقا الوطني .. فكان قدوة لكل نبيل النفس غيور على الوطن والمصلحة العامة .. ورفيق الذى يفصل ما بيني وبينه عمر وعصر كان لا يتردد في أن يرسل مرة ببرقية من طرابلس وهو بالمستشفى يهنئني فيها بقصيدة أذعتها بمحطة بنغازي .. ولم يستنكف أن يناقشني الشعر وأنا التلميذ الذي أخذت عنه كثيراً من مذاق المرارة والحلو في غزل البيت الذي يطرأ فجأة على الخاطر .. وليس من بد حيال افتقاد الورقة من اللجوء إلى أية مزقة من الورق ولو كانت ورقة علبة السجاير الملقاة في الأرض أو على الأوساخ ..لأسجل بها خاطراً شارداً أو سانحة مارة ..

ومن رفيق الذي كان كلما يجيبه يخفيه من خواطر شعرية مكتوباًومخطوطاً في بقايا اوراق علب السجاير .. انني حين أتحدث عن رفيق أجدني أمام بحر طام لا ينضب له معين .. فالقول عنه يزخر به يراع من يعرفه وقد لا يتمكن

الناقد مـــن التعريج على أية ملامح أخرى تغير من وجه ما عرفــــه الجميع عنه. فهو من ناحيته الايديولوجية رجل سبق عصره في التعبير وقت الخوف والمجابهة راد الشده والجاد بكلمة الحق عند السلطان الجائر .. وليس أصدق ولا ادل على هذا من قصائده الجباره الصارخة المدوية إبان الاحتلال الإيطالي وفي مواجهة العدو الأحمق الغاصب الذي كان سبباً في نزوحه عن ارض الوطن ... وغيابه حقبة ليست قصيرة من الزمن .

ان التقديم للشخصية الرفيقية عسير بل وفوق العسير، ذلك أنه يبدو في جميع ملامحه رجلاً قوياً ، وحكيماً متواضعاً ، وشاعراً مبدعاً ووطنياً من أعلى طراز؛ كريماً سخياً وفياً حذقاً متنزهاً عن الدنيا ، ضارباً بالمادة عرض الحائط همه أن يعيش صارخاً في أبواق الوطنية نافخاً في بوقات الفضيلة موجهاً للمصالح العامة. ورفيق الذي يسمو عن بقية الأدباء في بلادنا أرى هذا السمو يتجلى في أنه إذا رأى خيراً ولو في غير محبوب من الناس لايؤخر رجلاً في مدحه فضائله. ورفيق في هذا يخرج عن الضوضائية الخداعة المقيتة .. تلك الضوضائية التي ألفها الناس جميعهم وألفها الأدباء ويكاد لم يخرج عنها في أدبائنا المعاصرين إلا الدكتور طه حسين .. والدكتور طه حسين فحسب ... انني كنت يومــــاً إلى جانب رفيق عندما أعلن نبأ وفاة المؤرخ الكبير المرحوم الطيب الأشهب وبكاه رفيق وتألم لفقده وقال أنه صديق حميم وذو فضل . وكان إلى جانبنا رهط من الأصدقــــاء ولكنهم أصدقاء يعلم الله أنهم طول حياتهم ما شكروا إنساناً وبعضهم لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب وتقولوا في الفقيد الأشهب ولكن رفيقاً خالفهم وسفه أحلامهم وأطنب في مـــدح المرحوم الطيب الأشهب ثم لم يلبث أن أبنه بقصيدته الرائعة التاريخية العصماء ..

إن رفيق المهدوي إنسان بكامل معاني ما تحمل هذه الكلمة ... وتبلغ به إنسانيته أن بعض الناس حط بيننا واغتابني عنده، ولكن رفيقاً قال لي ما قاله

الناس عني له ورأى الحقيقة .. ثم ما فتئ أن اعترف المغتاب بأنه إنما قصد ايجاد التنافس .. وقلت لرفيق كيف أنافس أستاذي ومن كان له فضل تقليدي إياه .

لست ملماً بجوانب فقيد الشعروالوطنية أحمد رفيق ولعلني أعطي بعضالحق وأوفي بعض التزاماتي نحوه إذا حاولت مناقشة وبحث قصائده .

★

٢

السهل الممتنع في شعر رفيق

الشيخ موسى البرعصي شيخ معمر يهوى مجالس الطرب وهو صديق شخصي للمرحوم رفيق .. فحين هاجر رفيق إلى تركيا وكان لا بد له وان يحن إلى أرض الوطن بمساويه وأوصابه وآلامه .. وكان لرفيق أصدقاء عديدون من الشباب، على رأسهم الأستاذ محمود مخلوف والمرحوم الشريف بومدين ، فلمَ لم يكتب اليهما ؟؟ انه فضل ان يكتب إلى شيخ كبير متقدم في السن وهو مع ذلك مطبعة متنقلة .. إن رفيقاً كان يقصد بالكتابة إلى موسى البرعصي .. ترويج قصيدته حتى يحفظها ، ويقرأها الناس في بلاده ، وبديهي انه لا يستطيع نشر قصيدته التي يبعث فيها بسلامه إلى الأصدقاء.. في صحف البلاد للرقابة الشديدة والتأويل الظالم .. سيما ورفيق يعلن فيها صراحة سخطه وذمه للمحتل يقول رفيق :

بعد السلام وتقديم احتراماتي أهديـــك يا سيدي موسى تحياتي
واشتكي حر أشواقي اليك فقد اذكاه في خاطري بعد المسافات
فارقتكم وفؤادي مـــا يفارقكم قيدتمـــوه بأسباب وثيقـــات
اهل الوداد وحبي للبلاد.. همـــا اسباب تعذيب قلبي واشتياقاتي

تركت موطن آبائي ، على مضض مما تجرعت من هم وويـــلات
والله ما باختياري ان افارقـــه لو لم ينغصه حكم الظالم العـــاتي

إلى ان يقول :

خرجت من وطني مثل الطريد فما ودعت خلاً ولا ادركت ثاراتي

لا شك ان رفيق يقصد من كل هذه المقدمة التي حلت مكان الديباجة من الرسالة الشعرية .. يقصد هذا البيت بالذات .. وانه لأحسن التعبـير في قوله خرجت مثل المطرود .. فـــلم يتسع لي وقت اودّع فيه خليـــلا ، ولا اسلم على الأصدقاء والأحباب..وربما ذلك هو الذي ترك فراغاً في قلب الشاعر الكبير فما صدق أن يصل الى مهجره حتى بعث بلواعجه الى الأصدقاء والأحباب .

وبديهي ان يقول رفيق:

يا لهف نفسي على تلك الربوع بها ربيـع عيشيَ قـــد ولى ولذاتي

ويسترجع الشاعر المظلوم الطريد ذكرياته عـــن الفويهات الضاحية الجميلة لبنغازي ،وعن البركة ضاحية بنغازي، وعن جليانة مصيف بنغازي القديم الحديث وعن قهوة الشط وهو مقهى كان للسيد العرودي على رصيف البحر بشارع النصر الآن وعـــن حديقة المحيشي .. والمحيشي صهره ... وهو يقصد المغفور له عمر فخري المحيشي من أكبر شخصيات بنغازي وكان الصحفي الأول ومواطناً غيوراً ربما كان من أسباب نزعة رفيق الوطنية إذكاء عمر فخري لروح التحمس في قلب الشاعر رفيق .

اذا تذكرت ايام الربيـع وقـــد كسا الروابي بألوان النبـــاتات
وفتّح النور ، افواهـــاً معطرة سكرت من نفح هاتيك (الفويهات)

إلى أن يقول :

واذكر بها (البركة) الفيحاء زيّنها — وقت الغروب وهبات النسيمات

وحتى يقول :

واذكر (بجليانة) الحمام ان له — ذكرى تحرك مكنون الصبابات

وفي ذكرى السابحات الفاتنات يتغزل رفيق بقوله :

فيه الجمال تجلى غير محتشم — يسبي النهى في تثن والتفاتات
ينث اسرارما تخفي المآزر من — خلف الظباء وقدام الظبيات
لا بوركت حلل الصيف التي فتنت — بما وشت من بدور بين هالات
ما خلّف الصيف غيرالحر في كبدي — ولا الملاح سوى مرّ اذكاراتي

إن قول رفيق وتصويره المبدع في عبارات (غير محتشم) وهو يقصد العاريات على البحر .. أجمل ما يمكن ان يبدعه فيما لو نحته نحتاً سيما عندما يقوم في تثنٍ والتفاتات...وقوله ينث بمعنى يفشي الأسرار أي أن عراء الغيدالفاتنات يفشي اسرار ما تخفي عند المئزر يريد هنا أن يتحدث عن أجمل ما يغري الإنسان من المرأة وهما الردفان .

وينحي باللائمة على الصيف الذي لم يترك بمروره سوى لواعج وذكريات يحملها الشاعر معه إلى جيحان في تركيا ويتذكرها فيبعث بها من هناك قائلاً : لا بورك في الصيف الذي طبع في مخيلته تلك الذكريات الجميلة ذكريات بنغازي بصيفها الجميل وفاتناتها السابحات العاريات على رمال شاطيء جليانة ... وحتى يقول :

غيد سهام الهوى منهـــا مفوقة   كل القلوب لهـــا صرعى اصابات
يجرحن افئدة النظـــار في لعب   ولا قصاص على تلك الجراحات

أي أديب شاعر وصف الجريمة التي تقع بالمرء حين ينظر إلى ما يغريه فيصرعه المنظر .. إلا أن تلك السابحات الفاتنات – يجرحن بلعبهن قـلوب النظارة ولا عقاب عليهن على تلك الجراحات التي يتركنها في النفوس .

ويتذكر رفيق في قصيدته الموسوعة التي بعث بها يحن إلى وطنه من جيحان .. فيما يتذكره .. مقهى العرودي .

وقهوة الشط ما احلى الجلوس بها   بين الأحبة في تلـــك العشيات
معاهدٌ لبلادي كنت آلفهـــا   خلّفت وا أسفي .. فيهـــا لباناتي

وهذا البيت ردده رفيق رحمه الله في نهاية كل ذكرى لمواطن ذكره من زوايا بنغازي .. خلفت وا أسفي فيهـــا لباناتي . واللبانة هي الأمنية والغرض .. والقصد ما قد يريده الإنسان في حياته .

ولعل رفيق ينزع إلى ذكريات الطرب فهو قـد عاش أديباً شاعراً والأديب يستمتع ويتذوق الطرب والفن .. وقـــد سمعت من رفيق قوله .. إنني أحب الاستماع إلى زمارة المحروق (وهو شخص كان يعزف بالقربة ينفخ فيها ويجس ثقوباً في قصبتها السفلية فتحدث أنغاماً مشجية) . احب إلي من الاستماع إلى أية أغاني جديدة مبتكرة ... انها باتت لا تطربني ..

يقول رفيق :

زمـــارنا بارع فاقت براعته   كادت براعته تأتي بـــآيات

وهنا يبالغ رفيق في إحساسه بالطرب ولو أن هذا البيت فيه ركاكة من تعدد كلمة بارع براعته .. غير أن رفيقاً وضع العبارات حيث لا تظهر الركاكة .

إلى أن يقول :

يوّقع اللحن موزوناً فيسلبنا ... ألبابنا بين تصفيق وصيحات
هنالك العيش مخضر جوانبه ... ظل وريف وأرضٌ ذات خيرات

وها هو بعدئذ يصور ما عاناه وما قاساه من الواشين به . فيقول :

تأثرتني عيون القوم ترصدني ... تحصى خطاي فتحصيها خطياتي

إلى أن يقول :

ونحن قوم بحمد الله في نعم ... ليل بغير صباح في ضلالات
فضائح يفرح المستعمرون بها ... اذا ارادوا انتهاز الاعتقادات
يسرنا اننا مثل البهائم أو ... أقل مرتبة مثل الجمادات
اهم اسلحة المستعمرين اذا ... سادوا على أمة نشر الجهالات

وإلى أن يقول :

فالحر إن لم يمت مما يرى كمداً ... ويلٌ له من حياة الاحتقارات

ويسترسل في قوله :

خلقت حراً فما فوق البسيطة من ... اعنو له غير جبار السموات

وينهي قصيدته بقوله :

لا طبّ عندي لداء الاجتماع سوى ... حب يمحّص اسباب العداوات

٣

الحنين في شعر رفيق

عندما هجر رفيق أرض الوطن إلى تركيا واستقر بمدينة (جيحان) .. وبمرور عام على فراقه وطنه حن إلى الربوع التي نشأ فيها وترعرع وشب وعرف الأصدقاء والأصحاب والاخلاء، وتذوق فيها طعم الحياة ولو أن رفيقاً تذوق المرو عانى التنكيل في هذه المدينة بنغازي إلا أنه يشغف بالمآرب التي قضاها حتى تحت أسوأ حالات الاستعمار ... وكأني به وهو الشاعر الطليق الحر .. يتمتم في أعماقه ليقول ما استشعره ولينطق بما اختلج فيه .. وقد جربنا أن الشاعر كثيراً ما يتأثر بموقف فيحاول نظم القصيد عنه ولكن الظرف يمنعه من ذكر كل ما يريد أن يقوله .. وهنا ... تقف المفردات في رأس القلم ويتلعثم اللسان وترتجف الأكف التي تحمل اليراع للتسطير والتعبير ... ذلك أن اختيار العبارات المناسبة لا يمكن أن يكون حلاً للشعور الظافر الذي يريد أن يسجل الأثر المحسوس بالعبارات التي تقفز من الوجدان طليقة ملهمة رخية طيعة .. ولهذا فرفيق عندما يتكلم من جيحان لا بد وان العبقرية الحزينة الطريدة المعذبة .. وان توحي بما يصور الحنين إلى الوطن في إطاره البريء الدافي المعبر .. فماذا قال رفيق وهو الناطق من بر الأتراك على ما يستشعره من بعد المسافات بينه وبين رفاقه وذويه .

تكامل حول منذ فارقت اوطاني ... فما نلت في اثنائه غير احزاني

نوى قذف ـ زمت ركابى ، لم تزل ... تقلقل بي حتى اتت ارض جيحان

فالقت عصا التسيار في شر بقعة ... تالب في ارجائها شر سكان

تركت بلادي إذ شعرت بانني ... سالقى صغاراً منه يأنف وجداني

وسرت لأرض غير أرضي مؤملا ... لعز .. فكانا في المصيبة سيان

فيا خيبة المسعى إلى غير موئل ... من النجع مشفوع بأعظم خسران

فقدت بلادي وهي عندي عزيزة ... ولم ألق ما أملت في بلد ثان

كاني غراب البين ضيع مشية ... ولم يكتسب مشى الحمام باتقان (١)

حنيناً وشوقاً يا بلادي فانني ... وان طال عنك العهد لست بخوان

فما كان بعدي عنك الا ترفعاً ... عن الضيم لابغضاً ولا قصد هجران

واني لاكمى في الجوانح لوعة ... لحبك يوريها على البعد تحنان

اذا خفف الدمع الآسي فمدامعي ... لها قوة زادت أساي وأشجاني

فما كان عذب الماء في الجير منشئاً ... على خصر فيه حرارة نيران

يقول رحمه الله أن هذه القصيدة فقد جلها فكأنه يأسف للمفقود منها والحقيقة أن القصيدة على الرغم من كونها مفقودة الحلقات إلا أنها في ذاتها ليست تلك القصيدة القوية التي كان لا بد أن يعصرها وجدان الشاعر الحانّ الحزين على فقد وطنه فكان الشاعر حين بعد عن الوطن انشغل بآلامه وأشجانه فصرفته عن الإجادة فيما كان منتظراً منه أو أن الأبيات المفقودة ربما كانت بيت القصيد .. وحسبنا إذا أردنا نقاش هذه القصيدة ونقدها نقداً يليق بمقام الشاعر الكبير أن

---

١ ــ يقال ان الغراب اراد ان يقلد مشية الحمام .. فلم يحظ بذلك وفقد مشيته.

نستغرب من الشاعر عدم إجادته الإجادة المرتقبة من رفيق.. وإذا استثنينا قول الشاعر :

كما كان عذب الماء في الجير منشئاً على خصر فيه حرارة نـــيران

فان بقية القصيدة لا تدل الدلالة القوية على ان هذه الأبيات هي من أجود ما جادت به قريحة الشاعر رفيق – وتصوير الشاعر وتمثله بالماء البارد الذي يصب على الجير فيلتهب وتكون المياه الباردة التي صبت على الجير لها حرارة النار . إنما تصوير وتمثل قوى جدير بالإشارة والتقدير.. إني أتصور رفيق الحزين المطرود من وطنه هارباً بعقيدته ووطنيته إلى بلاد بعيدة تفصلها عن الوطن الأصلي بحار وأراضي .. يستقر بمكان فقد فيه الأحبة والاخلاء وهو لا يعرف فيه أحداً .. سوى من قد تربطه به صلة قرابة عتيقة وقديمة .. أتصور رفيق كمن يريـد أن يقول كل شيء ويريد أن يصور فوق ما يستطيع اللسان أن يصفه فلا يجد التعبير الصادق للتصوير والسبب أنه كثيراً ما تترادف أحداث وأسباب والشاعر يلتقط ظروفها حبة فحبة .. فهو عندما يريد تصويرها والتعبير عنها يجد نفسه تبعـــد عليه شقة التصوير وتتلاشى حكمة الإبداع فهو يفحم عن ذكر اللواعج . ويقصر عن تصوير الواقع .. وكذلك يحدث . فمثلا عندما يفاجأ الانسان، بشيء فوق ما كان يتصوره فيندهش له ومن هذة المفاجآت أشياء سارة وأشياء ضـارة إني أعتقد ان الفاتنة الجميلة عندما تكون أجمل مما يتصوره الانسان . ويجدها طيعة له ملك يديه .. لا يملك لها أكثر من الاعجاب فهي لا تثير غريزته مثلما يثيرها جمال عادي مرغوب وموجود .. فالنادرة الفتنة والجمال التي تفوق ريشة الفنان أو تصوير الشاعر أو الأديب لا تلقى تلك الرغبة الجامحـــة من الغريزة البهيمية وكذلك الحدث أو الخطب الجلل الذي يفوق مـــا كان يتصوره الشخص .. لا يترك للوجدان حيلة للتعبير فكثيراً ما يفحم الانسان من التعبير القوي الجيدعند وقوع خطب كبير بشخص ما ... وكثيراً ما يؤبن عزيزاً بغير الأسلوب الذي ينتظره الناس من عزيزه الحبيب .. ولقد رأيت المرحوم عمر باشا لم تهطل منــه

دمعة ولم ينطق بكلمة حينما أنبىء بوفاة فقيده العزيز ووحيده المرحوم فتحي بك الكيخيا وهذا من قبيل شدة وقع الخطب على صاحبه .. فرفيق عندما عبر عن تحنانه لبلاده من جيحان اعتقد أنه كان يشعر بأثقل فاجعة عليه .. وهو مـــا أبعد عنه الالهام الحقيقي المألوف عنه فكان وقع الفداحة الذي ينتاب شعوره بما هو أخطروأجسم من تنميق العبارات وتدبيج الكلم واختيار المفردات والمحسنات من البيان .. لذا كانت قصيدته خالية من الجودة .



٤

القصة في شعر رفيق

احسنت لجنة تجميع ديوان رفيق وطبعه ايضاح الحقائق والقاء ضوء على حقيقة الفترة التي الف عنها رفيق قصيدته غيث الصغير . ففي الآونة التي اخذت بلب الشاعر والهمته قصته عن الصغير غيث احد نزلاء الملاجيء في برقـة كانت ايطاليا تريد القضاء على المقاومة الوطنية بأية طريقة ولو كانت مخزية او منافية للانسانية ومباديء حق الانسان. وفعلاً لجأت الى حشد الاهالي ممن لهم قرابة او صلة بالمجاهدين .. في معتقلات كانت سبباً في فناء الالاف من الوطنيـين بسلوق والعقيـلة وغيرها . وكانت المعتقلات تضم مئات الاسر بشيوخها وعجائزها واطفالها ... يحكمون على المعسكر بعض السفاحين والطغاة ممن لا رحمـة في قلوبهم انتقاماً من المواطن وتقتيلا له بطريقة جديدة لم يعرفها معتقل (بلسن) في المانيا الا من الطاغية غراسياني .. وقد صور الشاعر ان صبيـاً يدعى غيث كان من نزلاء تلك الملاجيء وحيال زيارة غراسياني القائد السفاح الايطـالي المشهور للملجـأ الذي به غيث لفت نظره الغلام فتحادث معه وقال له .. لو اعطيتك مبلغاً من المال ماذا تشتري به ؟ فأجابه غيث على الفور .. اشتري به مسدساً لأنتقم ممن قتل ابي وأمي وشرد اهلي ، فأمر الطـاغية بوضع السم للغلام .. فمات بعد ايام مسموماً وقال غراسياني لو بقي مثل هذا الغلام حياً لا شك انه سيكون آفة علينا.. وهكذا طبع العرب لا يستكينون ولا يذلون... فأنظروا الى تصوير رفيق في هـذه القصة الشعرية .. ورقة اسلوبه وتأثيره في

القاريء والسامع وسلامة التعبير في الانشاء وانقياد الكلمات للاسلوب ورصف القـــافية ..

هو في الملجـأ من دون اليتـامى دائم الصمت وقـاراً واحتشامـا
واضح الجـد قليـلاً مـا يرى ضاحكاً الا اذا استحيا ابتساما

هنا ربما يقصد رفيق بقوله ربما استحيا ابتساما بسبب زمالته لاصدقـــائه الذين قد يتندرون معه لا بد له من مجاراتهم الضحك لان عدم الابتسام يؤخـذ عليه انه ليس منسجماً معهم .

نافـــذ اللحظ .. تراه ناظراً نظرة الاجدل ... يرتاد الحماما

يصور الشاعر هنا بأن عيني الغلام نافذتان براقتان حريصان على متابعة كل شيء مثل ما يتـــابع الاجدل وهو الصقر فريسته التي يصطادها الصيـاد .. وعبر هنا عنها .

يتقي اقرانـــه صولته حين يحتد اذا اشتدوا خصاما
رمقوه باحـترام هيبــــة وقديماً اورث الجـد احتراما
واذا الجد مع العزم التقى جعلا للمرء في الناس مقاما

حكمة بالغة وامر مرئي صابر فالجد ومعناه العزيمة اذا التقيا في انسان كانا سبباً في رفع شأنه بين الناس .. لان مقام الانسان يتجلى في جده وعزمه .. وفي الحقيقة ان الشاعر اجاد الحكمة والوصف .

هو في الملجا اذكى طالب بذهم (١) حفظاً وفهماً..وانتظاما
فهو رأس القوم رأياً وهدى شيخهم عقلاً وان كان غلاما
دون تسع ناحف في صحة واستواء كالرديني قواما ...

يقصد رفيق بوصف الغلام انه يبذهم بمعنى يفوقهم ... اي أن الغلام كان اذكى الطلبة حفظاً وفهماً ونظاماً وهو قائدهم في الرأي والحنكة وبمثـابة شيخهم وان صغيراً دون التسع من عمره نحيف الجسم صحته عليلة مستوياً مثل استواء (الرديني) وهو الرمح ..

تستحي عزة نفسي شمخت — للعلا .. الا يرى فيهم اماما
واذا نفس الفتى شبت على — عزة زاحم للمجد وسامى
ليس غير النفس باستعدادها — سوّدت في سالف العصر عصاما

يعني الشاعر ان الغلام اعتد بنفسه الشامخة فعزت اعزازا تستنكف معه ان لاترى وهي التي تؤم الاخرين لأن نفس الانسان اذا نشأت على عزة النفس وعدم قبول الهوان لا بد وانها تزاحم على اكتساب المجد والتسامي الى العـلا . ويضرب مثلا بعصام الذي بث عزة نفسه الا يكون الفارسي الهمام الذي يجيد الحرب والطعان وركوب الخيل — نفس عصام سودت عصاما .

جئت اعجابا به اسأله — فتبسمت واهديت السلاما
هب كالشبل نشاطاً واقفاً — وقفة الجندي للقائد قاما
اطرق الرأس وحيّا خافضاً — طرفه مني حياءاً واحتراما
قلت يا غيث الا تخبرني — عنك اني بك قد زدت اهتماما
فيك يا غيث توسمت فتى — اروعاً حراً وآباءاً كراما
ابن من أنت؟ ومن قومك؟ من — لك في ذا الملجأ اختار المقاما؟
لم أكن أحسب أني باعث — منه حزناً.. كان في السر مقاما
كتم العـبرة .. الا ثيرة — عرضت في الصدر عاقته الكلاما
جاشت النفس بحزن مثلما — جالت الدمعة في الجفن انسجاما

ان رفيقاً في هذه المحاورة والوصف لم يأت بالمفردات التي سبك بهـا بداية القصة .. ومن المعروف أن الشعر القصصي صعب الترصيف إذا كان له مضمون خاص ولذا أرى أن رفيقاً أدى الغرض بالأبيات ليصل إلى المضمون ..

قال يا مولاي لو غيرك لم ابك في حضرته.. اخشى ملاما
منك آنست حناناً ..لم أجد بعد أمي مثله يشفي أوامـا
إن للشاعر روحاً خلقت فوق روح الخلق حساً وغرامـا
لك يا مولاي أفضي بالذي كان صدري منه ينشق اكتتاما
ان في الشكوى إلى ذي رحمة سلوة تشبه بالصبر اعتصاما
رب شكوى جعلت نار الأسى نار ابراهيم برداً و سلامـا
فارعَ لي سمعـا فهذي قصتي تشرح البؤس ابتداءاً وختاما

لا شك أن الشاعر عبر في هذه المصاريع عن أرق الشعور وعن أساس المشاعر وأرق التعبير فقد أبدع أيما إبداع حين وصل إلى شرح الغلام قصته ولنترك غيثاً يحكي قصته للشاعر ..

كان مسعود ابي في قومـه سيد الاعراب معروفاً هماما
فارس الخيل غياث المحتمي مكرم الضيف كفيلاً للايامى
بـارك الله لـه في ثروة تملأ الوادي ثغاءً وبغامـا

يقصد الشاعر بغياث المحتمي أنه مغيث لمن يستنجد بـه وكلمة تملأ الوادي ثغاءاً مأمأة الضان .. وبغاما .. المأمأة القريبة عن مأمأة الشياه فكأنه يصف النجع وما فيه من حيوانات مختلفة ..

وله مـن بنت عم اخوتي خمسة ـ تنتقص البدر التماما

مرت الأيام لم نعرف لهـــا　　كدراً من نعم كانت جساما
فكأن الدهر إذ سالمنـــا　　سهر السعد لنا والنحس نامـا

ولنترك غيث يحكي للشاعر الذي قال عنه أنه منذ فارق أمه لم يأنس لحنان مثلما انس له عند رفيق ذلك لأن في الشكوى إلى ذي رحمة سلوة لا يشبهها إلا الصبر .. ورب شكوى جعلت ناري التي أعانيها برداً وسلاماً كما كانت على ابراهيم عليه السلام وان غيثاً ليحكي قصته للشاعر لأنه يحس أن للشاعر روحاً براها الله فوق روح الخلق جميعاً لإحساسها وغرامها المكتوم ومحاولتها دائماً اختراق الحواجز للوصول إلى الحقيقة .

٥

القصة في شعر رفيق

كم أتصور أحمد رفيق إنساناً في هـــذه القصيدة .. إنساناً تحركه مشاعر الحنان وتجسده وجدانيات الرأفة ..وترقق من كوامنه إحساسات الروحانية.. تلك الروحانية التي تعلق بضمير المتحرر .. فتصهر منه أخيلة تتحدث بالعاطفة وحمل هموم الغير ، والمشاركة في المأساة وتبادل المصير .. ورفيق هنا لم تحركه نحو غيث الذي شاء أن يجعله بطل قصته الشعرية أحاسيس وطنية بمقدار مـــا حركته نواحي إنسانية .. تشق على أي إنسان جديد .. إنسان شاعر ، إنسان فنان .. مرهف الحس .. والشعور . رطب الجانب ، تجرعـه لواعج الناس .. وتخدش نفسه الرقيقة مآسي الغير .. ورفيق حين ينصت إلى المـــأساة وكيف يرويها له غيثه الصغير إنما يبري نفسه ويرهفها حتى لتـكاد تصل بسموهـا إلى الملكوت وهو لم يرحل بعد إلى الملكوت حينما تصور قصته هـــذه . وها غيث الصغير يحدث شاعرنا كيف دهم أهله الغزاة وكيف كان مصيره حتى لقيه بالملجأ ثم يسكت غيث عن رفيق ويخرج رفيق من المحادثة والمقابلة لأن غيثاً سينشغل مع الوالي الذي جاء يزور الملجأ ليقذف غيث البريء بأشنع ما تجرؤ نفس خسيسة عليه وهو الأمر بوضع السم لطفل بريء يتيم ..

بينما الحي رقود .. إذ علت   صرخة تنذر بالشر النياما
ثارت الأطفال من مضجعها   تملأ الرحب صياحاً وزحاما

رجت الأرض صهيلاً مفزعاً ورغاءً ونباحاً وخصاما
لبسوا ثوب الدجى (ايدي سبا) يخطبون البيد في البر انهزاما
تركوا الأثقال والمال ومـا خف حملاً والمطايا والخياما

لا حاجة إلى تفسير ما عناه رفيق في هذا الوصف للفاجعة .. إلا أنه قصد بعبارة أيدي سبا .. البعثرة والضياع .. لكن قوله – خف حملاً في رأيي كان لبساً على الشاعر .. لأنه يقال للمباغت لم يحمل معه إلا ما خف حمله .. وكان رفيق يقصد أنه المباغتة التي حدثت لأهل غيث لم تمكنهم حتى من حمل مـا خف حمله .

ورأى الأبطال أن الموت لا شك فيه فتلقوه زؤامـا
قيدوا ارجلهم صبراً فما حلها غير رصاص يترامى
حلها من ربقة العار ومـن عيشة الذل ..فقد ماتوا كراما
هون الخطب علينا .. موتهم في دفاع كان للحق انتقامـا
ما ترى في الحي حياً بعدما فرت النسوة يحملن اليتامى
سلكوا في كل شعب هرباً يستجيرون من الظلم .. الظلاما
لست أنسى اخوتي..في جبل يتضاغون من الجوع صياما
منذ يومين يسيرون ومـا شربوا ماءً .. ولا ذاقوا طعاما
ساقنا الخوف إلى غار بدا تتوقى الجن فيه ان تنامـا
ما دخلنا الغار حتى هجمت ضبع فافترست منا غلامـا
وانثنت في اثر .. ثانٍ .. فاقتفت طفلة .. في لحظة صارت عظاما
وتردى ثالث في هـوة لم يزد عن قول يا (أم) كلاما
أمه تجري ولا تدري وفي صدرها من لم يطق بعد فطاما

تركت أطفالها صرعى لها — لفتة كانت إلى القلب زماما
خلفتني وهي لا تعلم هــل — خلفها أتبع أم فت اماما
خانني عزمي ورجلاي فلم — استطع من شدة الهول قياما
ففقدت الرشد مغشيا فـما — قمت حتى هزم الضوء الظلاما
وفقدت الأم لا أعلم هــل — افلتت بالطفل أم ماتا هياما
ليتني أسمع عــن موتتها — فلقد أبقت لي الهم لزامـا
حبذا الموت ولا العيش هنا — خاضعاً في ربقة الأسر مضاما
وهنا أجهش غيث شاحباً — إذ رأى دمعي كالغيث رهاما
وارتمى بين ذراعيّ فمـا — رام عن صدري ضماً والتزاما

القصة أبدع ما صورها شاعر أديب ورفيق أعطى الميزان والمضمون والقافية والتعبير الحق الآخر من المفردات التي تتناسق وروعة الواقعة غير أنه بالغ كثيراً في المأساة. وهذة المبالغة محببة فالضبع التهم أكثر من اثنين والأم ماتت والنجع تشتت وفي الغار الذي لا يكاد يسكنه الجن .. والناقد لا بـد وان يرى رفيقاً كيف انتحى ناحية الضرب على العاطفة ليجعل المتخيل للواقعة يكفكف دمعه دون روية أو علم وفي رأيي أن هذه المبالغة هي جميلة عظيمة ومرغوبة في الشعر القصصي .. ولنستمع إلى رفيق يقص زيارة الوالي الإيطالي للملجأ ومـا حدث لغيث اثر الزيارة .

بينما رحت أهدّي روعــه — وإذا بالقوم يبدون اهتماما
قيل هذا (دولة الوالي) اتى — ليرى في (ملجأ البر) النظاما
خرج الأطفال واصطفوا له — للتحيات هتافاً وسلامـا
جال يستعرضهـم ممتحناً — وهو يختار غلاماً فغلاما

ما رأى فيهم كغيث إذ رأى　　من ذكاء عجباً فاق الأناما
خاطب الطفل ملياً فرأى　　رابط الجاش فصيحاً لا كهاما
قال هـــذا عبقري فارفعوا　　قدره إني سأعطيه وساما
فتلقاه بشكر مظهـــراً　　لسرور تحته يخفي احتداما
وحبـــاه بنقود قائـــلاً　　أعط انفاقها للنفس مراما
قال يا مولاي اقصى غايتي　　صرفها بين الأخلاء اقتساما
لا أحب البخل أنا معشر　　نؤثر الغير ولو بتنا صياما
هكـــذا علمنا آباؤنـــا　　طيب الأخلاق فعلاً لا كلاما
إن أخلاق الفتى إن لم تكن　　عن غريز الطبع لم تبقَ دواما
عرف الوالي لغيث همـــة　　ورأى جوداً له يحكي الغماما
زاده رعياً وهل غير ذوي　　الفضل يرعى لذوي الفضل ذماما
قال خذ يا غيث هذي مايـة　　لك لا تسرف وكن فيها قواما
قـــال يا مولاي سمعاً انني　　سوف ابقيها وان كانت حطاما
لا أرى المال إذا لم اكتسب　　منه ذكراً حسناً إلا حراما
قال ما تصنع يا غيث بها　　قل لي الحق ولا تخشَ ملاما
قال غيثٌ وبـــدا الجد على　　وجهه يشبه ليثاً أو قطامـــا
إن لي ثاراً إذا أدركته　　لا أبالي بعد أن ذقت حماما
لو تحصلت على مال بـــه　　اشتري عدة حرب وحساما
أدرك الثارات ممن قتلوا　　والدي اني أريـــد الانتقاما
هو منشودي من الدنيا التي　　لي ساءت مستقراً ومقامـــا

ليس في التصريح بالحق وان جر ويلا جرأة تكسب ذاما
ان حر النفس لا يحجم عن ان يقول الحق للصدق التزاما
نظر الوالي الى غيث ولم يظهر الحقد ولا أبدى ملاما
ورأى أتباعه مـــا غاظهم فتعاطوا نظرة كانت كلاما
أضمروا سوءا ولكن لم يروا سبباً يوجب منه الانتقامـا
لجأوا ظلماً وعدواناً الى أفظع الأفعال إذ كانوا لئاما
عادة النذل اغتيال ولذا جعلوا سراً له السم طعاما
ما جرى في جوفه حتى سرى في وتين القلب كالنار اضطراما
خر للموت صريعاً يلتوي يطلب الماء .. فيبدون ابتساما
اسوداً من كبد ذابت رماما لم يزل ينفث من فيه دمـــا
يلفـــظ الآخر من أنفاسه وينادي الانتقاما .. الانتقاما
راح مظلوماً شهيداً جاعلاً لفظة التوحيد لله ختامـــا



٦

اغـــتراب ...

ها هو الشاعر الباسم المؤمل يغترب اضطراراً ، وها هي النفحات المخلصة تتطاير من الإلهام كأنها صواعق متتالية تسددها السماء إلى القلب الجائر الطاغي ، القلب الذي فرض بجموده على الإلهام أن يترك موطنه ووكنه وآثاره مرغماً — ليحل غربة وليقبع حيثما لا يريد وليألف من لم يألف من قوم وان كانوا منـــه فيراهم جدداً عليه ..

ها هو الكنار الذي لا يصمت ... والعندليب الذي لا يسكت .. والفكر الـــذي يصرع اليأس .. ويصارع الألم ويتغلب على مقومات النفس .. فيبعث تأوهاتها .. آمالاً جساماً كباراً ... تتغذى بها الروح التي لا تفتأ تثير كوامـن النفس بغير ما هو مفروض عليها .. وها هو الإلهام يجسم للشاعر وضع بلاده .. على بعده عنها ... فتتمثل في مخيلته أسباب الرجعية .. الرجعية التي لا يريـد الشاعر أن ينساق ركاب شعبه في قافلتها .. أو أن يتسرب فكر مواطنيه إلى عواهتها ... فينصح ويردع ويزجر بأسلوبه العـــذب السلس الساخر مبيناً المساوي التى تنشأ عن تصديق خرافات المسخرين لإظهار معاني الدين في صورة الرجعية والتأخر .. حاثاً مواطنيه على معرفة الدين الحنيف .. المعرفة الـــتي تتناسب وروح التشريع واتباع السنة ..فانظر واستمع اليه يصف الغربة وتركه وطنه واللواعج التي يكابدها .

كادت تطير بأضلعي أشواقي يوم الفراق.. فهل يكون تلاقي؟

ودعتـه والله يشهـــد أنني ودعت راحة قلبي الخفـــاق
يا راحلا : بالصبر ، لم يترك لنا غـــير الحنين .. وزفرة المشتاق
ذكراك مثل النار في أشواقنا تزداد بالتحريـك في الإحـراق

أشواق كادت تطير بالأضلع يوم فراق الوطن العزيز والأحبة .. فهل من لقاء بعد هذا الفراق ؟ الله يعلم وهو أصدق إيمان أنه ودع راحة قلبه الذي ما فتيء خافقاً يوم أن ودع وطنه.فيا أيها الراحل الذي ملك صبره فأبعده عنه ولم يترك له بديلا عنه إلاحنينا زفرة ينفثها مشتاق على أحر من الجمر ينتظر لهفة وحنيناً... إن ذكراك أيها الوطن الغالي مثل النار وقعها علي فهي تزداد مع الأيام حرقة كما تزداد النار لهيباً بالتحريك والنفخ ..

يا راكباً متن الخضم لموجه غضب يثور كهائج الأشواق
ما سرت الا فوق مثل مدامعي تنهل بين محاجر ومآقي
لو كان قبل الموت يوم قيامة كان الفراق قيامة العشاق
والهفتا .. للقلب بعدك ماله غير اللقاء .. من الصبابة واقي
إني لألقى من فراقك مثلما القى على وطني من الإشفاق

أوردت لجنة وضع ديوان رفيق تحت عنوان هذه القصيدة— فراق وشكوى — قولها :

— سلك الشاعر مسلك الأقدمين في ابتدائهم لقصائدهم بالتغزل ثم الدخول على الموضوع ثم وصف الحالة التي عليها الوطن وأبدى الشاعر في هـــذه القصيدة ألمه لما آلت اليه الحالة ونـــدد بالعادات التي خيمت على نفوس الناس ووصف الدواء .. —

اما التعليق على الأبيات التي ستأتي فإنما هي متروكة للمضمون .. وهـــذا النوع من الشعر تشبيب جميل غير ان رفيق اكثر من المراوغات لعبارة الأشواق

وترد الكلمة اكثر من مرة قبل عشرة مصاريع معيب في الشعر .. وقد يكون عذر الشاعر انه مشتاق فعلا – فلا غرابة ان يتأتى الترادف جميلا في شعره ..

وطني من الإيمان حبك ليس لي — من .. عليك .. وأنت ذو استحقاق
لهفي عليك ! متى أراك منعماً — يحمي كريم حماك شعب راقي ؟
لهفي عليك ! أراك مبرأ — من سوء عادات وشر نفاق ؟
ظلموك باسم الدين جهلا مالهم — علم سوى التقليد والإغراق
الدين يبرأ من أمور خالفت — حكم العقول وسالم الأذواق
الدين توحيد القلوب محبة — وعبادة للواحد الخلاق
ما بالنا سفهاً جعلنا بيننا — أدياننا .. سبباً لكل شقاق ؟

لا من لي على الوطن بحبه له فأنت تستحق ايها الوطن حبي دونما سبب امن به واستهدف الشاعر بيتاً لحافظ ابراهيم شاعر النيل الذي يقول :

لهفى عليك متى أراك طليقة — يحمى كريم حماك شعب راقي

وحمل الشاعر على العادات التي ذكرت لجنة وضع الديوان ان الشاعر هنا بعد ان ابدى امتعاضه من الحالة التي آلت اليها بلاده جاء يقرر ان ما ليس وحياً ولا سنة يجب طرحه فالدين يأمر بالعمل ورسوله الله – صلعم – يفضل من يسعى في سبيل الحياة على من اتخذ حرفته قيام الليل للعبادة والاتكال على غيره. اما كلمة اديانا فليس معناها انه يقصد بأن في ليبيا معارك بين اصحاب الأديان المختلفة كالإسلام والمسيحية واليهودية لأن هذا غير موجود فالكل مسلم وما عدا ذلك فطوائف طارئة وقليلة .. وإنما قصد الشاعر ان المسلمين وقد اختلطت عقائدهم بكثير من الخرافات حتى صاروا يعتقدون انها من الدين والدين منها براء .. اصبحوا بمنزلة اصحاب الأديان المختلفة المتعصبة نتيجة المصادر التي استقوا منها هذه الخزعبلات حتى اثرت في سلوكهم وجعلتهم متواكلين يتعجبون

من كل شيء ولا يعملون شيئاً .. فهو لهذا يطالب بطرح كل العادات السيئة لأن العادة عنوان لما وصل اليه المرء من اخلاق وعمل وهذا شعار عصرنا ..

هذا تفسير مجمع الاديان .. ولعل التفسير هـو حقيقة مراد الشاعر .. بيد ان اسلوب التفسير جاف سوقي لا يتلاءم وقـوة تعبير الشاعر وولوجه الموضوع .

جاء الممدن .. للوجود .. مؤدباً — ليتم حسن مكارم الاخـلاق
ما ديننا الذي هو صـادر — من هديه .. من فوق سبع طباق
ما لم يكن وحياً .. ولا هوسنة — فأحكم عليـه ببدعة ونفاق
نستحسن العادات وهي تضرنا — ان التعود كالسجيـة باقي
النفس تألف كل ما عودتهـا — حتـى تروم السم كالترياق
ان المضر اذا استحال خليقة — صـار التنزه عنه غير مطاق
قد يرهق الانسان معتاد يرى — في تركه ادهى من الارهـاق
انظر الى العادات في قوم تجد — عنوان ما نهجوا من الاخلاق
لا شيء كالاخلاق معيـار على — قدر السقوط او المقـام الراقي
العلم والأخلاق في شعب بـلا — عمل زخارف باطل زهـاق
أنظر الى الاشجار قيمتها بلا — ثمر .. تقل بكثرة الاوراق
عصر التمدن والتجدد عصرنا — ذهبت عصور السيف والمزراق

لا بد من وقفة على نصح الشاعر الفيلسوف .. لنراه يحدثنا عن العادة اذا تأصلت صارت خليقة وطبعاً وان ما اعتاده الانسان يصبح تركه مرهقاً .. حتى ان الاشجار قيمتها بلا ثمرتها تقل ولو كثرت اوراقها. اننانعيش في عصر المدنية والتطور وقد انتهى عصر الطعان بالسيف والرمح. والمزراق آلة تستعمل قديماً في

الحروب وها نحن مع الشاعر يجوب بنا آفاق العصر الحديث ويطوف بنا عبر المدنية الجديدة وليسمعنا قوله :

هذا زمان الكهرباء .. تنورت	فيه العقول كنورها البراق
باحت باسرار العقول عجائب	ظهرت بفضل تفكر .. الحذاق
ما الكهرباء..سوى وميض لاح من	نور العقول .. ولا يزال الباقي
أنصت الى (المذياع) ينقل راوياً	اخبـــاره عن سائر الآفاق
لا يعرف التحريف احكى من صدى	في مثل سرعة لمحة الاحداق
تلك الكرامة ..لا التي قصرت على	رقص الجنون .. وهزة الاعناق
روح العبادة .. محض اخلاص له	بالشرع كل تطابق ووفاق
تلك العبادة في خشوع .. لا التي	يأتونها في ضجة ونهاق

نصائح مجدد .. وكلمات جاءت شعراً كلها توحي بأن الشاعر ثائر على بعض العادات التي يعتبرها البعض عبادة .. والشاعر مـــاذا يقصد برقص الجنون وهزة الأعنـــاق .. قد لا اذهب بعيداً اذا قلت انه يقصد الذين يمدحون بالطريقة التي ألفناها عند المريدين للاولياء .. وقول الشاعر في ضجة ونهاق اي الجلبة والنهيق كذلك مقصود منة المديح بالجهر .. وعلى كل حال ان رمي المتعبد المعتقد بالنهيق شيء غير مقبول فالمعتقدات سيما في طريقـــة التعبد والتقرب لله .. ينبغي ان لا تقابل بالقذف اللاذع وسامح الله المرحوم الشاعر .. وكل مأخذي على هذه القصيدة انها تكررت بها عبارات قافية واحدة فمجتها .

٧

هل كان الشاعر عاشقاً ؟؟

في قصيدتين بتاريخ واحد تغنى الشاعر بأبيات اكتنفت في طياتها سراً .. وسترت لواعج ربما تغلغلت في نفس الشاعر ومنحت الأبيات انطلاقة لم تلبث ان موهتها عوامل الشخصية التي لا تسمح لذاتها بانحراف نحو المجون، أو ربماخشيت تأويلها بالمجون فقصرت القصيدتان مع كونهما مرتعـــاً خصباً يسمن ويغني من جوع .. ويشبـع الوجدان بتأثرات ومؤثرات توحي بالتغني وتجلي الالهام وتسخر القريحة .. لكن شاعرنا وقف وموّه وتنصل من امر السر الذي حركه فأراد ان يسترسل فيه ثم انثنى عنه ليقول في القصيدة الاولى قالت حذام – عندمـا سأله سائل هل القول صحيح أم لا ؟ وفي الثانية قوله :

يشكو جراح الحب في   قول المغـني يا حبيبي

وتدل كلمة قالت حذام على قول الشاعر الذي أبى إلا ان يطلب الى الناس تصديق حذامه في قوله :

اذا قالت حذام فصدقوها   فإن القول ما قالت حذام

وللتعريف والدلالة لا بد لنا من ايضاح هـذا المطلع .. فبيت المحيشي هو منزل الجد المرحوم سالم باشا المحيشي أحد اعضاء مجلس الادارة في العصر التركي وهو من مصراته اصلاً ... ثم خلفه مؤسس جريـدة برقة المرحوم محمد طاهر

المحيشي الذي توفي في ريعان شبابه وهو ابنه الاكبر. وكان ذا جاه وثراء وشباب غض.. وبعد وفاة المرحوم طاهر خلفه اخوه المرحوم عمر فخري المحيشي وكان اكبر شخصيات البلاد ادار الجريدة في العهد الايطالي واشتهر بوطنيته واخلاصه لبلاده ومن اصدقائه المعاصرين من يقول .. ان عمر فخري المحيشي كان مدرسة للوطنية وكان اذا اراد ان ينشر شيئاً عن اعمـــال العدو ... يظهره في صيغة الخبر المرسوم الذي يعلم القارىء انه مفروض كما كان يظهر وحشية المحتل وانحداره وقسوته وانحلاله عن طريق نفس الخبر الذي يؤمر بنشره .. والمرحـوم رفيق صهر للمحيشي وصديق عزيز وكان يُكبر عمر المحيشي ويعده كذلك مدرسة للوطنية ويراه جليلاً عظيماً ووطنياً صادقاً ومخلصاً اميناً للبلاد وللشعب . أما سوق الظلام فانه هو هذا السوق الرئيسي المحجوب وهو سوق اللفة والذهب والبضاعات .

ما بين بيت المحيشي وبين سوق الظلام
رأيت وجها جميلاً اثار نار غرامي
حييته بابتسام فـــلم يرقه ابتسامي
واطرق الرأس واحمر وجهه في كلامي
لولا الحياء لمـــا رد جواب سـلامي
صد الحيـاء كلانـا عن بث ما في المرام
ذكرى الشباب تبدت امامـه وامامي
من بعـد تسع سنين مرت كرؤيا المنـام
وتوبـة وصـلاة موصولة . . . وصيام
هاجت بقلبي ذكرى سرت كسري المدام
فرحت اهتز سكراً اميـــل للانهزام

وراح اثبت مني بهيبة واحـــترام
فلا تظنن شراً تهوى به في الحرام
قالوا اهذا صحيح ؟ فقلت قالت حذام .

أما القصيدة الثانية فقد اسماها الشاعر سماعة الراديو وغرضها اترك للقارىء مدى ما يستشفه منها .. أما تعليقي عليها فلا يتعدى مـــا رأيته من خلال الابيات .. مما اعتقد معه ان الشاعر عاشق .. تمنعه ظروف عن البوح بما يحس. وبديهي ان الشاعر كان في عام ١٩٣٤ شاباً يتعرض للالوان التي يتغزل فيها ..

للراديو سماعـــة صنعت باتقان عجيب
مثلت صنعتها وقد دلت على معنى غريب
فعل الهوى في عاشق من جفوة الظبي الربيب
فكأنها قلب المحبّ اصابه لحظ الحبيب
أو ان سهماً للفرا ق رمى فاصمى من قريب
ما راحة القلب المعلق ما يقر من الوجيب
قد علقوه فصار كالمحروم حفظاً من نصيبي
يا ويحهم فطنوا لشيء ليس إلا للبيب
شعر تجسم من خيال جال في فكر رحيب
فن وما الفن الجميل سوى جنون في الاديب
ما صوروا إلا فؤادي بات في حر اللهيب
فالكهربا نيران وجهي والتغني مـن نحيبي
يشكو جراح الحب في قول المغني يا حبيبي

في البيت الثامن من هذه القصيدة يقول الشاعر :

يا ويحهم فطنوا بشيء ليس إلا للبيب

هذا البيت لا بد وانه يحمل في طياته بيت القصيد لان فطنة من يلحيهم التي منعت عليـه التكتم والتستر كانت سبباً في التهـــام بقية وحيه في القصيدة .. وهكذا شأن الشاعر الملتزم بذاتيته المؤثر الحرمـــان على لوك السمعة والاسم والمركـز .



طرب الشاعر

٨

حسبي من معرفتي برفيق ان اجل شعره .. وأعجب بسلاسته واقدر الهامه .. وانصف مفرداته بما يتلاءم وذوق الكثيرين ففي كتابه الاول تحت عنوان يا ليلة .. فسرت القصيدة بالقول :

« في ليلة من التي يستعذب فيها السهر ذهل الشاعر لانفعالها بسرعة انها ليلة قضاها بين الكأس والوتر فلم يعزف فيها لشدة طربه بين الصحو والسكر » وانا اخالف مدوني الكتاب في تفسيرهم هذا..فقد اجازوا ما لا يجيزه الشاعر لو كان حياً .. ولقد تجنوا عليه في مأربه وما استهدفه ذلك لأن الشاعر صاحب الهام وقد يصور الشاعر حالة لم تحدث له ويصف ما لم يفعله ويبرز صورة لم يكن هو بطلها ويذكر بالهامه ذكريات قد تكون خيالية ومن ضرب التفاخر أو التظاهر .. فرفيق حين صور هذه الليلة لم يكن ليصور نفسه الى الناس انه ثمل حتى لم يفرق بين الصحو والسكر .. وانما رفيق الشاعر أراد ان يدخل الى التاريخ ليلة من ليالي العمر قد تكون أقل طرباً مما ذكر أو اكثر مما وصف .. وفي رأيي ان رفيقاً اجاد كونه لم يترك الفرصة تمر من عمره دون تسجيل فهو قد أبّن ليلة انسلخت اوراقها من عمره في نفس المناسبة التي اراد ان يضفي عليها عطور التأبين . ولا اضيف تعليقاً على القصيدة اكثر من اعجابي برقة الاحاسيس التي عبر بها الشاعر عن تلك الليلة التي شامها انها من اجمل ليالي العمر .. غير

ان الشاعر كرر فعل التعجب في الحسرة والندامة والفرحة الأمر الذي جعـــل القصيدة تأخذ لوناًمن الوان الوصف والتمثيل. وعلى أية حالة فانالقصيدة عامرة دسمة معبرة .. لها موسيقاها وذوقها واثرها الخلاب في النفس فهو يقول :

يا ليلة بت بين الشمس والقمر   اقلب الطرف بين الصبح والسمر

لا ادري كيف اخر الشاعر الصبح عنالسمر وهو يقلب الطرف. انها ضرورة الوصول الى القافية وربط المصراع .. وكذلك ينبىء هذا البيت بأن رفيقاً لو كان سكراناً لنام ولم يقلب الطرف بين المرحلتين الصبح والسمر .. وعادة الثمل ان ينام بدلاً من ان يبقى صاحياً حتى الصبح يقلب طرفه .. وهذا دليل على ان رفيقاً استوحى السكر الشديد ولم يكن سكراناً في الواقع .

لذّ السهاد لعين بات يسعدها   جفن تعرض بين النوم والسهر

انني لا اعتقد رفيقاً كان سكراناً حين لذ له السهاد وبات السعد لعينه في ان يتعرض جفنها لما بينالنوم والسهر فهل كانالشاعر يتمنى ان لو طال ليله؟؟.. اني اشك في أن الشاعر قصد ليلة طرب وانه ثمل والمعنى في بطن الشاعر كما قيل:

لم ادرِ كيف انقضت في لذة قصرت   يا حيرة الذهن بين الطول والقصر

مرت فوالله ما فرقت من طربي   ومن هياميَ بين الصحو والسكر

ان اللجنة التي وضعت ديوان رفيق استوحت تعليقها على قصيدة يا ليلة .. من هذا البيت فاشتقت لها مناسبتها التي لا تتناسب والقصيدة وهدفها .

ليلي صفا ليَ والأيام في كدر   يا ذلة العيش بين الصفو والـكدر

سال المدام وسح الدمع يا ظمئي   والهف كبديَ بين السيل والمطر

لا ادري كيف يصفو الليل لرفيق وايامه في كدر .. كأن الليل ليس جزءاً

من الأيام ؟؟ ولا ادري كيف يترنم الشاعر الفحل بالتناقض من المنطق .. إذ إن العيش لا بـــد وان ينتابه الصفو والكدر .. ان الشاعر وصف العيش بالذلة إذا تنقل بين الكدر والصفو .. فما كان اعظمه لو انه وصف بالذلة العيش حين يتنقل بين الكدر والكدر .. غير ان رفيقاً أجاد في وصف المدام حين سالت والدمع حين سح .. وهو ظمآن .. ووصفه للدمع حين سح من عينيه في هذه الليلة الوضاءة جميل، لأن الطرب في ليلة جميلة حنونة صاخبة تؤثر في الشاعر سيما مشاعر الاديب .. وغالباً ما يبكي الاديب في مثل هذه اللحظات ويستذكر من ماضيه على صخب وجلبة الحياة في الليلة كل جميل ذهب وكل عذب اهرق وكل حياة بادت وتقطعت وكل أماني اذرتها الرياح .. انني اتصور الشاعر وهو في مجلس هذا الطرب تمتـد عيناه إلى الآفاق البعيدة فتشخص احياناً متسمرة في ماضي بعيد ترسخ ابعاده في ذهن الاديب .. وتعيد له شريطاً ما كان اجمله واحلاه أو مـــا كان اسوأه واضناه .. أما رفيق فهو يتم القصيدة بالأبيات التالية :

غنى الرباب ، وناح العود متئداً   يا حيرة السمع بين القوس والوتر

ما ألذ هذا البيت من القصيدة ومـا أوقعه في النفس .. يا لرفيق كم أبدع وصور .. غنى الرباب .. (المندلينو) .. وناح العود .. للعود نواح .. حقيقة ان جس العواد للعود يوحي إلى النفس كمن يضرب شخصاً يئن تحت وطأة ضربه .. ان رفيقاً حين صور العود نائماً في تؤدة .. عبر أصدق تعبير عن حكمة سمـاع الأذن لاوتار العود .. وعبارة ناح العود .. اجمل وصف للآلة العذبة المحببة .. وها هو الشاعر يستنجد ويلتمس التخفيف من حيرة السمع وهو متعلق بين القوس والوتر يفعلان به فعلهما القاهر المسخر للذوق والاحساس .

حمر الخدود على بيض الثغور زهت   يا حسرة النفس بين الخد والخصر

روعة وجمال في تصوير الشاعر فله ان يطرب وله ان يصف وله ان يدخل التاريخ ليلته الشاردة من الدهر .. عود ينوح فيحرك الوجـــدان ورباب يغني

فيشجي الولهان وحيرة للاذن بين القوس والوتر .. وجمال .. جمال يؤنس الليلة ويزجي السهرة .. خدود محمرة وثغور بيضاء زاهية..وقدود وخصور.. والهام ينسكب على الشاعر .. ووجدان يفضل الليل على الايام .. فلا لوم على رفيق الرقيق الحساس ان وصف ليلته وانهاها بقوله :

هذا يغني وهذا بات يغمزني　　يا حيرة العقل بين السمع والبصر
أنا القتيل ولكنّ السلامة لا　　تنفك بين قضاء الله والقدر



٩

رفيق المساجل

قامت مساجلة بين رفيق وبين الشاعر احمد الشارف .. واحمد الشارف كان رئيس محكمة الاستئناف الشرعية بطرابلس وهو شاعر فحل وان كان نادراً نزوراً .. ولرفيق مساجلات مع المرحوم الحصادي ومع البرقاوي وبعض الاصدقاء الأدباء .. وهذه المساجلات سنتناولها في احاديث مقبلة .. وذكر لي رفيق رحمه الله انه يحب الاستاذ الشارف. أما بداية المساجلة فقد كان المرحوم احمد الشارف في طريقه الى بنغازي خطر له بيتان فقالهما وبلغ رفيق هذان البيتان اللذان استوحاهما الشارف من ابصاره في القمر . فقال :

يا فقيه البيان قم وتأمل   قمراً في سمائه قد تجلى

أمن الحق؟ ان يكون شبيهاً   بمحيا الحبيب ام هو احلى

وقال كتاب رفيق .. انه بحجة القضاء على العادات السيئة المنافية للدين الاسلامي والنهوض بالمجتمع الليبي كانت حكومة ايطاليا تكون من علماء الدين ورجالات الوطنية مع كبار رجالها مجتمعات متنقلة في انحاء القطر شمالية وجنوبية شرقية وغربية لدراسة الاوضاع وتقديم التقارير عنها لتنفيذها . هذا الوضع سليم في مظهره ولكن الحقيقة ان هذه التقارير لم يكن الغرض منها إلا اقرار ما تريد

الحكومة الايطالية اقراره وهذه المجتمعات تسمى (اجتماع العلماء) اما ابرز المواطنين الذين حاولوا ان يتصيدوا كل شيء لمصلحة الوطن فهو الصحفي الليبي الكبير المرحوم عمر بك المحيشي اذ كان رحمه الله لا يترك فرصة تمر إلا ويجعل منها وسيلة من وسائل الاتصال بين المواطنين وقد ضربت عليهم الذلة او كادت – حتى لا يتفرقوا .

وكان المرحوم عمر فخري المحيشي يحاول الربط بين المواطنين بايجاد نوع من المساجلات الأدبية . . وهذا نوع من انواع الدفاع عن الكيان . أما قصة المساجلات فسببها رحلة من رحلات العلماء للاجتماع في بنغازي وكان ذلك عام ١٩٣٤ وكان السفر في ذلك الوقت بواسطة السيارات وبينما كان الركب وبصحبته شاعر ليبيا رئيس محكمة الاستئناف الشرعية الاستاذ الشيخ احمد الشارف ممعناً في سيره اذ به يتوقف لخلل في احدى السيارات وفي هـذه الاثناء برز القمر . . وكان بدراً والجو صحو وقد اضطر الركب الى النزول من السيارات وبينما هم في الانتظار . . اذا بالاستاذ الشارف يرتجل البيتين اللذين أشرت اليهما . . . يا فقيـــه البيان قم وتأمل . . الخ وقد بلغ خبر البيتين احمد رفيق عن طريق المرحوم عمر فخري بك المحيشي فأجاب عنهما بقوله :

اعتقد رفيق ان البيتين موجهان إليه . . فقد سئل فأجاب . . فضل وجه الحبيب على وجه القمر لاختلاف ما بينهما . . فالقمر لا يبعث في النفس السرور الذي يبعثه وجه الحبيب ولذا فهو افضل (ديوان رفيق) .

يا أمير البيان . . هذا سؤال كان حقـــاً جوابه منك أولى

كيف يفتى ؟ ومالك في مـكان ملكَ الحكم وحده واستقلا

يقصد رفيق ببيته هذا – القول المشهور كيف يفتى ومالك في المدينة ومالك هو صاحب المذهب الذي نقتديه في ليبيا .

إن فصل الخطـاب عندك لكن شئت الا تفننا ليس إلا
وبديع اتجاهل العارف النحر ير لاقى براعـة فاستهـلا
ليس لي أن اقول .. إلا امتثالاً بعد اذن اذ ـ اسمحتم ـ والا

غير اني أقول رأيي ولا احسكم مثل القضاة إذ لست .. ثم أني أخاف منكم إذ استؤنف حكمي يعاد لي مضمحلا ..

ما توهمت فيكم الحيف فيما قلت كلا وحقكم ثم كلا
قلت لما سمعت (قم وتأمل قمراً في سمائه قد تجلى)
(أمن الحق ان يكون شبيهاً بمحيا الحبيب أم هو أحلى)
ان وجه الحبيب يفضل عندي قمراً في سمائه قد تجلى
لي دليل والحق يسمح بل يو جب للمدعي بأن يستدلا
وصفوجهالحبيبأحسنتقو يم وفي (أي صورة) كا أحلى
من بني آدم .. وقد فضل الله بني آدم تعالى وجـــلاّ ..
أين للبدر كالحبيب عيون تسحر الناس سحرها قد أحلا
ليس للبدر وجنة تخجل الور د جمالاً فيرسل الدمع طلا
اين للبدر كالحبيب ابتسام من ثنايا كالدر ام هي اغلا
غاية البدر ان يقال شبيه بجبين الحبيب لاح مطلا
هومنفيحاجبيه(قابقوسين) وماطال، بل و فى فتدلى ....

هاهو رفيق الواقعي..ها هو الشاعر الذي لا يخدع الناس حتى في شعره..ان الشاعرصفته ان يتخيل ويقول ما لا يستساغ ويفضل ما لا يفضل ويضع في المرتبة الكبرى من ليس جديراً بها..ويضع المرتبة السفلى من لا يتقول فيه احد ... ان

للشاعر اذناً غير اذن العادي من الناس وعينين غـــير عيني العادي من الناس وبصيرة تنفذ الى اعماق الاعماق ولكن رفيقا .. واقعي لا يتجنى على الحقيقة انه يصف البدر بملامحه وحقيقته ويعطيه حقه ولكن الحبيب الذى يراه رفيق الشاعر الوجداني اجمل من البدر .. انما يصفه في حقيقته ان وجه الحبيب الجميل احسن تقويم لأن الله فضل بني آدم عن غيره من المخلوقات والقمر مخلوق.. هـــل عينا البدر تشبه عيني حبيبته .. ان البدر لا تظهر فيه العينان الجميلتان .. ان عيني الحبيبة الساحرتين لا يطول مداهما البدر.. وليس للبدر وجنة تسبي الالباب .. وتخجل الورد.. لأنها حمراوتان وليس للبدر جمال يرسل الدمع لأنه جمال قاهر لا تكاد تستطلعه العيون إلا وترسل دموعها من الاعجاب والجمال .

وليس للبدر ابتسامة عذبة حلوة رقيقة أخاذة .. كما هي ابتسامة الحبيب الجميل .. وهي اغلى من البدر في قيمتها فالبدر غايته ان يشبه بالجمال وبالحبيب فحسب .. ان البدر لم يدن كما دنى حاجبا الحبيب فالبدر بات قاب قوسين من جمال الحاجبين في الحبيب المحبوب . وفي الحقيقة ان رفيقاً اجاد وصور ولاءم الواقع دون من شبهوا بالبدر الجمال.. والواقع ان جمال البشر اعظم من جمال البدر والوصف بالبدر يكاد يكون مشوهاً للجمال في المرأة او في البشر الكائن الحي بما وهبه الله من جمال اخاذ وقاهر .. لنسمع الى بقية قصيدة رفيق :

ان للبدر وهو بدر عيوباً تخلى	حسن وجه الحبيب منهـا
ابرص اللون يعتريه اصفرار	ونحول كوارد الموت ســـلا
يعتريــه المحـاق ثم تراه	عاد مثل العرجون لما تولى
كاذب طالما سمعناه قد غر	بمن قد سرى وصام وصلى
لا احب الهجاء طبعاً ولو	شئت لأظهرت عيبه مستدلاً
اكتفي بالذي تبادر والحكم	اليكم في فضل من كان احلى

لم يترك الشاعر ابعاداً للجمال إلا وتطرق إليها، وفرق ما بين البدر والجمال في البشر. وقد صور الشاعر البدر بحقيقته التي يعيشها ويظهر فيها..تصوره رفيق ابرص الوجه .. مصفراً نحيـــلاً مثل الذي يحتضر وهو الى الموت منه اقرب وكذلك ينقص حتى يذوب ويتلاشى مثل العرجون عندما يسقط. وهو كاذب يغر بمن يستدل به للسير لأنه يتقلص وينقص مع الايام حتى لا يرى وهذا دليل رفيق .

* * *

١٠

بين رفيق والشارف

يصر الشاعر الذي يرى محيا الحبيب يبذ طلعة القمر على أن رأيه هو الحق .. أما اللجنة التى جمعت شتات شعر رفيق وحشته وعلقت عليه فهي تضيف ان المساجلة بين المرحومين احمد الشارف ورفيق تخللها تدخل من الأديب الفقيه والمؤلف المعروف المرحوم محمد بن عامر الذي في رحلة بين بنغازي وطرابلس فراعه منظر البحر عند المغيب والشمس تتهالك نحو مغيبها بينما بدأ الشفق ثم انعكست أضواء القمر على حباب الماء ينساب في يمه الدافق الغريق وصورة القمر تبدو في قاع العباب الطافرة مياهه اللجج بموجه ومده وجزره .. وكان الأديب بن عامر تشوقه المساجلة ويشجعها ويتمنى ان تأخذ حقها من الشاعرين سيما في موضوع التفرقة بين الجمالين جمال طلعة الحبيب وجمال طلعة البدر .. فيقول : على حد ما اورده واضع الكتاب الأول لديوان رفيق .

علم الله صنعة الفلك نوحاً	واراه طريقه في البحار
وبنوه من بعده اتخذوه	مركبا موصلاً الى الاقطار
فتنبه رعاك من علم الانسان	كيف مسيره بالبخار
وتأمل (بدر السماء) جميلاً	مرسلاً نوره هدى للساري

وتأمـــلْ مشعاعه فوق موج ... هام في حسنه ذوو الأبصار
وسل الشاعر البليغ أحقـــاً ... لمحيا الحبيب وجه يمارى ؟

وبلغ رفيق هذا التدخل والتساؤل من صديق عزيز ومؤلف وأديـــب وفصيح .. فكان لزاماً عليه أن يرد بأبياته التالية :

ايها السائل اللبيب هداك الله ... الجاتـــني إلى الاقـرار
لست ممن يقول كل الذي يعر ... ف من نفسه بغير اضطرار
سبق القول في المحيا وفي ... البدر بوجه يغني عن التكرار
كنت لما بسطت رأيي تركت ... الحكم فيه إلى ذوي الأبصار
موقنـاً انني اثـير بحكمي ... في خلاف تشعب الأفكار
واللبيب اللبيب من يترك المو ... جـب للاشتبـاه والاعتـذار
واعتقادي ان لا ثبات لحكم ... في فنون الجمال والأشعار
ليس للعقل والأدلة في حكم ... قضايا الجمـال من اعتبـار
انما الحكم في الجمال وفي الفن ... الى الـذوق لا الى الاختيار
واختلاف الأذواق في الناس ما ... زال مدى الدهر حجة للمماري
لكن الذوق ان تأيد بالاجماع ... أضحى كانـه الحكم جاري
وكذا الحكم في التفاضل في الذ ... وق عسـير لا ينتهي لقـرار
ان بين الجمال والذوق في الـر ... وح لسراً من أعجب الأسرار
ذاك ان الجمال في الروح احسا ... س بمـا للجمـال من آثـار
ان نفس الشعور في الشخص لا ... يبقى على حالة لدى الاختيار
فاختلاق الآراء في الشعر والحسن ... وصوت الأوتـار ليس بعار

ولذا لا يزال رأيي الى فضل محيا الحبيب ابلاختصار

★ ★ ★

تقول لجنة وضع الكتاب أنه في نسخة اخرى يوجد بيتان آخران لم تجدهما فيما بين ايديها وان كلا النسختين اطلع عليها المرحوم رفيق - واوردت اللجنة ثلاثة مصاريع - هي :

لا يذوق الجمال ، إلا جمال الروح عن لطف نظرة في النحار
ذاك ان الجمال في الروح والذوق (شعور الروح) اختياري
وتزيد الثقافة الروح إحساساً بما للجمال من آثار

★ ★ ★

على اية حال .. ساقتها اللجنة . او ارادها رفيق .. وطالما كنا بصدد النقد والشرح لديوان شاعرنا الكبير فان الحقيقة لا تعدو كونها مجهوداً .. والمساجلة تختلف نوعها عن الشعر الالهامي إذ ان كثيراً ما تحتم المساجلة على الشاعر أن يقول .. ولا يلتزم .. فلو ان شاعراً قال ابياتاً مساجلاً شاعرا آخر وارتبط لسان الشاعر ذاك .. ولم يمنحه الالهام بياناً ولا محسناً فانه لا شك سيظهر بأي شيء ولو كان شعراً رخيصاً .. حتى لا يقال انه انهزم في المساجلة .. وليس أدق وأوقع للشاعر كالشعر الذي يلهمه دون تقيد بمحاولة أو بانتظار أو بمناسبة أو بإلحاح .. ففي شعر المساجلة تقييد وتحكيم وربط أو أمر .. وهذه كلها منافية للإلهام .. إذ ان الالهام يتناثر وحده دون رقابة عليه ولا تعيين وقت ولا تحديد مكان.. وتعليقي على قصيدة رفيق هذه.. اكتبه بكل صراحة وبكل وضوح.. وادخل إلى التاريخ كلمة وقد لا تروق البعض ممن يريدون رفيقاً كاملاً لا يأتيه نقص ولا يرتج عليه .. كلمتي للحقيقة والتاريخ ان رفيقاً لم يوفق التوفيق كله في مقطوعته هذه .. وربما .. ارى من إسناد الحقيقة ان اقول بأن ابيات المرحوم

محمد بن عامر اهدف وادسم من ابيات رفيق ولو انها كانت بعيدة عن خفـــة دم الشاعر ومتنافية مع الموهبة، ويشعر قارؤها انها متكلفة تصدر من فقيه متعلم لكنه ليس الشاعر المرموق والموهوب. ولنعد إلى استاذنا وشاعرنا الكبير لنحييه في هذه القصيدة تحية العتاب لأنه تكلف .. ومن عادته انه كان يقول بالسليقة.. وخرج عن مألوفه ومن مألوفه انه كان يقول الشعر مفلقاً به حبات الأفئدة .. ويقسر السامع والقاريء على التغني به والاعجاب بمصاريعه .. ان رفيقـــاً الشاعر .. في ابياته هذه ساجل وكفى .. لم يأتِ بتصويره المعتاد ولم يشنف الاذن بالجديد من الاعجاب ولم يخرج عن كونه يقول شعراً .. ولا ادري مـــا السبب ؟ بل لعلني إذا انتحلت له عذراً اقول : ان الشاعر احمد الشارف على ما يظهر لي فحل من فحول الأدب والشعر ..ورفيق الذي يقدره ويعترف له بامارة الشعر في الوطن الليبي إنما كان يدرك ككل الناس ولا بد أن يوجه اليه ما بتنقية من محاسن عباراته وتنميق مفرداته وادق اختياراته .. ومن يتقِ شيئاً يصعب عليه .. ومن يتهيب قولاً يرتج عليه ومن يقول الشعر للناس ليس هو ذلـــك الذي يقول شعره لبعض الناس .. ومن هنا كانت مساجـــلة رفيق هذه ليست مصورة لعظمة قافية وإنتاج رفيق •

١١

مختارات وألوان ...

كنت طفلاً صغيراً عندما انتقل صالح المهدوي إلى رحمة الله .. اما الفقيد المهدوي فما زالت صورته مرتسمة في ذهني لن تنسى .. كنا نلعب في الطريق حتى إذا مرّ المرحومان صالح البيجو وصالح المهدوي حسبنا انهما سيدا المدينة .. وهما كذلك .. شخصان وسيان وقوران .. صالح المهدوي فقد كان يرتدي جرداً أبيض ناصعاً من الحرير وتحته (كاط) من الجوخ الراقي الثمين أو (المحروقي) بقميص جميل ظاهرة ياقته وحذاء دائم اللمعان وعصا (خيزران) يطوحها مع توازن مشيته .. وكان ذا شارب جميل يفرض على من يمعن النظر إلى وجهه .. الاحترام والتقدير ، وكنت اسمع من الناس يقولون .. هذا صالح المهدوي .. الرجل الذي حارب الطليان وكنت اعجب من رجل يحارب الطليان ويحظى بحياة طيبة في بلاده على الرغم من سماعي لبيت من شعر شعبي يقول : شايل اعلام الدين .. حيا الله يا بو المهدوي ..

أما صالح البيجو فقد كان يرتدي بذلة افرنجية نظيفة انيقة وكان يبدو بها كأعظم شخصية بذلك الوجه الصبوح المكفف اللحية والشارب ، يبدوان بشيبهما الابيض الوقور تحت ذلك الطربوش الاحمر الجميل.. وكان مثل المهدوي فارعاً طويلا ملآناً باللحم .. وكان الشخصان يمران جيئة وذهاباً سوياً .. فكانا

يمثلان القاعدة التي ما زالت ترن في اذني .. اعيان بنغازي .. وتقول لجنة وضع كتاب رفيق .. ان صالح المهدوي تمنى وهو مريض لقـــاء رفيق قبل ان يغادر الدنيا وتشاء الصدف ان يحضر رفيق من تركيا قبل وفاتـــه بأيام قليلة ويزوره وقد رثاه بهذه الابيات التي تصور شخصيته اتم تصوير. ويذكر كتاب رفيق الاول عن شخصية صالح المهدوي فيقول : الخطاب المرحوم صالح منير ابن الحاج علي زغاب المهدوي ولد في بنغازي ثم ذهب الى تركيا بعد ان اتم دراسته الابتدائية، ودخل مدارس العشيرة وهي المدارس التي انشئت في تركيا لتخريج ابناء غـــير الاتراك وهي تعطي معلومات محدودة وتخرج فيها في القسم العسكري واثناء عدوان إيطاليا عام ١٩١١ على ليبيا كان ضمن الضباط الذين اشتركوا في (دور بنينا) معسكر بنينا، وقد ابلى بلاء حسنا ثم دخل بنغاري بعد سقوط المعسكر وصار عميداً لبلدية بنغازي وكان من رجالات البلاد المعدودين .. سجن ونفي اكثر من مرة وتوفي عام ١٩٣٤ وكان من الخطباء المعدودين ، وله مواقف عديدة في الدفاع عن مصالح الوطن ولا يزال الكثيرون من المواطنين يذكرون مواقفه وروحه العالية خصوصاً في ايام انتخابات البلدية في بنغازي عام ١٩٢٠ عندمـا تنافس على الرئاسة هو والمرحوم محمد طاهر المحيشي .

حياتك للعلياء والمجـــد افعـال ... وموتك مـاتت فيه للناس آمـال

لقد كنت ركناً للبلاد .. وملجأ ... اذا ما ادلهم الخطب واشتدت الحال

وكم لك وابى في الملمات (صالح) ... (منـير) لمعقـود المسائـل حـلال

اذا قلت ابديت الصواب ولم يقف ... أمـامك في فـن الخطابـة قـوال

فعالك لا تحصى على الدهر خلدت ... لـك المجد فعلاً .. انما المجـد افعـال

ستذكرك الأوطان بالفخر كلمـا ... اتاهـا من الأيام رزء واذلال

بـلادك لن تنسى لفضلـك حقه ... فانك في تاريخ برقـة تمثال

اجد علينا اليوم فقدك نكبة لها ألم من لاعج الحزن قتال
الى واسع الغفران في ساحة الرضى يحفك من ذي العرش عزّ واجلال
اقلني فما ذا رثاؤك .. انه قليل وما يقضي رثاءك أقلال

اشعر من هذا الرثاء ان رفيق مقلل فيه ولكن عذره .. ماذا يقول اكثر عن شخصية كانت تحارب الايطاليين وهو يتوفى في عهدهم .. وحسب رفيق ما ذكر من قول في رثائه فقد قال له عن فضله على البلاد .. وقال اكثر مما كانت منتهى الشجاعة تمكن من قوله .. واخيراً قرأت للمجاهد الكريم الجهمي وهو يكتب بعض مذكراته عن الدور وعن المهدوي بك وهو أخ صالح وقريبه كان في معية كبارالضباط الأتراك إبان الحركة في برقة ، وكم بالمناسبة نتمنى من المجاهد الكبير محمود الجهمي ان يتحف الجيل بنبذة عن الجهاد ولو كنا مقصرين في حق هذا البطل المجاهد محمود الجهمي .

الشعر والقراء

يخبرنا ديوان رفيق الاول عن الشاعر وكيف يصور الأديب في حرفته التي تحتم عليه ان يكون بصيراً ناقدا لما حوله . الشاعر الحق من يصور انفعالات العواطف تصويراً صادقاً .. يخفف آلام الحياة ويناجي خفايا الروح . ولا ادري هل نحن في حاجة إلى أن نعطي هذا الموضوع المتشعب الكبير حقه من نقدنا ووصفنا .. أم ان رفيق استطاع أن يعطينا صورة واضحة لا نحتاج معها إلى تقديم ونقاش وتفسير . فهل الشاعر هو الذي لا يكون حظه من الدنيا الا البؤس ؟ وهل هم دون الناس في شر حالة وان عيشهم في شدة وعناء وكأنهم عين لا ترى من الدهر إلا فعل الشقاء وان عينهم عين سخط ، وكأنهم محامون مدافعون عن أبناء الزمان الضعفاء ؟ ولما كان الشعراء لم يخلقوا إلا لنقد أفعاله لهذا عدهم من أعدى أعدائه .. وهم ألسن الآلام التي نروي حديثها بالأشعار

عن تصوير نفوس البؤساء وان انفسهم كالزئبق الذي يحركه الهواء فيميل معه .. وان انفسهم رقيقة وان اعينهم ترى ما لا يراه الناس بوضوح ، وان اسرار الجمال تحير عقولهم فتوحي لهم بآيات لأن الشعر هو الوحي الذي تجيش به النفس الحكيمة .. والشعر يصوغ انفعالات العواطف فينطقها حين يكل عن إنطاقها الفصحاء ، وانه أي الشعر يخفف آلام الحياة والشعر في حقيقته زفرة سالت بحرها دموعاً وان الشعر يستهدف لغضب الشاعر .. ودمع يذوب في صعداء النفس .. فيصفه بأنه ان لم يلده الذوق فهو من سفاح .. وهو يناجي خفايا الروح يبغي مناجاتها لأنه من عشاق هذه الخفايا ومن الرحماء بالروح .. ان هذه القصيدة التي سنوردها صورة حية مرتسمة بريشة واضحة ولكنها بدلاً من أن تكون لوحة جاء بها رفيق شعراً .

تقاسمت الناس الحظوظ جميعها	ضروباً .. فكان البؤس للشعراء
فهم دون خلق الله في شر حالة	ترى عيشهم في شدة وعناء
كأنهم عين من السخط لا ترى	من الدهر الا فعل كل شقاء
اشادوا بعورات الزمان كأنهم	محامون عن أبنائه الضعفاء
وما خلقوا الا لنقد فعاله	لذا عدّهم من ابغض البغضاء
همو ألسن الآلام يروي حديثها	بأشعارهم عن النفس البؤساء
لهم أنفس في الانفعال كزئبق	يحرك ما فيهن كل هواء
رقيقة إحساس تطير شرارة	وتهدأ رقراقاً .. شديد صفاء
ترى عينهم ما لا يرى الناس واضحاً	من الحسن إذ يبدو لهم بجلاء
تحير أسرار الجمال عقولهم	فتوحي بآيات الى الأدباء
وما الشعر إلا الوحي جاشت بآية	نفوس غذتها حكمة الحكماء

يصوغ انفعالات العواطف منطقاً وقد كلّ عنها منطق الفصحاء
تعالى عن التصوير بالنطق وارتقى من العرف بالمعنى لدى الأدباء
يخفف آلام الحياة .. توجعـــاً رفيقاً وطوراً يشتكي ببكاء
وما هو الا زفرة سال حرّهـــا دموعاً .. ودمع ذاب في صعداء
اذا لم يلده الذوق تلقاه مخدجـــاً وان لم يلده الذوق فابن زنـــاء
اذا .. سيم تكليفاً تراه كما ترى بصفحة مرآة .. من الثؤبـــاء
يناجي خفـــايا الروح يبغي مسرة لها .. فهو من عشاقها الرحماء

واخيراً فنأتي على عنواننا مختارات وألوان بقصيدة لشاعرنا وهي خير ردعلى من يقول بضرورة حرية القافية .. ويعينها بالشعر المرسل أو التجديد فلعـــل انطلاق هذه القافية من ربقة الصراع المصنوع موقظ لضمير اولئك الذين يريدون تحرير الشعر على اية صفة ولو كانت بدون موسيقى ولا ترتيب ولا قاعدة .. وفي رأيي شخصياً أن هذه القصيدة هي التجديد في الشعر العربي والمدرسة الجديدة التي تستسيغها الاذن والشعور – يا شبابي – .

بـــين دمعي ونحيبي – يا شبابي تتلاشى
كتلاشي الطل في الشمس من الزهر يطير
يا ربيـع العمر يا عمر زهور اليـــاسمين
يا حثيث السير يا هارب بالوقت الثمـــين
انت للانسان .. كالنشوة في الخمر العتيقة
انت للحسن «وانت الحسن» روح في الحقيقة
رغم آهاتي وحرصي يا شبابي تتـــلاشى

كتلاشي الطل في الشمس من الزهر يطير
كلما احسست ضعفاً ردت علماً بمكانك
خفيت قيمتها القوة عني في زمانــــك
لست إلا شهوة في الدم تغلي وتفـــور
لست في الأرواح إلا كبرياء وغرور
رغم أناتي وحزني يا شبـــابي تتلاشى
كتلاشي الطل في الشمس من الزهر يطير
يا شبابي انت نور القلب ـ نور القلب حب ـ
انت في العقل هياج وجنون مستحب
انت في النفس أمـــانيٌّ حسان ومراح
انت طغيـان وعـزم يـا شبـابي وطمـاح
بين ـ واري ـ مسراتي يا شبابي تتلاشى
كتلاشي الطل في الشمس من الزهر يطير
يا شبابي وكفى بأساً نـــدائي يا شبابي
ما امر اليأس للداعي إلى غير جواب
أصبحت ذكراك في النفس كأحلام السعادة..
هل لرؤيا بعد صبح الشيبة يوماً ما أعاده ؟

١٢

الشاعر المتحرك ...

شاعرنا ضرب في جميع ألوان الشعر وبحوره .. اجاد وعبر وأضحك وأبكى .. وانا لا اقول ان رفيق قد ابدع في جميع ما قاله فلبعض شعره عيوب .. عيوب الترديد .. وعيوب الاكثار من اللهف والحسرة .. ورفيق يستعمل كثيراً افعال التعجب ولكن رغم هذا وذاك فشعر رفيق حلو .. عذب..وحتى ان تخلل قصيدة من العيب فانه يتلاشى من طلاوة النكتة والاتيان على النتيجة التي تكتنف المضمون الحي الدسم بالاعتبارات والاعتبار ..

شاعرنا متحرك ، فهو يتجول ويتحدث إلى كل شيء حتى الجماد .. انه يحادث النفس في غمرة حزنها، ويطرب معها طربها ويتغنى مع الطيور اعراف اشجارها ويناجي القمر ، ويبصر في الشمس ولا يعشى ويتفرس الوجه الكالح فلا يخاف ويمعن في الدنيا ويلج سحيقاتها ولا يخشى وها هو يطارد احلامه .. ويضحك من يومه الذي يذهب سراعا إلى غير رجعة ... ويتنفس في كم الورود ليضمها ندية إلى حنانه .. فيقول عن ثغور الورد :

يا ثغور الورد هيا ... خبريني
ارسلي الأنفاس يا ريا ... وانعشيني
واملئي الكون بطيب ... يا ندية
وابعثي ذكرى حبيب ... لى هدية

لنسيم الصبح يوحي	بغرامي
تسعدي روحي فروحي	في هيام
ما أحيلى نفحات	كالرحيق
وأحيلى بسمات	عن عقيق
قد كساك الطل عقداً	لؤلؤيا
وحباك الفجر عقداً	ذهبياً
ها هي الشمس تجلت	في علاها
كعروس قد تحلت	بحلاها
ودعت أمس وداعاً	أبديا
فابتسم ياورد للشمس	صباحا
وانشرح تبعث الى النفس	انشراحا
ضحك الورد فجلى	عن همومي
ومضى ما دام إلا	بعض يوم
قلت ما أسرعه جاء	وراحا
ليته زاد مساء	وصباحا
هكذا عقبى المسرات	يصير
هكذا عمر المسرات	قصير

هذا لون من شعر رفيق .. أفهل بعد قصيدته يا شبابي وهذه القصيدة شك في ان الشعر المقفى والشعر الطليق ينبعان من معين شعور واحد وشاعر واحد وإلهام واحد .. في اعتقادي وهو اعتقاد يبنى على المنطق ان الشعر المرسل أو المجدد لا يمكن أن تكون مدرسة جديدة إلا إذا كان اساتذة هذه المدرسة من فحول الشعراء الذين يصنعون ويلهمون الشعر الموزون القديم منه والحديث وإلا كانت المدرسة المعنية ماخورة لجمع مفسد يريد قتل اللغة والأدب في شعب من

الشعوب .وإني لأتساءل .. هل قصيدة رفيق هذه « ثغور الورد » مـــن الشعر المرسل أم لا .. هل هذه القصيدة اسيرة قافية متحكم فيها بالصراع ؟ ام انهـــا منطلقة حرة تسير في موكب المفردات كما شاء لها المضمون الايديولوجي أن يسير ؟ واذن .. وبعد الحكم على هاتين القصيدتين يمكننا القول بأن رفيق كان صاحب مدرسة الحرية للقافية العربية ولكنه ملتزم كذلك بالمحافظة على الطابع لأنه لا يريد أن يتجنى على رحاب الشعر العربي ولا يريـــد ان يكون هاوي انطلاقات فقط دون الرجوع إلى حلاوة القصيدة المقفاة ، واحـــترام باعها في تجلتها وسموها وقداسة مكانتها من الأدب .. وما زلت أكرر قولي بأنه من لم يكن شاعراً ملهماً لا يمكن أن يجدد في الشعر العربي وينطلق من القافية ولوكان يستطيع ان يغرر بالعالم كله .. ثم بعد هذه اللمامة ارجع لأصحب الشاعر رفيق في حكايته عن الراديو .. حيث يقول كتابه الأول تمليقاً على القصيدة انرفيق يتخذ من كل شيء وسيلة لتنبيه الافهام ، فهو هنا يصف المذياع ويلتفت إلى الشرق يطلب منه ان يعتبر ويتحرك للعمل فالحياة جد لا لعب .. وها انا اتخيل الشاعر الوجداني والأديب المتمكن من نبوغه وإلهامه يعاصر أول فترة لاختراع الراديو او اولى خطوة له بالاستماع اليه او مشاهدته .. فيقول فيه مـــا يخلده ويدخله التاريخ من خلال حياته الأدبية ..

يا صادق الأخبار ينطق عن هـوا ... اني اراك جهينة الأخبـــار
هات الحديث عن البخار .. فإنه ... سبب لمطلع هـــذه الأنوار
تهديك (نار الله) موقدة لهـا ... عمد ممدة لهـــذا الساري
جعلت ظلام الجهل ضوء تمدن ... (هذا الضياء شواظ تلك النار)
نار قد اطلعت (اشعة نورهـــا) ... فتجلت الألباب للأبصار
تا الله ما كذب الفؤاد وقد رأى ... آيات هذا الكشف دون ستار
صور وأشباح تمر وتنقضي ... (والمرء بينهما خيال ساري)
يا آية العصر الحديث تكلمي ... هذا زمان تكلم الأحجار

قولي لأهل الشرق في تفكروا | اني نتيجة جولة الأفكار
لا يلهينكم السماع لمطرب | متوازن الألحان والأوتار
هلا انتبهتم يا نيام لآلة | باحت بما للكون من اسرار
(بينا يرى الانسان فيها مخبراً | حتى يرى خبراً من الأخبار)
ما دعوة المظلوم غير كناية | عن موج برقك لج في التيار
ان قلت هذا الكشف معجزة الورى | ثارت عليّ عمائم الفجار
نظروا بغير تفكر فعيونهم | (في جنة وقلوبهم في نار)
ان قلت علام الغيوب فإنه | الفن الحديث عن القديم القاري
انصت الى الذكر الحكيم مرتلاً | يتلو عليك من الحديث القاري
يأتي اليه الوحي من اقطارها | فهو النبي لسائر الاقطار
يقصي القريب.. يقرب النائي من الا | نباء .. يرفع حاجب المتواري
سبحان من وهب العقول لأهلها | فغدت تدل عليه بالآثار
هذي العقول وهذه آثارها | والكل صنع الواحد القهار
خلاق ما لا تعلمون يريكمو | آياته في الافق كالأقمار

ما كان بين قوسين من قصيدة للشاعر القديم التهامي التي يقول في مطلعها :

يا كوكباً ما كان أقصر عمره | وكذاك عمر كواكب الأسحار

وقد نسج عليها رفيق ولا يعتبر نسخه في وصف الراديو سرقة وإنما كان تأثراً بقصيدة التهامي ونحواً مخلصاً بعيداً عما قصده التهامي في قصيدته . أما ما أخذه رفيق فقد وضعه بين قوسين حقاً لصاحب القصيدة .. فالوزن للجميع ، أما الكلمات فقد كانت من حق صاحبها .. ولم يقصد رفيق التعريض بالمتزمتين ولكنه على ما يظن خشي من ربما يرميه بالالحاد في وقتها وهو مؤمن بعيد عن الظن المشبوه .

١٣

مدينة درنـــة ...

مدينة درنة غنية بما يحرك الشعور .. وليست ثروتها الطبيعية من نوع واحد من الجمال فقد حباها الله منته .. فأظهرها حاوية لشتى الجمالات .. فاذا نظرت اليها من فوق جبل الفتائح وانت تهبطها شاهدت باقة زهر أبدعها الخالق فجاءت روحاً وريحاناً .. ثم إذا ابصرتها نهاراً من فوق جبـــل الفتائح رأيت إبداعاً وإعجاباً فانك ترى المدينة وكأنها ماس محجبة الأشجار والانهار..

تتلألأ من بعيد كأنها ثغر فاتنة امشت عليه بمسحاق رقيق مغري .. ثم مـا ان تأخذالخطى نحوالمدينة حتى تحس بجميع شعوركانساماً تفتح اساريرماانقبض من بدنك وسام اخلق من بشرتك وتحس خرير (السواقي) تناديك سلاماً..فكمالو كنت تلتفت الى وحي يناديك بالسرور..ان انطلق في هذا الجوالذي تكتنفه انواع الطيب والروائح .. ثم تتجول بالمدينة لتشاهد الطبيعة تضمك ضم المشتاقـــة الحنونة ويلفت نظرك ذلك السوق العادي الجميل لتجد فيه ما ندر في غير مدينة درنة .. وتسلم عليك قوم بكل بشاشة وصدق وكرم فاذا لمس أهل درنة فيك انك جدير بالتقدير هرعوا اليك كل يدعوك لمأدبة أو (لزردة) ثم تأخذادراجك إلى الوادي وعلى مسافة كيلو مترات تشاهد الشلال العظيم الذي ينبع ليل نهاراً بالماء العذب النمير الرقراق. وطوال تطوافك بالوادي ترى الأشجار المتعانقـــة الملتفة ببعضها فكأنك تشاهد معنى الحب فيما ترى من تـــلاصق ارواح النباتات

الفارعة الضخمة الطويلة الحية .. فاذا دخلت المدينة من الوادي رأيت المدينـة جلها جنينات وحدائق.. ولا غرو فهي بلد الموز والرمان والعنب ..ثم تتعرف على الناس فيها فتعلم انك بـين أكرم من عرف الكرم وأطهر من عرف الطهر وأصدق من لاذ بالصدق ،قوم على السجية العربية والتقاليـد الاسلامية والعرف البدوي النظيف البريء .. لقد اطلق الايطاليون على مدينة درنة .. اسم .. درة البحر الابيض المتوسط.. والآن فلنسترق السمع لنسمع بلبل ليبيا وشاعرها الوجداني وواصف الحب والجمال .. يزورها ويتفرج فيها ويقف على آثارهـا ومآثرها ويعرف ناسها شباباً وشيباً فيكرمونه ويفرجونه على أدق مباهجهـا فيحيى الشاعر المدينة الخالدة .. ويا هل ترى .. بمـاذا سيحيي شاعر الوطن الكبير هذه المدينة ،وأي شعور يهبط عليه مع الجمال والسحر وهو الذي يستطيع وصف حتى الخيال ما بالنا بالمشاهدة والتأثر .. ان أحمد رفيق يندهش مـن مظهر هذه الروعة ويعجب من هـذا الفن الالهي العظيم .. ويقول في دهشة المستغرب الوله المعجب المفتتن ...

قلت لما رأيت درنة ما هذا تباركت ، احسن الخالقينا
ان هذا فضل من الله يؤتيه لمن يرتضي من الشاكرينـا
هذه (درنة) التي كل ما فيها سرور لاعين الناظرينـا
في حماهـا رأيت دار كرام وكناساً وجنة وعرينـا

ها هو الشاعر المفتتن يضمن بيته الأخير بمعاني ما في المدينة فيصفها منصفاً بوصف يعطي الصورة الواضحة عنها وعن سكانها .. في حماهـا رأيت دار كرام .. ويعني الشاعر انه استقبل بغاية الاكرام .. وكناساً ويقصد بالكناس مسكن الرئام .. الغزلان .. فدرنة مأوى لأجمل الفتيات .. ان نساء المدينـة وهبن جمالاً قل ان توهب إياه نساء في مدينة ما .. إذ ان نسبة الجمال والحسن والرشاقة واللون .. متوفر في مدينة درنة حسب تعدادها اكثر من غيرهـا ..

وقول الشاعر (وجنة) سيفسره فيما بعد ويقصد انها روضة كلها تكاد ان لا ترى منها قصورها واسواقها من اشجارها الباسقة الملتفة .. و كثرة حدائقهـــا ورياضها .. اما قصده بعبارة عرينها فانه قصد عظيم ويعني ان أهلها اسود فكما ان المدينة كناس أي مكان للرئام والظباء فهي كذلك عرين للسباع .. ويريد بقوله ووصفه هذا ان نساء درنة في مثل جمال الغزلان ورجالها في مثل قـــوة وشجاعة الأسود .. ان رفيق اعطى حق المدينة وهـا هو يسترسل في وصفه فيقول :

اصدق القول ان اردت لهـــا وصفـا وظني اني من المنصفينــــا
مثل الجنة التي وعـــد الله عبـــاده الصالحـــين
حوت الطيبات من نعم المنعم والطيبـــات للطيبينـــا
تحت جناتهـــا تفجرت الأنهـار تجري فقلت ان الذينا
اي صوب يممت صادفت ظـلا ومروجاً خضراً وماء معينا
يعبق الورد في نسائمها وهي في رخاء يزاحم الياسمينا
واذا ما تنهد الفل في الليـــل اعارت انفاسه النسرينـــا
ذكرتـني الطيور وهي تغني (قد قنعنا بحبه ورضينا)
في ظلال تحت العراش وقد حفت شمالاً من حولنا و يمينا
ان للطير في الاصائل الحـــان شجي تهيج العاشقينـــا
درتُ حول الحدائق الغلب ارتاد الربيـع امشى الهوينـــا
وتساءلت في الريـاض وفي الزهـر بعين (الخليل) في الأفلينا
فتيقنت قانعاً بدليـــل كيف كان الانسان ماء وطينا
خلق الله كل حي من المـــاء فلم لا يصح ذلك فينــــا

كل زوج فصيلة صارت الاجنا س شتى فأيـدت (داروينا)
وعلونـا على بقاع .. فلاحت باسقـات النخيل تهتز لينـا
تحت خضر الجريد صفر العرا جين لها منظر يسر الحزينا
خضرة الموز والنخيل تليها زرقة البحر فالجبال يمينـا
منظر البحر من علو يثير الشع ر في النفس والغرام الدفينـا
ضمها البحر من شمال فكانت كاعباً ضمها المشوق حنينـا
يعطف الموج كالمقبل للسا حل في سرعة ويرتد حينا
وتجلت لنا بدائع صنع اللـ ـه تدعو لربها المؤمنينـا
قلت آمنت بالبديع كمـا آمن موسى الكليم في طور سينا
وتذكرت عند ذلك فرعون وقد قال قولة .. الجاهلينا
زاغ فرعون حينما شاهد الانها ر .. تجري من تحته والسفينا
غلبت نفسه على العقل والنف س .. الى طبعها تميل يقينا
كل شخص مهما تثقف عقلاً سوف تلقاه للطباع رهينا
زرت جبانة الصحابة فاستحضر ت ذكرى اسلافنا الأولينا
وتمثلتهم وقد جاوزوا مص ر الى ارض برقة زاحفينا
وبدا لي عمرو يقود السرايا تقتفيه جحافل الفاتحينا
وتذكرت طارق ابن زياد وابن سرح وعقبة الخالدينا
وتراءى رويفع .. وزهير في ليوث الأنصار والتابعينا
وأمامي أرى ضريح ابي منص ور العدل خير الحاكمينا
ذكر تلك العصور ذكرني مجد اناس كانوا لنا صالحينا

شيعوا الشمس للغروب الى فاس   وراحوا للهند مستقبلينا
اورثونا مجداً تليداً اضعناه   وزدنا عليه عاراً وشينا
ظِلتُ بين القبور انظر في غمـ   ـض جفوني وقد طويت السنينا
لست كالزائرين يتلو آيا   ت الكتاب الحكيم للميتينا
ها هنا عبرة وموعظة تبعـ   ـث معنى الحياة في الذاكرينا
وتلفت للرفاق فالقيت   رفاقي عن حالتي غافلينا
سألوني وقد رأوا ما دهى عقـ   ـلي فكان الجواب مني .. أنينا
قلت سيروا ان الحياة لسير   كتب النجح فيه للسابقينا
أمر الله بالسياحة في الأر   ض لنزداد بالعيان يقينا
ولقد زدت بالسياحة في درنة   علماً بها ودرساً ثمينا
سامحوني يا أهل درنة ما كا   ن لساني لما رأيت مبينا
فاشكروا ربكم لكم بلدة طيبـ   ـة واسعدوا بها آمنينا
عوذوها بقل اعوذ برب النا   س من شر أعين الحاسدينا

***

١٤

رفيق الواثي المتغزل

يستحسن إيراد المرثية ثم التعليق عليها ذلك انفع للناقد وأيسر للباحث عن دور القصيدة .. فرفيق عندما يرثي الشاعر الفيلسوف المعروف جميل صدقي الزهاوي شاعر العراق الكبير فانما ليورد عبقرية مورد المحسن من اللفظ البليغ من القول .. الساحر بالبيان .

عبقري الناس وقف للبقاء   لم تمت يا فيلسوف الشعراء
لم تمت ...
كنت للتجديد تسعى دائباً   قم فالهمنا افانين الرثاء
علنا نأتي بفن غير ما   كان تقليداً لفن القدماء
سئمت انفسنا حتى متى   نعبد الشعر على حرف الرياء
نال منا للقوافي قفص   كلنا فيه شبيه الببغاء
قادة التجديد لم يبدر لنا   مثلاً يرضونه للاقتداء
احجموا .. إلا قليلا برزوا   انت فيما بينهم رب اللواء

انت يا رب اللواء لم تمت لم تمت يا فيلسوف الشعراء

لم تمت ..

شعرك الممتنع السهل الذي كان يعنى بالمعاني الواضحات

جانب التعقيد حتى انه يعرف السامع منه ما سياتي

لفظه وافق معناه كما مازج الطيب لطيف النسمات

كان ينبي عن شعور صادق فاض حتى زاد معنى الكلمات

يبصر القاريء في مرآته ريشة الفكر ولمح الخطوات

هكذا الشعر وإلاّ لم يكن غير نظم المضحكات المبكيات

انت روضت لنا جامحة جئتنا بالبينات المعجزات

انت بالتجديد حي لم تمت لم تمت يا فيلسوف الشعراء

لم تمت ..

كنت حر الفكر لم تعبأ بما كان من نقد غلاة الناقدين

اخطأوا في فهم ما تقصده رب فهم زاد جهل الجاهلين

لم ينل بغيته الا على صهوات الشك من يبغي اليقين

لك في نقد المعري اسوة هل نجا من هذيان الملحدين

انما الناقد ميزان اذا مال شيئاً كان بالنقد قمين

لا ترى حر ضمير يبتلي ابداً الا بصنف الجامدين

نظر الناقص معكوس فلا يبصر الكامل الا ناقصين

انت حر الفكر حي لم تمت لم تمت يا فيلسوف الشعراء

لم تمت ..

لا مناص من الوقوف على هامش الأبيات هذه الاخيرة لندقق مقصد الشاعر من قوله :

لم ينل بغيته إلا على	صهوات الشك من يبغي اليقين

هذا بيت القصيد مما يقصد الشاعر فان دفاعة عن الزهاوي الذي انطلق وحرر القصيدة وقال دون خشية ولا خوف كل ما يعتقده .. وله أسوة بأبي العلاء المعري الذي لم ينج من هذيان الملحدين وان الناقد كالذي ينير شيئاً .. (الميار) لا بد من أن يدقق فيما يشتريه ويعرف ماهيته ويتأكد من جودته .. وان الجاحدين كانوا دائماً سبباً في بلواء احرار الضمائر لان نظر الناقص من الناس الغبي عن معرفة الشيء معكوس حتى انه يرى اصحاب الكمال منقوصين .. وهذا كله تبرير لبيت القصيد الذي يتنفس فيه بقصده انه لولا الشك في المشك ما ظهر اليقين به .. والمعنى انه لا بد للانسان من ان يعرف ويميز حتى تكون معرفته بالاخر عن إدراك وروية وتأكيد وإيمان .

كنت للشرق محباً مخلصاً	لا تني .. تبعث فيه الشعر حيا
مستفزاً روحه مستنهضاً	عزمه تحنو حنوا .. ابوياً
ذاكراً للعرب المجد .. وهل	كان مجد الشرق الا عربياً
كنت اذ تدعو ليحيا الشرق في	عزة قعساء تحكي زكريا
سيجيب الله يوماً داعياً	كان براً ببني الشرق تقيا
فيلسوفاً اوتي الحكمة ، لو	كان قبل المصطفى عد .. نبيا
يا (جميل) الظن بالله ويا	مؤمناً حقاً (بصدق) نم هنيا
انت حي يا (زهاويّ) وان	قيل اودى فيلسوف الشعراء
قلت فالتاريخ قد خط له	عبقري الناس وقف للبقاء

لم تمت يا فيلسوف الشعراء لم تمت ..

يقال ان المعنى والقصد في بطن الشاعر .. وهنا حين نتحسس برفق قصيدة رفيق الغزلية (مر بالشاطيء) ونضع على ابياتها ومصاريعها اصابعنا في تؤدة وخفة نشعر بحرارة القلب الذي ينبض بهذه الحرارة .. فالشاعر لا يمكن ان يقول هذه الأبيات خيالياً دون تأثره بعاطفة .. وهذه العاطفة التي نلمسها في قصيدة (مر بالشاطيء) قوية متأججة حكمت على القلب القوي الذي لم يرضَ الاهانة ولم يفقد حياته لأمر يخضعه ويمرغ خده تحته فكيف نراه هنا يستعطف الحبيب بقوله : (لا .. ومن اودع قلبي حبه وجلاه حسناً في مقلتي) ..

وها هو يخرج من قصيدته بالمضمون الذي يتزود رفيق منه بشيء سوى ان يروي شفتيه .. بالقبلات ..

فمتى أحظى بفطر منك في يوم عيد .. فأروي شفتي

انني سقت مرثية الشاعر في الزهاوي لانقله من حزنه العميق على استاذه في الشعر إلى منتهى ما وصل اليه رفيق من حب عبر عنه صراحة .. وفي غير تحفظ .. طالما ذكر الاسم المضمون في ابياته التي نترك القارىء يعثر عليه من تلقاء نفسه .

مرّ بالشاطيء يمشي كالظبي لم يسلم حينما مر علي

ما الذي أغضبه حتى مشى معرضاً بالجنب لم ينظر الي

زوروا عني لديه كذباً انما جاءوه بالشيء الفري

لا .. ومن أودع قلبي حبه وجلاه حسناً في مقلتي

ما له عندي سوى حب اذا بت باتت كبدي منه بكي

بالعذاب المر يا حلوَ اللمى رضيت نفسي وطابت يا بني

لو سألت الروح لم ابخل بها عن رضى قدمتها بين يدي
خبروه انني من أجله قد هجرت الأهل.. حتى أبوي
خبروه واحلفوا عني.. له .. انني صب به ما دمت حي
ليتني أنساه أو اساوه أو ليته يعطف أو يرضى عليّ
يا هلال العيد.. شهر الصوم من عمره المؤذي.. لنا لم يبقَ شيء
فمتى أحظى بفطر منك في يوم عيد .. فاروي.. شفتي

القصيدتان من عيون الشعر معبرتان قويتان دسمتان.. فالأولى جادت بأسلس وأبلغ التعبيرات التي تبدو سماتها التأثرية في قوله اخر كل ايقاع لم تمت .. فتنقل الشاعر في قصيدته ووقوفه عند كل تأثر .. عند محطة يا فيلسوف الشعراء .. لم تمت .. جميل ومبدع .

أما القصيدة الثانية مر بالشاطيء فانها حقيقة روعة تمثل اعذب الايقاع والقافية المفتوحة ما قبل الآخر ثم التسكين بالياء جميل ومرغوب ومؤثر في الأذن الذي تنتظر الموسيقى بين المصراع والقافية. وقد صور رفيق سواء أ كان محباً حقيقة أو متخيلاً .. ولا اظنه كذلـــك ابدع وأرقى مراتب الحب الذي يتذلل فيه المحب إلى معشوقه فيقسم برموشه أو بتلقي عذابه او الحنان فيه او بالحنين اليه .. والقصيدتان في رأيي جديرتان بالقراءة والتداول والاعجاب .

١٥

وداع لفرقة الساقية ...

لا أدل على روح الشاعر رفيق الطيبة من هذا الحنان والشوق قبل الرحيل إلى الوطن الغالي وإلى الأحبة والأصدقاء .. فقد قال أبو الطيب المتنبي ..

وهذا الشوق قبل البين سيف　　فها انا ما ضربت وقد أحاكا

وقال الشاعر :

وحبب أوطان الرجال اليهم　　مآرب قضاها الشباب هنالكا

وها هو رفيق يصف ساقية درنة متأثراً بجمال المدينة وافتتانه .. بهـا .. وقدجاءت قصيدة الساقية بعد الوداع والفراق، واحببنا إيرادها قبل توديعـه ورحيله .. كمناسبة لدراسة الكتاب .. وحتى نجعل العذر لرفيق على فراقـه لهذه الربوع واهلها مبكياً ومضحكاً ..

يا حسنها ساقية جارية　　كأنها جارية ساقية
جاءتتهادى بين خضرالربى　　سكرانة لاعبة لاهية
ترقص في منعطفات لها　　فتلتوي نازلة .. راقية

تساير الوادي فتدنو لـه ... طوراً .. وطوراً تنتحي ناحية
طريقها بين جنان غـدت ... قطوفها يانعـــة دانيـــة
تنساب والأزهار من حولها ... تبسم لاستقبالهـا زاهيـة
كأنها قامت تؤدي لهـا ... تحية طيبة زاكـــية
ترجمها عنها نسيم الصبا ... بالسن راطبة نادية
فصارت الأرجاء عطرية ... تعلن شكر الزهر للساقية
فيا لها من كوثر ماؤها ... مزاجه الصحة والعافية
ما زلت مذ فارقتها ذاكراً ... يوماً لنا في جنة عالية
في فتية كالزهر ما فيهمو ... الا الأديب الشاعر الراويـة
فيهم ابو جبريل يوحي لنا ... من كل فن طرفة غالية
حتى اذا الشمس توارت بدا ... في الأفق بدر الليلة الصافية
سرنا مع الوادي على ضوئه ... في نسمة الليل الى السانية
هناك أيقنت بأن الذي ... حازوه من ظرف من الساقية
للماء في الأنفس تاثيره ... كأنه المرضعة الثانية
أما ترى (درنة) قد انبتت ... من كل زوج نعمة ضافية
اجنت بساتين الحصادي لنا ... قريحة سيالة صافية
قد ذكرتنا حسن ما قاله ... بشار في عبدته الغالية

نعلم جميعاً ان الساقية هي تلك الحفريات التي تجري فيها المياه بدرنة وتوزع على شتى البساتين في المدينة أما ابو جبريل فهو المرحوم الأديب عبـــد الكريم جبريل وهو مربي أدى رسالته وظريف له اصدقاؤه قضى جل شبابه في التدريس ثم الادارة وللمرحوم عبد الكريم نوادر وطرف .. وهو ذو صوت شجي فنان

بطبعه يميل الى الحياة الفنية .وله آثار باقية عند عارفيه كما له قصيدته التي يتغنى بها الفنان الليبي صدقي - يا عين دير عزم في فرقاهم – او لا فك بعد كتب الله خطاهم .والمرحوم عبد الكريم جبريل احد الذين قـــدروا للادب الشعبي قدره وتغنوا به وغنوا بلوازمه وإبداعه .. فحيى الله رفيقاً الذي خلد معه صديقـاً متعلماً ظريفاً شريفاً .

أما الحصادي . فهو على ما اظن هو الشاعر المعروف عبد القادر الحصادي وله مساجلات مع رفيق .. أما الحديقة فهي لأسرته وقد عناها رفيق بأن السانية جنت للناس قريحة الحصادي الشاعر السيالة الصافية والمرحوم الحصادي شاعر كبير كان ينسج نسج الأقدمين في شعره ونأسف لعدم طبع ديوان له .. فبالله لم يترك رفيقاً اثراً إلا وخلده في شعره .. ولا لوم ولا عتاب على الشاعر إذ أحن قبل أن يترك بلاده مرغماً مطروداً من عدوه الغاصب ولا تثريب عليه إذ ابكى واشتكى وودع في لهفة وحن من غربة .. وهـــا هو يسكن قلبه يوم الرحيل فيهيج القلب ويتفطر شوقاً فيثير الدمع الكثير من عينيه.وها هو يحاول إظهار الصبر والجلد فيخونه عزمه ويذهب تجلده أدراج الرياح ويعالج بالصبر ألم الفراق وهوله فلا يفيده الصبر ولا يأتي بعلاج حتى انه تذوق الموت قبل الموت وهو يقسم ان الموت يسير دون الفراق .. لأن الفراق الذي لا رجـاء في العودة منه يفوق الموت ألماً ثم يتحول إلى احبابه الذي جعـــلوا وفائهم سياجاً لودادهم له .. واقسم انه لن ينساهم ولن ينسى عشية وداعهم إياه حين جاءوه أفواجـاً مودعين باكين،ولكن القدر قضى عليه وعليهم هـــذا البين فها هو يقسم قلبه اجزاء ويوهبه لهم .. ومن قبيل التفاؤل لا ينسى الأمل في اللقاء .. لنسمع رفيق المنفي الذي يؤمر بمغادرة بنغازي ليتحدث شعراً بمعنى هذه الآلام والمتاعب..

سكنته يوم الرحيل فهاجا   شوق أثار المدمع الثجاجا
حاولت إظهار التجلد فانثنى   عزمي وراح تجلدي ادراجا

عالجت من ألم الفراق وهوله ... ما لا يفيد الصبر فيه علاجا
فعلمت كيف يكون نزع الروح في ... حال تقارب عندها الأوداجا
اقسمت لو ذقت المنية لم تكن ... عندي أشد من النوى ازعاجا
ان الفراق بلا لقاء يرتجى ... موت يكرره الحنين هياجا
يا من نودعهم ونعلم انهم ... جعلوا الوفاء على الوداد سياجا
ما انسَ .. لا انسَ عشية اقبلوا ... متأسفين لفرقتي أفواجا
بذلوا من الاكرام ما لم استطع ... شكراً عليه ولم اكن لجلاجا
قسمت قلبي في المحبة بينهم ... وجعلت اخلاصي عليه رتاجا
هذا لهم عندي وحسبي مثله ... منهم فلست لغيره محتاجا
ما مثل صافي الود عند اولي النهي ... شيء تلذ به العقول نتاجا
يا من يعز فراقهم والله لو ... خيرت ما اخترت النوى منهاجا
لكنه قدر قضى من قبلنا ... لأبي البرية آدم الاخراجا
وقضى علي به وزاد فراقكم ... ليكون وقع مصابي ازواجا
فإلى اللقاء كما يقال تفاؤلاً ... والفال صادف في القليل رواجا

وها هو رفيق يودع من جديد بلاده ذلك أن وداعه الأول كان شوقاً قبل الرحيل، أما اليوم وهو يطأ الباخرة للرحيل والأصحاب قد تركوه بعد توديعه .. وهو ينظر إلى الذكريات عبر السفر والاغتراب .

رحيليَ عنك عز علي جداً ... وداعاً ايها الوطن المفدى
وداع مفارق بالرغم شاءت ... له الأقدار .. نيل العيش كدا
وخير من رفاء العيش كد ... اذا انا عشت حراً مستبدا

سارحل عنك يا وطني وإني ... لأعلم أنني قـــد جئت ادا
ولكني اطعت اباء نفسي ... أبت لمرادها في الكون حـدا
علو النفس ان عظمت شقاء ... يلذ.. لمن الى المجـــد استعدا
اذا رزق الفتى نفساً عزوفـاً ... تهاون بالخطوب وزاد جـداً
طلبت العز في وطني مقيما ... فاوسعني زمان السوء ردا
سأركب عزمة حذاء امضي ... أقدّ بها حجاب الغيب قـــدا
أبلغها .. وراء السعي عذراً ... لنجح..صد عنها ..أو تصدى
سواء عـاد بعـد الجهد ساعٍ ... بفوز .. أم سعى حتى تردى
فكم أر.. راضياً بالعيش إلا ... ضعيفاً .. أو من الجبن استمدا
ويا وطني هجرتك لا لبغض ... ولا اني منحت سواك وداً
فـلا والله ما هجرت حتى ... جهدت.. ولم أجد منذاك بدا
يقول لي الصديق ارح ركابا ... فانك واجد ارباً .. وجـداً
يكلفني لأبلغ من حطـــام ... غنى ارضى به ليدي قدا
فقلت لطالب الإحسان قيداً ... قبول القيد من شيم (العبدا)
هداك الله كيف تطيب نفسي ... وفي عنقي أرى للأمر .. قدا
تعفف ليس غير الله يعطي ... بلا من .. ولا شكر يؤدى
وياوطني نبابي.. عنك حب ... وأحياناً يكون الحب صدا
وقد يأتي الغيور بما يراه ... خلي من جوى للعقل ضـــدا
فلست الام في تركي حبيباً ... أرى في حبه .. الأعداء ندا
ويا وطني وداعاً من محب ... تحير رأيه .. أخـــذا وردا

وداعاً .. لا أظن له لقاءً   فوا أسفا .. إذا ما البين جدا
وجاشت تخنق العبرات صوتي   وداعاً ايها الوطن .. المفدى

ان قصيدة رفيق هـــذه تعبير صادق على الوفاء وحب الوطن والاخلاص للذكرى وهي صورة ناطقة بذاتهـــا لا تحتاج إلى تفسير أو تدبيج – رحم الله شاعرنا الذي لم يترك الوطن الا حياً .

١٦

الشاعر الجريء ...

اني اعجب ممن يقرأ لرفيق ديوانه دون ان يتلمس الجوانب الفنية منه .. وعجبي أكثر بالذي يقول ان رفيقاً كان يقول الشعر لأن الالهام يقوده إلى القول فقط ..وانه نظم دون إرادة معينة لدراسة شيء او تمحيص أمرلازم تمحيصه... بل هناك من اطلع على ديوان الشاعر الكبير اطلاع المنتقد الذي يروق له إلا ان يرى فذلكة أو يسمع قعقعة من صرير قلم يأتي بالتقليد الغربي او يسبك عبارات لأحد يربطها .. اولها كآخرها وآخرها مثل اولها.. وقليل من النقاد والباحثين عرفوا شاعر ليبيا الكبير من خلال مفرداته وقوافيه .. وبودي ان يصبر معي القاريء قليلاً قبل دخولنا في القصيدة لنطل من خلال نافذة الأبيات إلى القصد الفني في قصيدته عن المدرسة الاسلامية العليا .. ولنعش مع رفيق في زمن الاحتلال في عام ١٩٣٦ اي بعد انتهاء المقاومة الوطنية الشعبية بخمس سنوات فقط .. تلك الفترة .. فترة نشوة الطاغية واستتباب الأمر له في كل شيء .. وهل يستطيع المواطن تلك الآونة ان ينطق كلمة لا يخشى تأويلها ؟ سيما الأديب او الشاعر الذي تقف له حكومة المحتل بالمرصاد فضلاً عن ترصد خطواته وحياته؟.. قالت لجنة وضع ديوان رفيق «عندما استتب الأمرلايطاليا

في شطري القطر الليبي ارادت ان تتم مشروعها الكبير وهو القضاء على العنصر الليبي بإبادته وذلك بجعله بمعزل عن العالم العربي الاسلامي فظهر بتنظيم حالة العرب وإيجاد المدارس الضرورية لتنظيم المجتمع الاسلامي الليبي فأنشأت المدرسة الاسلامية العليا حتى تقطع حجة القائلين بالرغبة في الذهاب الى الخارج للتزويد بدراسة الدين الاسلامي والتخصص فيه وفي علم العربية حتى تحكم حلقة الحصار حول ليبيا بعزلها عن العالم وتنفيذ ما قررت تنفيذه .. لكن هذا الفعل لم يخفَ على الكثيرين ممن يهمهم حال الوطن ولذلك كانوا يتصيدون كل الفرص بإيجاد المناسبات لتنبيه الأذهان إلى ما ينبغي ان يتجهوا اليه حتى يظل كيانهم سليماً فلا يمكن القضاء عليه .. وبالرغم من ان القوة محدودة إلا ان رغبة المخلصين استطاعت ان تنتزع من الشر .. الخير .. ودراستي الشخصية لقصيدة رفيق عن المدرسة الاسلامية العليا في طرابلس ومرمى ما قصده في إيديولوجية القصيدة من مضمونها وبعض كلماتها مع قياس الفترة العصبية التي قيلت فيها .. القصيدة والشك في شخصية الناظم ممن لهم سيطرة الملاحظة والمتابعة كل هذه توحي إلي بأن رفيق كان بهذه القصيدة كمن يثب بين سطحين يفصلها شارع عريض .. فسلامته من العواقب كانت منة من الله عليه .. وان بعض قصائد رفيق تكاد تحظر في عصر وطني زاهر لقوتها وصراحتها وجرأتها بله بعصر عدو ملاحق للمخلصين الموجهين واذن فان القائل بأن رفيق كان ينظم الشعر دون فن بالمعروف والمفهوم الجديدين قوله مردود عليه ولا يمكن ان يحظى بسوى عدم الاستساغة. وكثيرون من المثقفين الذين وهبوا الفرصة لتعليمهم يعيشون حياتهم بتلك النظارة السوداء التي حتمت ظروف بيئتهم البائسة لبسها .. فهم إذ يغطون اعينهم بنظارات سوداء يرون كل ما حولهم اسوداً إنما يريدون بذلك التشفي من الزمن الذي كان سبباً في تعقيدهم وهو دليل على انحطاط النفسية وانتقام من يأتي بالجودة.. ولا ادل على قولي هذا ممن يمشي الآن بالحط على اللغة الأصلية حتى ان بعض من يرون بالنظارة السوداء زعموا ان الكتابة بالعربية نفسها يجب ان تزول ويا ليتهم زعموا ذلك بتحديد خلق للغة

او مفردات مناسبة بل قالوا انهم يرغبون الحروف الافرنجية وهو تقليد مفلس من المنطق والروح والوجدان .

يكون النجح للفتح الجوابا — اذا قرع الصميم العزم بابا
وليس لمن حباه الحظ فخر — كمن بلغ الذي يرجو غلابا
ثمار الجد اهنأ من ثمار — تجيىء كمنحة .. صدفاً رغابا
فلا تقنع بمجد جاء عفواً — ولا تقبل بلا عمل — ثوابا
وكالخطأ الصنيع يجيىء كرهاً — فلا حمداً يثيب ولا عقابا
اذا الأعمال بالنيات كانت — على النيات نعتمد الحسابا
وناوي الخير مأجور عليه — كفاعله الذي اقتحم الصعابا

* * *

ويوجه الشاعر إرشاده إلى هيئة إدارة المدرسة نافثاً فيهم شعوره وأحاسيسه نحو الغرض من إنشاء المدرسة في لباقة وموعظة ووعظ .

اليكم هيئة الاصلاح طبتم — اوجه محض شكري والخطابا
تبينا ضمائركم بفعل — فتحتم منه للاصلاح بابا
اخذتم فوق عاتقكم قياماً — بأعظم خدمة تحيي الشبابا
على يدكم اراد الله .. فتحاً — فطوق من اياديكم .. رقابا
فادوا شكر آلاء .. رآكم — لها اهلاً فخصكم انتدابا
اعيدوا عهد اندلس وعهداً — به دار السلام زهت رحابا
لكم بالأزهر الزاهي اقتداء — يبلغكم الى الغرض الصوابا
يؤازركم .. اساتذة كرام — بهم صعب النجاح يكون قابا

ومن وجد الدليل على مرام   فقد رزق المعونة والذهابـــا
اذا استرشدت كفاً في طلاب   فاخلق ان يبلغك الطلابا

* * *

والشاعر لم يترك المعلم دون دعوة .. ولم يغفله .. فماذا سيقول للمعـلم الذي يدرس المادة وبأي أسلوب سيفاجئه نصحاً ؟ .. ماذا يقول المواطن الموجـــه المجاهد لأخيه الموجه المربي .. وهو في فـكي الكماشة وبين مخالب المتسلط ؟؟

اساتذة البلاد .. على اعتماد   نسلمكم من المهـج اللبابـا
وثوقاً في جدارتكم .. بفضل   ومن بك مستحقاً لا يحابى
اذا نصح المعلم كان عيسى   يبث الروح .. لو نفخ الترابا
لهم نرجو على يدكم فلاحاً   كما نرجو الدعاء المستجابا
مربي الروح ..لا يؤذيك قولي   فلست اريد نصحاً أو عتابا
ولا انا بالذي يدعو لفرض   فانك في غنى عمن اهابا
ولكنني أريد الصدق بحتا   لعلي ابلغ الأجر احتسابا
أتدري ما ستسأل عنه فيمن   تلقنه وتقرئه الكتابا ؟ ؟
تصور ان بين يديك روحاً   تصورها ملاكاً .. أو ذئابا
وتطبع في نفوس النشأ طبعاً   يصيرها أسوداً أو كلابا
أليس الشيخ طفلاً في طباع   اذا قلنا على ما شب شابا ؟
على ما شئت من شكل تأتي   لك الغصن استواءً وانحدابا
تأمل أي عبء أنت راضي   له حملاً تريد به الهضابا
ولا نرضى الهضاب له صعوداً   اذا لم نستقل به السحابا

أجلك من رآك بحسن ظن لحاجته ملاذاً .. أو مآبا

* * *

وكان لا بد لرفيق من توجيه الجيل نفسه .. ولكن الجيل الذي يتلقى العلم قد لا تكون له تجربة المعلم فهل يا ترى سيخاطب الجيل بنفس الألغاز والمفاهيم؟ وهل سيجابه الطلبة بالروح التي جابه بها الأساتذة .. وهل سيسكب الشاعر في شباب ناشيء مفهوماً له اعراضه السياسية ؟؟

شباب اليوم .. للغدفلتكونوا رجالاً نستعيد بها الشبابا
اليكم مدت الآمال عيناً .. نطالع يوم فوزكم ارتقابا
فكونوا عندحسن الظن فيكم فان الظن لم يأل .. انتخابا
ألستم خير من يرجى لخير وأكرم من الى كرم اجابا ؟
ألستم خير فرع من أصول اليها يشمخ المجد انتسابا ؟
سلوا التاريخ عنهم كيف كانوا هم العمران .. اذ كانت خرابا

* * *

خذوا بروية وصفاء فكر من الأخلاق والعلم اللبابا
ردوا ن منهل الآداب غيضاً جرى عذباً فطاب به شرابا
ارى الدين الحنيف قد احتواها مهذبة فأودعها كتابا ...
هو الفرقان فرق شمل جهل كضوء الشمس مزقت الضبابا
وخير العلم ما أدى لعلم جديد أو أزاح له نقابا
علوم الدين تأمرنا .. بعلم نشاهد من غرائبه العجابا

لعمرك ليس علما غير علم دعا الفولاذ ابكم فاستجابا
تصرف في الأثير فكان طوعاً يموج لقهر سطوته اضطرابا
سما نحو السماء يريد فيها من المريخ والقمر اقترابا
رأيت مكارم الأخلاق كادت بلا العلم الحديث تعد عابا
معارف عصرنا انتبذت.. مكاناً بغير الشرق واتخذت حجابا
فوا أسفاً شموس العلم صارت مشارقها من الغرب انقلابا

لا أدري كيف ذهبت هذه الألغاز على الذهن الايطالي وصدقها انها قصيدة بالمناسبة وكيف استطاع الشاعر ان يمررها في هذه الخفة.. لولا انه كابد صعوبة في التخطيط وانتقاء العبارة وهذا فن راق في الشعر المعاصر .

١٧

رسالـــة المربي ...

كانت حرفة التدريس محك افكار الأدباء والشعراء. فمن لم يقل في المدرس كان نضباً معينه من قداسة ايلاء الواجب حقه .. والمدرسة هي المنزل الكبـير الذي يخرج منه الجيل إلى المدرسة الكبرى .. الحياة .. ولما كان المدرس يحمل رسالة المجتمع بكاملها وحده .. وهي عبء كبير ضخم .. ومن ثم وجب تقدير المهمة كما استوجب للفكر ان يصف الرسالة وحاملها .. وبديهي على الشاعـر ان يتحرك عندما يستمع إلى الشاعر الذي نال إجازة الشعر العربي يقول :

قف للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم ان يكون رسولا

وها هو رفيق شاعر الوصف والجمال والوطنية يصف المدرسة بريشة صريحة مؤدية للغرض حتى يبرز صورة واقعية لرسالة المربي .. فتكون الصورة الناطقة التي يسيجها إطار الشرف والنبل .. ويشرئب اليه عنق الملم العارف ينبع مـن اشراقتها عبير الحياة والتقدم .

بحرفته اشقى العباد المعلم   يعيش فيقضي عمره يتألم

يقاسي عناء الدرس طوال نهاره   ويسهر فيما في غد سيعلم

يا للشاعر من حكم منصف .. يتجاهل الفاعل الذي يسخر ظهره و كتفيه إلى

حمل الأثقال من الصناديق والأمتعة .. يتجاهل ذلك الخابط معولـه في الأرض يعبدها ويمهدها للعابرين .. ويترك المنهمك ليله نهاره في ذلك المصنع أو المعمل أو الحقل ليخرج من عمل يديه إلى الناس مـا يلبسون وما يأكلون ؟ ينصرف الشاعر عن كل حرفة فيها صراع ويصف بالشقاء المعلم دون الناس جميعاً .. كل هذا لأن المعلم يقاسي عناء دربه نهاراً ويسهر مهيئاً لما سيعلمه في غـده .. ان رفيق اجاد الوصف .. ذلك ان كل اولئك الذين عنيتهم بالدأب والحركة مقيدون بساعات معينة حتى إذا ما قضوها ارتاحوا بقية نهارهم اما المعلم فانه يعمل ليل نهار .. فهو بعد فراغه من عمله يهيىء لما سيلقيه في غده من دروس.. ثم ماذا على المعلم ؟

يعاشر احداثاً فلاهم ذوو حجى	ولا هم مجانين فيبعد عنهم
يعد لهم •• أم للمفتش درسه	له الله كم قدبات يبني ويهدم

حقاً ان المعلم يقضي حياته في صحبة طبقة معينة مـن البشر .. فهو مدرس الجيل .. ولا بد له ان يداجي الصبية .. الصبية الذين اراد شاعرنا ان يصفهم بقوله .. فلا هم ذووحجى .. اي انهم ليسوا ذوي عقل ناه مميز ولا هم مجانين .. يا لروعة وصف الطلاب ان رفيق اعظم من وصف التلاميذ في مدرستهم .. ليسوا عقلاء ولا مجانين ..وها هو المدرس يعد دروس الغد للمفتش المراقب او للتلامذة الذين سيسألون عن كل حركة او سكون .

يعالج شطاراً فيسكت واحد	لمكر ولكن عشرة تتكلم
ويسمع منهم عند كل التفاتة	صياحاً لشكوى ظالم يتظلم
هنالك اما شاط غيظاً وحدة	اسروا من النجوى قليلاً فهيمنوا

هذه هي الجودة في الوصف والسبك والاخراج .. كان الشاعر يعلم بخفايا ما يعانيه المدرس ، عاش مشاكله مع الطلبة وعانى أوصابه في معاملتهم..ان الطلبة

عندما يكونون في الدرس كل يتكلم ولا يكاد المدرس يعرف المتكلم وقل ان يسكت واحد منهم يتكلم العشرة الآخرون .. وما ان يلتفت المـدرس لأمر حتى يسمع ضجة وحركة او شكوى من تلميذ متظلم من آخر .. وهنالـك ليس للمدرس امـــا ..ان انيشتط ويغضب واما انيداجي وان شطالمدرس سكتوا وتهامسوا قليلاً .

لهم في خفوت الصوت همس كأنهم   عصافير في أفنانهـــا تترنـــم
فكيف يطيق الصبر والمرء طبعه   ملول .. فمن صوت الذبابة يسأم
بجد وهم لا هون عنه وكلما   رأووا في محياه العبوس تبسموا
ومن اعظم البلوى اذا كان بينهم   خبيث على استاذه يتهـــكم
اذا اجمعوا مكراً وفيهم غباوة   فيا شر مـــا يلقى المعلم منهمو
يظل كمن يلقي خطابا لصخرة   وهل يستفيد الصخر او يتعلم !
يجود بأقصى مـــا يجيد ليفهموا   وما منهمو الا اصم وأبكـــم
ومن أغيظ الأشياء للنفس صرفها   قواها على تفهيم من ليس يفهم
فلست ترى مثـــل المعلم صابراً   ولا مثله من يستشار فيحلم
ولو لم يكن أرقى من الناس فطنة   لأبصرته في السوق يهذي ويرجم
فما كل انسان اذا جاش غيظـــه   وأمكن تنفيذ العقوبة .. يكظم
له الله لا فيما يزاول راحـــة   بجسم ولا من ألسن الناس يسلم
سقوط بليد العقل من سوء حظه   يلام بـــلا ذنب .. عليه ويشتم

اني اتوجه إلى كل عارف بالعربية أن يتصفح قول شاعرنا هذا ليحكم بعقله

على قوة الشاعر .. وهل رسم فناً عالياً رفيعاً .. وهل لمس المشكلة لمساً واضحاً شافياً مشخصاً العلة التي يعانيها المدرس؟ان فن رفيق هذا في عيشه حياة المدرس اعتبره ارقى فن صوره شاعر حق عصر رفيق بـل حتى احتساب رفيق .. ثم هل هنالك من تسول له نفسه ليرمي رفيقاً بأنه ليس انجب شاعر وصف واحسن الوصف وعاش المشكلات ورسم وصور وأبدع ؟؟ ان نقد شعر رفيق وحيـــاة رفيق لا تقبل جدالاً ولا فلسفة ولا تمويهاً بتسخير المفردات الأدبية لطمس معالم الاشراقات المنيرة في جميع جوانب شعر رفيق. ولننظر ولنتمعن في الأبيـات هذه كيف صور بريشة واضحة جلية صادقة .. بل والتقط (فلماً) ناطقاً ملوناً جميلاً للمعلم وهو يؤدي رسالته المقدسة في فصله التربوي..عندما يخفت التلاميذ صوتهم في الفصل لهم همس يجعلهم اشباه العصافير التي تترنم في اعرافها .. وهذا وصف جميل للتلاميذ وهمسهم وهمساتهم .. شبهه الشاعر بترنم العصافـــير .. والمدرس من كـــثرة العناء وصخب التلاميذ ومعالجتـه للدروس وطريقته في التدريس . فهو يمل الضوضاء .. ليتفرغ إلى صب الكلمات في آذان الصبيةوهو يسأم لطنين الذباب والتلاميذ منطبعهم إذا رأوا مدرسهم عابساً تبسمواوانتابتهم الضحكات. وكل من مر بطور المدرسة لا بد وان يستذكر هذه الحالة..وانكان بين التلاميذ مشاغب فتلك بلوى على المعلم وإذا ما مكر الطلاب واجمعوا عـلى مكرهم فباشر ما يلقاه ويعانيه مدرسهم ثم يضرب الشاعر مثلاً يقول أن اسوأ ما تحس به النفس تفهيم غبي لا يفهم بطبعه .ولو لم يكن المعلم راقياً وعاقلا لأصبح مما يعانيه مجنوناً يطوف الشوارع يرجمه الناس ويرجمهم .. وهو يكظم الغيظ وإذا ما سقط آخر السنة تلميذ بليدنسبوا اليه التهمة بأنه حابىأو ضادد وخاصم وكره فاسقط عن ارادة منراراد اسقاطه .

وقـــد وصفوه بالحماقة ويلهم علية افـــتروا من عندهم وتوهموا

وقد زعموا انـ المعلم صـدره يضيق اذا «قالوا ابن بجر » ورجموا

اذا سمع الأستاذ بالحافظ انطوى كما ينطوي من خشية الموت أرقم

وابن بحر وهو ابو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ الأديب والعلامة الشهير بأنه يكتب لطبقة يعلمها بالعقل اولاً ثم بالعلم ضرب شاعرنا مثلا به .

فما قـــدروا حق المعلم قدره ومن حقـــه كالوالدين يعظـــم
كفى شرفاً لاسم المعلم انـــه به كان عيسى قبل يدعى ويكرم
فلو لم يكن قدر المعلم عنـدهم عظيماً .. لما كنّوا به حين عظموا
وهل جاد غرس العلم في عقل طالب واثمـــر .. الا ما سقاه المعلم ؟؟

يقول رفيق كيف يصفون بالحماقة المعلم.. وهذا افتراء واعتداء عليه ، فالمعلم قد يضيق صدرة بتدريس أو بتعليم كتب الجاحظ ..والمعلم في نظر العارف حقه كحق الوالدين على التلميذ فهو مربي الروح وموجه النشأة .. وملقن حياة البيئة الأولى وكفاه شرفاً ان اسم المدرس .. المعلم الاسم الذي اطلق على سيدنا عيسى ابن مريم ولو لم يكن اسم المدرس عظيماً لما تكنى به المسيح . ويتساءل رفيـق هل نما واثمر غرس العلم في عقل النشأ .. الا ما كان قد غرسه المدرس في عقل التلميذ فهذبه واخرجه عالماً ذا مكانة ؟

ولكن هضم الحق في الناس عادة يصاب بها الحر الأديب ويهضم
لقد حرم النعمى وأشقاه عقله وازرى بـــه من في الشقاوة ينعم
فلا كان هذا العيش ان كان نيله يحتم ان يستعبد النفس درهم

يا للروعة في هذا الوصف.. ان عادة الناس هضم حق كل عظيم ..والأديب الذي هو اجـدى الناس بالاعتراف تراه مهضوم حق مـع الناس فـــلا يقدر

قدره .. واراد رفيق ان يلفت النظر إلى البيت المقول .

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

لأن عقل الأديب يشقيه ويحرمه النعمى ما دام كان المفكر الواحي الطارف ويندب حظ الأديب إذا كان الأديب يعيش ليستعبده المال او تسخره المادة فتذله وتجعله رقيقاً صغيراً تافهاً .. فلا عيش له إذا كان ذلك .

* * *

١٨

مصيف بنغــــازي ...

من منا لا يعرف مصيف جليانة .. ومن منا من لم يعجب بهـــذا الشاطيء الممتع الاخاذ .. ولا بد لرفيق شاعر الحب والجمال من ان تستضيفه جليانة .. ويقطع فيها شوطاً من شرخ شبابـــه أو مشيبه ولا ادري ترى اي انفعال وأية مؤثرات طرأت على شاعرنا عام ١٩٣٦ ليقول في جليانة مصيف المدينة قصيدة من أرقى ما قال واجود ما نظم وشاطيء جليانة الذي كان عام ١٩٣٦ مجموعة صغيرة مـــن اكواخ الخشب كما يقولون يأوي اليها الايطاليون يستحمون ويستظلون ويتصابون بالألعاب المختلفة .. أما العربُ فكانت قلة منهم تأوي إلى هذا الشاطيء الطبيعي .. وهم امـــا موظفون محظوظون أو محظوظون غــــير موظفين .. وكما يقولون ان جليانة عامئذ لم تكن ذلك الشاطيء الذي يسترعي انتباه الشاعر ويلهمه لولا ما يتأثر بـه الشاعر من منظر البحر وروعة الشاطيء نفسه .. ولما لم يقل شاعر الوطن منظومته في عام ١٩٦٠ مثلا ولعله كان منهوكاً مريضاً لم تجد قريحته ما يتناسب ومنظر جليانة اخيرا وقبل وفـاة الشاعر .. وبالروعة ما كان سيجود به وصفه لو عاصر جليانة هذا العام .. وعاش على رمالها المنظفة اللطيفة وسكن غرفها الجميلة وجلس بناديها الكبير المنسق الضخم « الشاليه » وشاهد طرقها المعبدة عند مداخلها .. لا شك كان الشاعر سيأتي بمعجزة في قومه ورحم الله رفيق الذي خلد في تاريخه الناصع النزيه شاطيء جليانة ، او مصيف بنغازي عـام ١٩٣٦ .

قف بجليانة إبان الأصيل
وانظر الشمس قبيل المغرب
وانظر البحر له لون السماء
حين رق الجو صفواً راق ماء
يتوالى الموج فيه .. كلما
صفقت جانبه ريح عليل
راح يحكي راقصاً من طرب
وعلى الساحل رنت نغمات
وترى الموج يوالي اللثمات
وقعتها بسمات النسمات
دائم التقبيل لم يشف الغليل
من ثغور بسمت عن ذهب
لضياء الشمس حين الشفق
عكس ألوان حيال الأفق
احمر في اصفر في ازرق
جمعت في صفحة الجو الصقيل
خلف وش من بياض الهيدب[1]
ولقرص الشمس مالت تتوارى
جذوة تشعل فوق الماء ناراً
تركت لوناً يحاكي الجلنارا

---

١ – الهيدب .. البياض الذي يبدو في السماء الصافية .

أو حياء البكر في خدٍ اسيل
الهبتـــه قبلة في لعـــب
يا له مـن منظر يسبي الحلوم
رائع ينفي عن القلب الهموم
لو رأيت الغيد في البحر تعوم
لرأت عيناك من كل جميل
شادنا في السرب أو في الربرب [٢]
ورأيت البعض في البعض يموج
كلمـــا ودع فوج جاء فوج
سابحاً كالموج يطفو فوق موج
كالنجوم الزهر والبحر كليل
قد سجى والموج فوق السحب
يستخف الحلم منهن السفور
لخصور ، ونهود ، ونحور !
ها هنا الجنة ولدان وحور
خضن في الكوثر أو في السلسبيل
طافيات فوقـــه كالحبب
قلب الطرف شمالاً ويمين
كل شيء بهـــجة للناظرين
وسرور فيه للقلب الحزين
راحة ان صح في العيش السفيل

---

٢ — الربرب .. المكان سواء كان منطلقاً او محجوباً .

ان ترجى راحـــه من تعب
تعب متصل ، هذي الحياة
نحن من باطلها في غمرات
صار فيها الحق بين الشبهات
خافياً والعقل امسى كالدليل
تاه عن مقصده في غيهب[3]
عادة الدنيا عبوس وابتسام
ما لحال سر.. أوساء .. دوام
تنقضي أعمارنا دون المرام
وبنا شوق لورد مستحيل
من سراب لامع في سبسب
هكذا بين اتعاظ واعتبار
والتذاذ باطل مر النهـــار
واذا بالليل أرخى بستـــار
لايرى في نسجه الطرف الكحيل
غـــير لمح من بريق الشهب
قلت هـــذا حلم في يقظة
أو خيال مر بي في لحظـــة
فأهاب الحق بي في لفظـــة
وهل العيش سوى حلم طويل
فانتبه .. لا تغتر .. بالكذب

٣ – الغيهب .. الصحراء صعبة المسالك .

معاني بعيدة التصور سلسلة سهلة منقادة في الفهم تكاد موسيقاها ترن معها وتلاحق نبراتها.. خيال واسع ضخم دسم غني بالتشبيهات والوصف والاستعارات الرطبة ... نفس عارفة مجربة حساسة .. لها في كل جانحة وفكر ثري باللغة مخزون بالمفردات يكاد المصراع عندما يحكم عليه حكم شاعر يكون منتقى من بين آلاف الكلمات ... حجة قاطعة لنفس شوافة .. تواقة للجمال محبة للحب دقيقة الاختيار مسيطرة على الشعور ..

يستخف الحلم منهن السفور لخصور ونهود ونحور

الشاعر لم يكتب لعصر معين ولم يصف وصفاً خاطفاً سوقياً يذهب مع الساعة .. ولم يقل قولاً ينهنه به نفسه وكفى.. ان شاعرنا عبر للفن وقال لكل جيل ووصف الروعة في الواقعية حتى كأني اراه يعبر الأعمار والقرون على ادق من السراط ..

تعب متصل هذي الحياة نحن من باطلها في غمرات

أي جودة وأي تصوير للدنيا ممتنع سهل يحفظه القاريء في سطرين أكثر تصويراً وامتع ترديداً من هذا البيت .

عادة الدنيا عبوس وابتسام ما لحال سر، أو ساء، دوام

كل هذه العظات كفيلة بان تظهر لنا شاعرنا وهو العبقري الذي يتغزل لأنه يدرك بان هذه النثرات من الغزل ان هي الا فرصة تسبق الحقيقة أو رداء يحجب الواقع المر .. ولولا هذه الصور الحبيبة الجميلة اللطيفة لظهرت الحياة جافة ولما كان سر الكون في عمران الارض وتحبيب الحياة الى النفوس التي تدرك معنى الحياة ومن ثم فهي اولى من يعرف فلسفة الخلود ولو بعد الزوال وهل العيش سوى حلم جميل ؟

فانتبه لا تغترر بالكذب

نهاية المطاف في مضمون القصيدة وخاتمه الاعجاب بالشاطيء فكما تترامى الموجات على الصخور تكسرها وتتكسر .. هكذا الحياة تنقضي بعد جمال الحركة وتتكسر على صخور الحقيقة فتبدو في مثل ما صوره رفيق في مصيف بنغازي ..

١٩

الشاعر المغترب ...

يا ايها الوطن المقدس عندنا   شوقاً اليك فكيف حالك بعدنا
كنا بأرضك لا نريـد تحولاً   عنها ولا نرضى سواها موطناً

ها هو شاعرنا الكبير في تركيا بمدينة جيحان يحن إلى الوطن وكلنا نتذكر رفيق بأنه شاعر الوطنية فلا غروان يقول الكثـير في الوطنيات ثم لا غرو ان يستذكر بلاده وهو في غربته الطويلة القاسية البعيدة ... ها هو شاعر الوطـن المنفي المبعد عن الوطن يتساءل .. ويسأل اصحابه في رسائله كيف حالـــك بعدنا .. ثم يعاتب الوطن .. كنا بأرضك لا نريد النزوح عنك ولا نرضى سواك موطناً نسكنه ونحن اليه ونحبه ..

في عيشة لو لم تكن ممزوجة   بالذل كانت ما ألذ وأحسنا
عفنا رفاه العيش فيك مع العدا   وابى لنا شمم النفوس وعزنا
وسما بنا شوق الى حرية   وسنا الى استنشاقها سبب الغنى
والحرص من ضعف اليقين ومن يطع   طبع النفوس يعش خسيساً هينا
ياايها الوطن العزيز وان نكن   بنّا .. ففيك حبيبنا ومحبنا

ما اطيب روح رفيق وما اعظمها وأقدسها . ان عزتها أسمى مـا تصبو اليها .. وان إهانتها لا ترضاها ولو ركبت في سبيلها الصعاب وتعرضت للتشرد والألم والغربة والتهديد .. ها هو الشاعر معتذراً عن نزوحه معاتباً الظروف التي أبعدته عن الوطن يقول ان عيشته كانت ما الذها واحسنها لو لم تكن ممزوجة بالاذلال معرضة للاهانة ..وان رفاهية العيش عافتها نفسه مع عدوها وان شمم نفسه لتأبى ان تعيش في الذلة والاهانة وقد سمت الحرية بنفسه حتى داس سبب الغنى في سبيل استنشاق عبيرها المفدى المنعش .. فالحر المؤمن هو الذي يوقن ان الغنى بيد العظيم الكريم جل شأنه وان الحريص على الحياة ولو كانت في هناة ومذلة فهو ضعيف اليقين فالذي يطيع طبع نفسه حين تذله يحيا حياته خسيساً هيناً على الناس وعلى نفسه ..ثم يناجي رفيق وطنه بقوله اني وان بعدت عنك فانك انت العزيز الذي يقطنك الحبيب والمحب.. وهذا الرجوع بعدالأسى والعتاب والحرقة والحنان والتحنان إلى الوطن العزيز جميل ممتع وتطرف محبب بنا .. فما عنك استطاع تصبر قلب ولا فيك اطمأنت نفسنا .

ما ألذ واعذب هذا البيت .. ابتعد الشاعر ولكن قلبه لم يصبر على هـذا الفراق والبعد .. وكذلك نفسه لم تطمئن في المكوث والاستقرار ..

اما هواك فلا لزوم لذكره　　　فالحب ما منع الحديث الألسنا
لكن ما شاهدت فيك من الأذى　　　والحيف دوماً قد اغصّ واحزنا
لا يستطيع الحر فيك معيشة　　　الا اذا رضي الإهانة مذعنا

قول رفيق الا اذا رضي الاهانة مع كونه حراً .. ربما تنافى مع منطـق اللزوم .. وها هو يقول لا لزوم لذكر هوى وطنه وحبه .. وحبه انـه يفوق كل ذكر وقول والمصراع ما بين الشطرين للمتنبي ..

جعلوك مسخرة بأيدي صبية　　　لا يبعدون من الحمير تمدناً
حكموا كما شاءوا فكانوا محنة　　　والحر ممتحن بأولاد الـزنا
قالوا لقد جئنا نمدن ارضكم　　　اين التمدن والذي قالوا لنـا

كان منطق إيطاليا حين غزت ليبيا عام ١٩١١ هو النية في تمدين اهلها وكانت خواتيم هذه النية القتل والتشريد والاذلال .. وأما قول الشاعر (مسخرة)فهو تعبير شعبي معروف وقوله جعلوك يقصد الوطن بايدي صبية .. هم لا يبعدون من الحيوان في المدينة اذا صح إطلاق الشاعر التشبيه بالحمار في المدنية وهو تشبيه في غير محله لأنه اطلاق تشبيهي على غير عاقل وغير قابل للتمـــدن والانسان وان كان عدواً فهو مخلوق مميز قابل للتحول والتطور غير ان رفيق الوطني المظلوم الساخط اطلق هذا التعبير .. والتشبيه المجازي ويقصد ان الايطاليين كانوا يحكمون في العرب ضباطاً صغاراً ما زالوا صبية يديرون دفة الحكم على غير حنكة وعلى غير تجربة وبدون تمييز العاقل الخبير ..فهذا حكم الصبية في مصير امــة كما شاءوا وكما لذ مزاجهم .. وهذه محنة العقلاء يبتلون بأبناء السفاح في بعض الاوقات يتحكمون في مصائرهم ومقاديرهم .

هدموا من الاخلاق في اوطاننا   اضعاف ما شادوه فيها من بنـــا

وهذا حق لم يخف على الشاعر وحقيقة لم تذهب عنه عفواً فان العدو اذا حكم يهدم من اخلاق الشعب المحكوم وهي وسيلته للحكم حتى اذا مـــا فسدت الاخلاق وانهارت العزة والكرامة والعرف انشب مخلبه للفتك والتقتيل .

والعدو يهدم من الاخـــلاق اضعاف ما يشيده من بنيان في الوطن الذي يحتله .. فمدى رفيق بعيد ومسدد وهادف ومنطقي صادق .

ان العهود وما وعدتم كله   كذب على مر الزمان تبيـــناً
امن العدالة والتمدن نزعكم   غصباً ببخس ليس يذكر ملكنا؟
جرتم على اربابه فتشردوا   في كل قفر لم يصيبوا مسكنا
تحت السماء على الصحارى ، اصبحوا
مثل الوحوش فلا هناك ولا هنـــا
خرجوا بلا مال فصاروا عرضة   للفقر والبأساء ، يعقبها الفنا

اصدق ما يقال في الوطنية وحب البلاد والدفــاع عن الحق المغتصب ان العهود التى قطعتهـا ايطاليا والوعد الذي تعد به على مر الزمان يظهر بجلاء كذباً وتمويهاً واضاعة للوقت .. ويتساءل الشاعر العزيز النفس الغيور على وطنه هــل من العدالة والمدنية ان تنتزعوا غصباً وبأبخس الثمن ملكـاً لأهله العرب ؟؟

وها هو يفند بالحجة اباطيل العدو بقوله لقد جرتم على ارباب هذا الوطن واهله حتى تشردوا وتفرقوا - ايدي سبا - في كل بقعة لم يجدوا المسكن غرباء لاجئين . وها هم موزعون مهاجرون في العراء - تحت السماء .. وفي الصحاري حتى اصبحوا كأنهم الوحوش التي لا تعيش في مقر ثابت .. فلا هي هناك ولا هي هنا .. امن المدنية والعدالة ان تشرد ايها العدو المدعي .. ارباب حــق وأهل وطن فيخرجون هائمين على وجوههم تاركين اموالهم وامتعتهم حتى صاروا عرضة للفقر والبؤس ثم لا محالة هم فانون ميتون من خواتيم هذه الازمات الكأداء .. ثم ها هو يناجي المهاجر المواطن المجاهد فيقول ويشبهه مثله بأنه ترك البلاد لمن تشبه بالايطاليين .

يا من تطوع في البلاد مهاجراً   مثلي وخلاها لمن قد (طلينا)
لا ترجعوا يا أهل برقة واصبروا
فالصبر يجمل بالذي يبغي المنى
كونوا على حذر ولا يغرر كموا   وعد .. فيوم الفوز يوم قد دنا
وخذا النصيحة من محب مشفق   صدق الحديث ولا تقولوا من انا

لم يقصد الشاعر بقوله ولا تقولوا من انا انه يخشى افشاء اسمه ولكنه حلّى

المصراع بحلاوة التعبير فقط .. وها هو الشاعر الذي ينزع ويوصي كل مهاجر بالصبر وبترك الوطن ليبقى فيه من تطلين اي تشبه بالايطالين كأن يكون قد تجنس بالجنسية الايطالية .. وكأن الشاعر مع وحيه يرى في الأفق البعيد بلاده مستقلة ويرى نفسه عضواً بمجلس شيوخها .

٢٠

غربة وفرحة إياب

وبقي الشاعر في مدينة جيحان بتركيـــا فترة لم يسكت خلالها عن ذكر الاحباب والأصدقاء .. يجيل البصر في غربته فيرى الاحـــلام تتراقص امام ناظريه ويحن لمجالس احبابة فيضجر ويتململ ويود ان لو كان معهم في سهراتهم أو غدواتهم عند تمثال جليانه .. أما اصدقاؤه فكانوا يمثلون طليعة شباب الجيل علي فلاق وهو شاب تولى عدة مناصب منذ ان شب عن الطوق وهو مكافح حر ذكي له مواقف وطنية معروفة وما زال الدافق بحياة الرجال المخلصين ، خليل القلال رحمه الله .. وكان شعلة من الحمـاس والوطنية وهو مـا زال في اذهان عارفيه ذلك الذي وقف مواقفه الخالدة في الجمعية العامة لهيئة الامم وكان ذا باع مشكور في العمل لاستقلال بلادنا مع رفاقه حضرة المجاهد رئيس مجلس الشيوخ الحاج عبد الحميد العبار وهو غني عن التعريف رفيق الزعيم عمر المختار وحامل لواء الجهاد فترة طويلة من الزمن وقد اسعده الله ان عاصر الجهاد منذ صغره وقاد طوابير المجاهدين وعاصر الاستقلال وها هو يترأس مجلس الأمة .. وطيب الذكر المرحوم عمر فائق شنيب الذي جاهـــد وهاجر ثم رجع الى بلاده واسهم في الحركة التحررية منذ قيام الجيش في ٩ أغسطس ١٩٤٠ وكان رئيساً للديوان الملكي في عهد الاستقلال ومن الانصاف ان اذكر الدكتور علي العنيزي وهو من

اعيان البلاد وقد عمل في سبيل الاستقلال في شتى المجالات وله مواقفه الخالدة في هيئة الامم عند تقرير مصير ليبيا وقد أشاد بهذا .. سان لو .. العضو الهايتي الذي كان صوته سبباً في استقلال بلادنا. كما انه من الانصاف ذكر المواطن عبد الرازق شقلوف الذي كان شعلة من النشاط آبان الحركة التحريرية الاخيرة وفي ليكسكيس بأمريكا .. وكان رفيق صديقاً للقلال وفلاق والعنيزي وشقلوف ومن اصدقائه المبرزين المرحوم الشريف الماقني ابو مدين وهو الشاب الدافق الحي الذي ذهب ضحية حادث تاركاً وراءه صفحة خالدة من الذكريات كلها انسانية ومثالية وفلسفة والاستاذ محمدبوكر وهو الآن بادارة تعليم بنغازي والسيدطاهر المجريسي وكثيرون جداً من رجالات البلاد وفي مقدمتهم المرحوم عمر فخري المحيشي الذي كان استاذاً في الوطنية والعـــلم والصحافة وعلي الجربي وفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحميد الديباني شيخ الجامعة الاسلامية وغيرهم .. فكيف اذن لا يستذكر رفيق جماعته واخوانه واصحابه واحبابه وهم من اعيان البلاد وقادة الفكر وأهل الحل والربط في ليبيا وهم جماعات وطبقات ... وقد اراد رفيق ان يخص واحداً من هؤلاء برسالته علماً منه بأن جميع اصدقائه سيتصلون بالنبأ وسيقرؤون الرسالة.. والقصيدة .. ويتساءل فيها عما اذا كان الاصدقاء ما زالوا على عهده بهم في تلك الرحلات و (الفسحات) .. فيقول للاستاذ محمد بوكر..

يا احبائي شجاني بعدكم حزن طويل
اذكروني كلما لاح لكم وجه جميل
اذكروني حينما يجمعكم في (الكيف) ليل
انا ما زلت على عهدكمو ذاك الخليل
لست بالناسي لذكراكم وان شط الرحيل
كيف والقلب لديكم ماله عنكم بديـل
فاذكروني كلمـــا لاح لكم وجه جميل

يا احبائي وقد هبت من الشرق عليل

وذهبتم نحو جليانة والوقت أصيـــل

وازدهاكم شاطيء البحر يحاذيه النخيل

وجلستم عنـــد تمثال له ظل ظليل

وشربتم ذائب العسجد بالدر يسيـل

فاذكروني عليّ روحي يشتفى منها الغليل

واذكروني كلما لاح لكم وجه جميل

شاعر وفي حنون أليف وعبقرية شعرية دافقة سيالة هاطلة بالاعجـــاز .. ورفيق صريح لا يخفي حقيقته ولا يرائي فيها . واحبابه ان يذكروه كلما مر بهم ذو وجه صبوح وسيم .. واين ؟؟ عند تمثـــال جليانة ذلك التمثال الذي نصبته ايطاليا تخليداً لمن سقط من ابنائها يوم جليانه المشهور .. وقصة التمثال ان ايطاليا عند رسوها في بنغازي قامت معركة بين سكان المدينـة والغزاة .. استشهد فيها من سكان بنغازي يومئذ اكثر من ستمائة رجل وتكبد الغزاة خسائر جسيمة منها صرعى التمثال الذي داخله مقبرة كبيرة للجنود الايطاليـــين .. وعددهم يربو على الالف.. فيقول رفيق اذكروني عندما تشربون ماء العسجد .. الذهب ويقصد (البيرة) ولم يقصد الشاي وان قال بالدر يسيل ويقصد (الرغوة).

انا لا أنكر من طبعي الى الحسن اميل

تستبيني القامة الهيفاء والخد الاسيل

طاهر الحب عفيف النفس والله وكيل

يشهد الله بأني ليس لي قصد سفيل

فليقل من شاء، لا يزعجني قال وقيـل

ان حب المرء للحسن على الذوق دليل

فاذكروني كلمـــا لاح لكم وجه جميل

وها هو يستعطف اخوانه ويعبر عن حاله بعدهم ويدلهم على اقامته وكيف يعيش بدونهم بعيداً عن ذكرياته ووطنه واقاربه ..

صرت في جيحان كالمسجون سلواه العليل
ليس لي خل كأني بين اهليها ابيل
من رأني قال مجنون غريب أو عليل
ما له منفرداً ؟ ليس له منا خليل
قلت هذه حال، من كان له بخت رذيل
ان من يبلى بتغريب وان عز ذليل
فاليكم يا احبائي وقد حار الدليل
اشتكي حزناً طويلاً زاده شوق طويل
فاذكروني ان لي في حبكم ظناً جميل
واذكروني كلما لاح لكم وجه جميل

وها هو الشاعر يرجع من غربته بعد مدة .. يجتمع باحبابه واصحابه ويجلس معهم ويسهر ليلة يراها انها هي العمر فلنصغ اليه يقول :

في سكون الليل في ضوء القمر   في ليالي الصيف ما احلى السمر
يا حبيبي قم بنا نحلم في   يقظة ، بالحب في ظل الشجر
قم بنا نسكر من خمر الهوى   في نسيم الفل في وقت السحر
نسمات كلما مرت بنا   نقلت عنا لانفاس الزهر
فاذا هبت مع الصبح لها   نفحة .. وهي وشايات الخبر

لا تصدق قولهم فيما مضى — بسمات الزهر من دمع المطر
انمـــا باحت بنجوانا التي — بلغتها من نسيمات السحر
يا حبيبي كل شيء حولنـــا — باسم يغبطنـا حتى الحجر
ما ترى البدر بنا مبتهجاً ؟ — يتلقـــانا ببشر في خفر
يا له الليلة مـا اجمله — كيف عن عيني الآن استتر
اترى زاد على معيـاده — أم هو الحب تجلى في البصر ؟
فأرانا غير ما كنا نرى — فظننا أننـا فوق البشر !!
ان من آن بالحب رأى — ما خفى عمن تولى وكفر
بلـغ الحب بنـا مرتبـة — بعدها لم يبقَ للحب وطر
ما على من نال ما نلنا إذا — هو ـ يا سلمك الله ـ انتحر
يا حبيبي وانظر (البركة) قد — عكس المـاء بها ضوء القمر
فبدت مجلوة تحسبها — ملئت من زئبق فيها استقر
اتظن البدر فيهـا إذ بـدا — عبثاً مستجلباً منا النظر ؟
انما اهـدى لذكرى حبنـا — من غوالي رسمه احدى الصور
فلتكن ذكرى لنا مسعدة — كلما جارت تصاريف القدر
ولتكن ليلتنا في عمرهـا — ليلة القدر ..الى الفجر الأغر

ان من يمعن النظر ويقرأ هـذه القصيدة من ديوان رفيق ويعاصر مشكلة بعده عن وطنه ونفيه وحنينه من جيحان وترنحه بكل نشيد مستذكراً وطنه واهله واحبابه واصدقاءه . ! ويعيش مع رفيق غربته تلك ثم يتصور عودتـــه وابرازه هذه الصورة مجرد عودته ليرسم ليلة خالدة قضاها مع احبابه واصحابه

بعد غيبته الطويلة عنهم ويصف هذه الليلة لهم هذا الوصف .. ولا شك يخرج بحقيقة صارخةوهي ان رفيق شعر و كأنه قام الى اعلى مكان عنده .. وانه راجع الىحب تصغر أمامهكل الخفايا فلا يساويه شيءاخر. ومنهنا كانت هذهالقصيدة منطلقاً ومنفرجاً للشاعر ..

٢١

هل الموظف عبد ؟؟

لفظ مستخدم يرادف في معنا ه مستعبداً بغير استعاره

لم يجرب على كل ما يظهر شاعرنا تجربة الوظيفة .. وإلا فما يجعله قاسياً عليها .. وهناك من يرى في الوظيفة عدة اسباب منها شرف خدمة الوطن عن طريق الدولة .. ثم ضمان المرتب كل شهر دون انقطاع ، واذا كانت هنالك عوامل تعترض الموظف كالمرض والكبر فهنا!! كذلك ضمان علاجه وطريقة تقاعده .. ثم ان له حصانات ادارية تجعله في مأمن من بطالة الركود التجاري او الجدب المعيشي .. أما رفيق فها هو يصف الموظف بوصفه مستخدم يرادف مستعبد .. دون استعارة للفظ آخر .. ولماذا يجعل الشاعر حرفة التجارة هي ارقى وسائل العيش للمواطن الحر الكريم ؟ هل نراه منصفاً حين يقول في مطلع قصيدته « التجارة والوظيفة » :

نعمت الحرفة التجارة للحر تقيه شر الخضوع وعاره

تجعل التاجر القنوع اميراً مستقلاً ليست عليه اماره

مالكا أمر وقته فهو يقضي   كيفما شاء ـ ليله ونهاره
ما لشخص عليه نهي ولا أمر   لميعاد خدمة في اداره
فمتى شاء غير منزعج نام   الى الظهر لا يفارق داره
لا يبالي سوى الوقار فللجامع   ان شاء أو الى الخماره
طوع نفس لوامة ان هداه   العقل او طوع نفسه الاماره
يطلب الرزق من كريم فيغنيه   بفضل عن ذلة وحقاره
ان اغني العباد من كان لا   يظهر إلا الى الغني افتقاره
وخليق بان يعيش عزيزاً   من سعي سعيه ورجى ثماره
طلب الرزق باتكال على الله   وسعى عبادة وتجاره
ان سر النجاح فيها هو الصد   ق وسعر مهاود وجساره

هل كان الشاعر تاجراً ؟ هذا سؤال يمكن الجواب عليه بالنفي ، لعلمنا ان رفيقاً لم يحترف التجارة قط .. وإذن فما الذي جعل شاعرنا يلم بجوانب هذه الحرفة ، ويعرف اسلوبها ويوضح خطط تنسيقها ، ويخطط اسسها ويوجه محترفيها إلى سبل نجاحها حتى يقول ان سر النجاح فيها هو الصدق؟ والمهاودة في الاسعار والجسارة .. وهي اهم اسباب الحرفة ، ثم ها هو يوضح برنامجها فيقول :

ويدر الأرباح منها اكتفاءً   بقليل بعد اجتناب الخساره
واذا حاز تاجر ثقة الناس   فقد اصبح النجاح شعاره
ثقة الناس وحدها رأس مال   هي خير من ثروة غراره
قد يجوز الثراء في صفقة في   ساعة تاجر بفضل المهاره
قمة المجد والغنى احسن الطر   ق الى نيلها طريق التجاره

هي خير من الوظيفة حتى لو تعالت الى حدود الاماره

ان المقارنة بين التجارة والوظيفة ، وايهما افيد وانعم واجدى فمضمونها يأتي به شاعرنا في منطق المفاضلة التالية :

انما صاحب الوظيفة محكوم ولو كان حاكماً في الصداره
وهو مهما ارتقى ففي خطر ثم نزول كراكب الطياره

وها هو الشاعر يضرب المثل بهذا الابداع والسبك الجميـــل السهل العذب المقروء والمفهوم دول عناء .

وعزيز على النفوس نزول من ركوب ولو ركوب حماره

ويرينا السبب في النزول انه راجع الى العزل و لاستغناء عن الخدمة فيقول مرادفاً :

ان للعزل خسفة دونها عند العدو السقوط في (الخراره)
لفظ مستخدم يرادف معناه مستعبداً بغـــير استعاره
فهو مهما تعاظمت منه نفس تحت امر الرئيس رهن الاشاره
واحتكام الرئيس ان كان فظاً فهو شيء صعب يشق المراره
فتأمل حال الموظف كان الله في عونـــه وفـك اساره

ما اخف روح شاعرنا رفيق فهو حتى في أمثاله وتشبيهاته لا ينفك متخذاً اسلوب الدعابة والمزاح الخفيف اللطيف ، ولننظر كيف شبه الموظف المسكين وهو في حضرة رئيسه .

لا يزال المسكين في رجفة الفـار مع الهر يتقي اظفاره

واجف القلب من رقيب يراعي فاذا غاب برهة جاء كالسارق
جانب العدل لا يقبل عثارة في رهبـة من النظـــاره
واذا لم يجيء .. بكاذب عذر (طيحوا سعده) واشقوا نهاره
ولهذا تراه من وجع البطن افتراء ملفقـــاً اعـــذاره
شاردة العقل ذاهلاً في اختلاق الزور مستعملاً ضروب الشطاره

أما اكتفى الشاعر بهذا الوصف والتشبيه لحالة الموظف .. جعله كالفأر وانه دائم الخفقان واجفاً من رقيب لا يقيله وإذا تغيب برهة عن العمل رجع رجوع السارق الخائف من عيون تراقبه وانه دائم خلق الاعـــذار الواهية الملفقة إذ ترغمه ظروفه وإلا (طيحوا سعده) أوقعوا حظه اسوأ السحيقات ولذا ترى الموظف كثيراً محتال أوجاع البطن من الافتراءات ، وهو شارد العقل أبداً في ذهول لانه دائب التفكير في حيلة لتبرير تغيبه مستعملاً في هذا الاختلاق ضروب الشطارة واللباقة ..

ثم يقول رفيق :

يحسب الشهر بالدقيقـة لا الساعة يرجو بغير صبر سراره
جاعلاً همه معاشاً هو القوت الضروري.. حددوا ..مقداره
لا يوفي ديونه فهو في الخامس في الشهر لا يمـلك (باره)
خاوي الجيب يحلق الذقن بالد ين .. وبالدين علبة السيكاره
يتوارى من بائع اللحم والخبـ ـز ويخشى مطالب (الخضاره)
فاذا جاءه الغريم تلقـــا ه بوجه يصفر مثل العراره
نقده المطل ـ اوفرار ـ فلاتلحـ ق سيارة (الفيات) غباره

حقيقة واضحة ان الموظف يحسب شهره بالايام وبالساعات وبالدقائق احياناً وكثيراً من الموظفين عند الخامسة في الشهر لا تجد (بارة) لديه ، والبارة صك قديم كان يستعمل في العهد التركي وانه يحلق ذقنه بالدين .. وهذا النوع من الموظفين متكابر لان غيره يحلق في منزله وقد لا يجد ثمن الشفرة .. وجميل ان يصور الموظف وهو يندس موارياً نفسه بشق الطرق عن الجزار والخضار والخباز فاذا ضبطه احدهم ماطل أو فر هارباً متوارياً حتى لا يكاد يلحقه متابعه .. وبالغ رفيق في ذلة الوظف حتى وصفه بهروبه جرياً ان سيارة (الفيات) وهي نوع مستعمل هنا في ليبيا لا تفوق سرعتها سرعة جري الموظف هارباً من مطالبه ، ثم ها هو رفيق يقول ومع هذا كله من الصغار ترى الموظف متكبراً شامخاً كأنه (قارون) بهجة ووسامة ويشبهه بذيل الطاووس الوانه زاهية وهو ذيل ويقول ابتعد عن الموظف فهو (مكروب) افلاس معدي فانه لا يعدو كونه هيكلا في ثياب (المليونير) ..

مع هذا له غرور وان كا	نت له رتبة كشيخ الحاره
فتراه كأنما هو في النفخة	قارون بهجة ونضاره
في برود كأنها ذنب الطا	ووس تزهو الوانها المختاره
لا تغرنك العصا واحذر القفا	ز .. جداً .. وخف على النظاره
هيكل في ثياب صاحب مليو	ن .. وفي بيته تجوع الفاره
فابتعد عن طريق (مكروب) افلا	س فان الهروب منه طهاره
واذا جاء آخر الشهر سلم	من بعيد ولا توقف جواره
هذه بعض حالهم وهي حالي	حين ما كنت مثلهم في الاماره
فعفا الله بعد بذل شبابي	فدية أي فدية يا خساره

غير اني ربحت علما بما جر   بت فاحفظه حكمة مختاره

بائع الفول ربما عاش في اهـ   ـنأ عيش من كاتب في الوزاره

لست مع رفيق في هذا الوصف الا بالنسبة للعمال أو بعض نادر من الموظفين اليوم ، ولرفيق عذره ، فقد قال ابياته هاته عام ١٩٣٨ حينما كان الموظف كما وصف ، فلو قدر لرفيق ان يرى ويشاهد حالة الموظف اليوم في عصر البترول فانه لا شك سيقول في اكثرهم و لوكان ضئيل الدرجة غير هذا القول . باستثناء طبقة المدرسين ..

*

٢٢

مدرسة رفيق في التجديد .

لا اخالني منصفاً ولو انصفت ولا أراني حائزاً لرضى الجميع ولو احسنت ولا اجـــدني مشكوراً عن رأيي ولو اصبت .. فالاشواك محيطة بالموضوع من كل جوانبه .. والارض قلبت تربتها قلباً جائراً سيئا على غرة وبدون استعداد .. واذن فالافكار غير قابلة للحقائق ، والحقائق غـــير ملائمة للافكار .. ولا بد للتطور من انعكاس وتأملات يحبب كل ما حوله بتطوراتها وتأملاته .. وهكذا سنة الكون وتحول البشريات ، وتغير القطاعات الكونية بحكم الجدة أو بحكم القدم .. الخليل واضع الميزان الشعري .. ومنسق القوافي ببحورها في عروضها وقوافيها .. ليس الا بشرا نظم ونسق برنامج اللغة في ركنها البديـع وهو الشعر .. فشق للعربية ليلا عذباً يجري نميره في بحيرات وترع كل منها تصل هذا بذاك ، ولما كان هذا الاعجاز من الخليل .. ليس تنزيلاً فانه اذن قابـل للتغيير مع تغير الزمن وللتطور مع تطور المفهوم وللتجدد مع تجـــدد الاذهان والمفاهيم .. وهل من المعقول المنطقي ان يسير الفكر دائمـاً وابداً في ركاب الخليل فلا يجدد ولا يتجدد .. لا يحرك ولا يتحرك.. وانما هو فلك يدور حول نفسه في النطاق الذي رسمه الخليل ؟ لا بد للفكر من ان يخرج عن قافية الخليل ولا بد له ان يتحرك من القافية .. ولكن كيف يكون له هذا .. والاحتفاظ

بالموسيقى التي توجه الذهن إلى الانتباه لا بـد ان يكون أساساً للمجدد .. كما ان الشعر ينبغي ان يكون معبراً عن كونه شعراً .. فاذا قلنا :

حقـائب السفـــر ابتسمت لي
افـــتر ثغرهـــا الجميـــل
ومـــدت ذراعيها لي تعانقني
في حنـــان في رفـــق
لأحضيهـــا بشوق واهفـــة
اطبع على خديها قبلة مشتاق ملتاع

هل هذا تجديدفي الشعر..وهل هذا هو الخروج على القافية والتحرر منها .. كلا .. ان رفيق يعلن عن مدرسته الجديدة سنة ١٩٣٨ فيقول : الشعر ما زال يرسف في قيدالقافية لم يتزحزح عنه قيد شعره مع انه في الزمن القديم كان عرضة للتطور فكيف جمد الآن وأمل الأوزان التي استحدثت، انما قضى عليها مشاركة العامية لها .. والشعر كان وما زال نوعـاً من الرفاهية في التفكير .. فيقول رفيق في قصيدته اما آ ن :

اما آ ن للشعر ان يستقـل ويخلص من ربقة القافية
فقـد طـال والله تقييـده بتقليدنـا الأعصر الخاليـة
الى م نسيـر بوزن الخليـل ونرسف في قيـده العائـق
وللشعر في كل لحن جميل مجال مع النغم الشائق
سل الموسيقار عن النغمات ايمكـن للفـن تحديدهـا
فما بالنا في (فعول فعول) وقفنا نحاذر تجديدها
اذا كان بالوزن فيما مضى عرفنا من الشعر تلك البحور
انعجز بالوزن عن أن نزيد بحوراً تزيد بمر الدهور
يقولون اول مـا قالـه اوائلنا الرجز ثم القصيد

وصاروا اذا جاء جيل جديد من الناس جاء بوزن جديد
(فيا عجباً من مقالاتهم ايعمى عن الحق كل البشر ؟)
ايمكن ان يوجد البدو ما يشق ويعجز اهل الحضر ؟
فيا شاعر العصر جدد لنا من الوزن غير الذي نعرف
ولا تخشَ مر انتقاد الغلاة فسوف يؤيدك المنصف

ما جاء بين قوسين لأبي العلاء المعري .. امـــا رفيق فها هو يقول مناشداً الفكر الجديد يا شاعرالعصرجددلنا من الوزن غير الذي نعرف..ويريد بدعوته في مدرسته هذه الشعر الموزون الموسيقي لا ايقاف القول والهذروالتلبيس بشتى الخداعات اللغة ووضعها حيث لا يعطي الحشو نغمة تقيد الاذن وتحركها للسماع وإذا ما يريد شاعرنا بالمدرسة الجديدة والتحرر من القافية بوزن جديد .. هـل يقصد بقصيدته (نزهة بحرية على بحر مرمرة) هاته التي وصفها بشعر مجدد نفس التجديد في الوزن الذي يدعو اليه ؟؟

البحر مثل النسيم ساجي والليل داجي
والبدر قد مال بابتهاج مثل المناجي
همت بنا الفلك باتئـــاد على انفراد
خلالنا الجو من معادي ومن مفاجي
سارت كما تشتهي الرياح لهـا انسيـاح
ربانها فوقها جناح شق الدياجي
والموج افضى بعد الجنون إلى سكون
وسنان لم يخلُ من شجون ولا اختلاج
والليل جذلان فهو يسري بنور بدر

ولا يبالي بضوء فجر ولا انبــــلاج
والبدر حيران في شعاع خلف التـــلاع
غيران .. اذ نحن في التياع وفي هياج
انفاسنا هاجهـا الغرام فـلا انتظـام
غير ارتعاش ..فلا كلام ولا تناجي
غبنا عن الحس في عناق على اشتياق
لله ما احسن التلاقي بلا انزعاج
سعدت بالوصل من حبيبي بلا رقيب
جننت من جسمه الرطيب في لون عاج
من ناعم دافيء لطيف (حلو ظريف)
في كل أوصافه خفيف على المزاج
ما (أفروديت) التي تغالوا فيها وقالوا
معبودة مالهــــا مثال سوى لجاج
ما في خيال ولا مثال سحر الجمال
بل في تثن ـ وفي اعتدال وفي ارتجاج
لما نضت فضلة الثياب خلف الحجاب
شمس تجلت من الضباب زاد ابتهاجي
غاصت فاتبعتها ففرت كالحوت مرت
جالت حواليّ ثم كرت بعد احتجاجي
فقلت عومي تحت الشعاع ولا تراعي

البدر يجلوك في التماع من السراج
وقلت ما قلت لست أدري ان كان شعري
معبراً عن شعور فكري بلا لجاج
أم كانت في ساعة الوصال على اتصال
بعالم الشعر والجمال فيما اناجي

*

٢٣

الربيـــع ...

انا لا ادافع عن عبقرية رفيق فذلك راجع إلى ذوق الذين عرفوا عبقريته.. وحسب عبقريته ان تخلد مع الزمن .. وليقل من يريد القول ان رفيقاً ليس في المستوى الذائع الذي يجعله في مصاف فحول شعراء الشرق .. فان مـــا يورده كاتب ناشيء أو كاتب ينظر دائماً إلى زغب شاربيه فتشخص النظـارة إلى تحت القدمين كل ذلك مصيره مردود .. مقروء مؤقتاً بحكم علة قائمة مؤقتاً .. ومن ينحي نحوهما فانه كذلك مأخوذ بعلة مؤقتة قد تنطوي تحت مصلحة مؤقتة .. وقد قرأت نقداً قال صاحبه انه دراسة لكتاب .. رفيق .. وخلصت منه إلى الأسف الشديد من استخدام صحف المصلحة العامة للأغراض المعينة والشخصية الانتهازية أو الاحتكارية .. وان الورقة التي نغذيها بمال الدولة تتحيز بقصـــد الهدم والتفكيك لعرى الحقيقة الناصعة ..وان تتضافر الجهود على حساب المصلحة العامة للحيلولة دون تقدم اللغة والابداع الشعري فتحيك كل مؤامرة لتغليب جانب السفسفة على حقيقة واقع النبوغ في تقدم الأدب العربي وعلى قمته الشعر العربي .. ان كتاب بلادنا إذا لم ينتقدوا في حب وإخلاص خالين من الحقـــد والنهش أي إبداع من عبقري فانهم سيكونون آفة على الأدب بدلاً من ان يكونوا أنصاراً لواقع النبوغ .ولقد قـــال بعض من لا يروقهم إلا أن يقدموا حتى في

النبوغ والعبقرية أن قول رفيق المدح والرثاء .. بمعنى رخيص .. وهذا مردود على هذا البعض ذلك ان رفيقاً عفيف ذو شمم لا ينزل لاحد عن واقع ما يستحقه ومن ثم كان شعره جيداً حسب مكانة المقول فيه .. ومن هنا لا يمكننا ان نواخذ رفيق على شعره من حيث مفهومه ومضمونه .. وكم يكون المضمون لغزاً فيه التورية المصطنعة عندما يكون القول غير ملاق فرصته .. وسنأتي على لون الرثاء في شعر رفيق .. بعد ان نضع في الميزان قصيدته هذه عن الربيع .

جاء الربيع ، فقم بنا يا صاح   نلقَ الزمان يمر بالأفراح
في موكب لبس الزمان شبابه   واختال منه ببيعة ومراح
عرس زهت فيه الطبيعة فاكتست   حلل النبات البارضى الفواح
ايامه حور .. حسان .. اقبلت   تهدي عروس الراح للارواح
فانهض لها ودع الخمول وهاتها   صهباء تحكي نكهة التفاح
مثلوجة جاءت تفور كأنها   لهب اذيب ففاض في الأقداح
جاشت بنشوتها كذلك فعلها   في النفس حين تجيش بالأفراح
(خفت فكادت ان تطير بكأسها   وكذا الجسوم تخف بالأرواح
روح السرور اذا سرت نفحاتها   في الروح زالت غمة الأتراح
لا (فضة ذهب) بل الحبب الذي   (في يوم عرس من خدود ملاح)

لا يخلو رفيق من اقتباس المؤثر من الشعر عن غـــيره .. فاذا تأثر بيت كان رديفاً آتياً لا محالة لاحدى أبياته .. وهنا يأتي بقوله فضة ذهب إشارة إلى بيت شوقي :

حف كأسها الحبب   فهي فضة ذهب

أما آخر الأبيات فهو يشير إلى بيت شاعر النيل حافظ ابراهيم .

خمرة، قيل انهم عصروها　　　من خدود الملاح في يوم عرس

ورفيق الشاعر الذي يهوى الجمال فهو حديث عمره يستأنف قوله في قصيدة الربيع :

انى على الافلاس لا أختار عن　　　خد المليح وثغره الوضاح
فاشرب على وجه الربيع فقدرنا　　　متبسماً عن نرجس واقاح
والورد ينشر في الصباح روائحاً　　　صاحت توحد فالق الأصباح
والفل فتّح في المساء ثغوره　　　يتلو بديع لطائف الفتاح
وكأن ازهار المروج تناهبت　　　قوم الغمام لحلية ووشاح
جمعت من الألوان حين تفرقت　　　من كل غض ازهر لماح
وعلى التلال مطارف من سندس　　　خضر ترف على النهار الضاحي
والشمس ترسل في الشعاع حرارة　　　عرض النسيم لجوها بمزاح
مزج الندى بعبير حوذان الربا　　　فجرى بطيب ساحر نفـــاح
يا صاح قم لاق الربيع بنزهـــة　　　في فتية غر الوجوه صباح
لك من شمائلهم ربيـع زهرة　　　أدب يفيض كفيضهم بسماح
في روضة غناء غرد طيرهـــا　　　فوق الغصون مصفقاً بجنـاح
وتمايلت أفنانها فكأنها　　　طربت لشدو البلبل الصـداح
في قرب جابية لدفقة دلوها　　　صوت كصوت الفحل بين لقاح
ولها خرير مسرع متمهل　　　يحكي دويّ النحل في الأجباح

لم تغفل لجنة جمع الديوان تفسير بعض العبارات الواردة في الديوان فقد ذكر أن المطـــارف جمع مطرف وهو رداء من خز مربع ذي اعلام .. والحوذان نبت .. والجابية الحوض الضخم ويقصد الشاعر الجوابي المعروفة في ليبيـا فهي بركة مبنية على شكل مربع طول ضلعه عادة ثمانية أمتار او تسعة وارتفاعه متراً او متر ونصف يقع دائماً بجانب البئر إذ تصب فيه الماء بواسطة الجمال قديمـاً أم الآن فبواسطة موتور ومضخات .. فيصب الماء من البئر في الجوابي ..وكان هذا الحال قديماً عندما كان الموتور أو المضخات غير متيسرة ، فكانت الجمـال تقوم بدور الموتور أوالبقر..فكان لكل بئر جابية بجانبه والجمل او الثور ومن ورائه جماله في طريق منحنية هابطة يجرر حبلاً مشدود به دلو فيصعد ويهبط وهكذا يخرج الماء من البئر فيصب في الجابية ويجري المـاء إلى الجداول ..

جمت بذوب الماس فهي كصفحة ... المرآة .. من عذب المـــذاق قراح

يجري الى الريحان حف بمجلسي ... في ظل غصن الخوخ والتفـــاح

حيث الوسائد والطنافس جمة ... جمعت وسائل راحـة المرتـاح

فاعقد هنالك جلسة علنيـــة ... واحكم بتزييف ادعاء اللاحي

لا تستمع الا لشاد مطـــرب ... حلو الترنم ليس بالصيـــاح

مترفق النغمات تسمع بينها ... للعود انة عاشق ملتاح

فكان بالموزون من ألحانه ... تتحرك الأوتار لا بالراح

ها نحن نستمع إلى الشاعر وهو يحولنا جانباً فجانب مع الجابية وعلى الأقاصي وإلى الجداول وفي الحقول التي وشاها الربيع وعلى المروج الـــتي حلاها فيروز وكأننا بالشاعر مارد يطير بنا على اجنحة الزمن لنرى الحياة .. وهـــا هو الشاعر يصف جمال الطبيعة في هذا الفصل وصفاً يكاد يحرك كـــل جارحة في النفس.. كل هذا ليس غريباً على القوي الفحل الوارث مفردات يلعب بها شطرنجه

الشعري كيف شاء ولكـــن الغريب حقاً والذي اعتبره نبوغاً وإبداعاً هـو تحول الشاعر من الوصف فجأة إلى المجلس الذي يحكم علنية في جلسة يعقدهاعلى هذا البساط العظيم الطبيعي ويعلن حكمه بأن اللاحي اللائم الذي يأخذ على من ينتشي في هذا البساط .. اية هزة او نشوة فانه مزيف للحقيقة . في هذا المكان يحلو لك ان لا تسمع الا لمطرب يطربك بنغمة صوته الرقيق الجذاب وها هـو رفيق يصف العود مرة اخرى بأنه معبر صادق مهموم فكأن نغمته أنـة عاشق دنف ضاق بحبه حيلة وموجدة وها هو الشاعر يلهمنا السبيل في هـــذا الجو فيقول :

يا صاحبي بدد همومك انها ... صدأ العقول وعلة الأرواح
متع شبابك بالربيع فانـــه ... عيد الزهور يمر بالأفراح
كالعرس فاهتبل السرور فربما ... (عادت أغاني العرس رجع نواح)
لا بأس من طرب الكريم ولهوه ... مترفعاً عـن سبة وجنـاح
فاخلط ببعض المدح جدك واعتصم ... ان جئت فعلاً سيئاً .. بصلاح
و كن ابن وقتك (طيباً متمردا) ... لكن لغير (غباوة ووقاح)
اني ليعجبني الفتى متجبراً ... كتجبر (الحجاج) و(السفاح)
يختال في بعض الغرور بعزة ... في نفسه وبهمـة وطـماح

وضع الشاعر المصراع الثالث بين قوسين لأن المصراع لشوقي .. ولكن لماذا يريد رفيق ان يكون المتمتع بالربيع ، اي الكريم خالطا جده ببعض المزح وان يترفع عما يجلب اليه السبة واقتراف الخطأ وان يكون ابن يومه ولكن طيبـــاً ومتمرداً في غير غباوة ووقاحة ها هو الشاعر يأتي بالسبب ويقول لأنه يعجبه الفتى متجبراً في جبروت الحجاج بن يوسف الثقفي احـــد ولاة بني امية زمن عبد الملك بن مروان وسفاحاً مثل السفاح اول خلفاء بني العباس وقـــد لقب هكذا لتنكيله ببني امية عام ١٣٢ هـ .

ان رفيق يعجبه الفتى متأففاً متعففاً عالي النفس يختال في بعض الغرور في عزة نفس وبهجة وطموح .. وهذا راجع إلى نفس الشاعر التي يعيشها فلقد كان رفيق عظيماً كريماً مترفعاً يحس بوجوده كانسان و كشاعر جديد بعيد عن حب الماديات ويرشدنا كيف نقضي زمن الربيع وهو زمان الشباب ..

زمن الشباب ربيع عمرك فاجتهد   في ان يكون وسيلة لنجاح
فمن الخمول .. ربيع عمر ينقضي   في غير جد .. للعلا .. وكفاح

ان وزن هذه المنظومة قديم حقيقة وربما كان من المألوف جداً ولكن روح هذه المنظومة ومضمونها .... ومـــا عبرت عنه من وصف وردع وزجر وامر ونهي .. تعتبر اروع مادة للجديد المستحدث ..

* * *

٢٤

رفيق انبغ راثياً

اشرت في قصيدة الربيع إلى رسوخ قدم رفيق في الرثاء كما اشرت إلى بعض مـن ينكر هذه الحقيقة . وبودي الآن ان اورد بعض المنظومات لرفيق : الأولى في رثاء الشيخ عبد الرحمن البوصيري وهو مـن مواليد غدامس عام ١٨٥٨ مـن اسرة عريقة طيبة المحتد والارومة وكان عالماً فاضلاً توفي عـام ١٩٢٩ تولى القضاء في طرابلس ثم انقطع إلى التدريس حتى وفاته..والثانية في وفاة المخترع (ماركوني) وهواعظم مخترع إيطالي في اواخر القرن التاسع عشرواوائل القرن العشرين ولد عام ١٨٧٤ وتوفي عام ١٩٣٦ .. وهو مخترع اللاسلكي إذ سجل اولى مخابراته عام ١٨٩٦ .. والثالث هو الاستاذ الفساطوي وكان محرر لجريدة العدل بطرابلس واستاذ المعهد العالي بطرابلس ورئيسه، ولد في فساطو وهي نفس المدينة التي ولد فيها شاعرنا رفيق وفساطو مدينة في الجبل بطرابلس .. ودون ان أتعرض بالنقد في الديباجة اورد القصائد او المراثي لاتلمس في اعتقاد موطن ما يدعيه الدعاة ضعفاً .. أو تفاهة ..

في البوصيري

نعوه وقالوا ارضنا اليوم زلزلت فقلت لهم ان المصائب اشباه

كفى ان في لفظ المصيبة باعثاً — لما تشمئز النفس شؤماً لذكراه
اجب ايها الناعي وبين .. اموته — وقد زلزلت ام زلزلت حين وافاه؟
لك العذر في ان تدعي لوفاته — من الهول ما امثاله العرف يأباه
فقد وقعت في ساعه كان وصفها — مثالاً ليوم ترجف الارض جراه
يبالغ قوم في الزوايا ووصفها — مجازاً وهذا واقع قد شهدناه
فان قيل من حسن التصادف ربما — توافق ما لا يقبل العقل دعواه
فما معظم الأحداث الا تصادفاً — مع البخت أو ما كان في مثل معناه
نعوه وما للنعي شخصاً وإنما — هو العلم والأخلاق والفضل والجاه
عظيم فقدنا فيه للعلم مالكاً — وللحكم فاروق الزمان .. ويحياه

قصد الشاعر بمالك .. الامام مالك بن انس الذي بلغ من قمة افتائه وعلمه وتمكنه ومقدرته في الفقه الاسلامي إلى القول المأثور لا يفتأ ومالك في المدينة. وقصد بفاروق الزمان في حكمه .. الخليفة عمر بن الخطاب إذ كان أعدل من عرف العصر واشتهر بنزاهة حكمه وقوته وحكمته. أما قول الشاعر يحيا فقد قصد القاضي العادل العارف يحيى بن اكثم احد قضاة زمن الحاكم المأمون ..

الا ان فضل الله يؤتيه من يشا — وهذا ان الله شاء فاعطاه
اجل عطاء الله نفس زكية — يدبرها عقل وتلك سجاياه
يرى الجاه في التقوى فيعلو تواضعاً — ويشرق بشراً وجهه حين تلقاه
فما غره جاه ولا مال عن هدى — لمال ولا حب التكاثر الهاه
يحببه في الله عند جليسه — مكارم اخلاق بها الدين حلاه
وما كنت ادري ان في اللطف هيبة — وفي المزح جداً يلهم المرء تقواه
الى ان هدتني منه للحق نظرة — عرفت بها سراً حوته مزاياه

فقـــد كان في تقواه لله مخلصاً يرى حكمة الاخلاص في «قل هو الله»
أطلتُ رثائي ، غير وافٍ كأنني أعرف مجهولاً أسأت لعليـــاه
أما كان في ذكر البوصيري كغاية تبلغـني ممـا أحاول أقصـــاه
ولكنني من أمـــة لفراقـــه بكت فجرى دمعي قريضاً فسماه
بكينا وكان الحق تبكي نفوسنا بنـا دمعنا أولى إذا سال مجـراه
ضياع الرجـال العاملين لأمـة قضـاء على ما في غد نتمنـــاه
اذا مات في قوم رجـاء أماتهـم من اليأس (مكروب) يعم بعدواه
بنا ما كفى يا دهر فأستبق منزعاً لقوسك ان الغير اشغل مرمـاه
شقيقتنـا ان المصائب بيننـا سواء .. كلانا واحد شهد الله
نحس جميعاً بالذي حس واحد كعينين في إدراك شيء رأينـاه
إذا غـاب بدر في سماء تظلنـا ألسنا سواء كلنا قد فقدناه
إذا المرء ارضى الله والناس بعده فقد ربح الأخرى بصالح دنياه
كذلك قـد كان الفقيد حياتـه فلا شك ان الله يكرم مثواه
عليه سلام الله يوم وفاته ويوم يرى الفردوس في البعث مأواه
الا ايها الشيخ الجليل وقد سرت الى الملأ الأعلى بك الروح أعلاه
سل الله ، للباقين خلفك رحمة تفرج ماهم فيه يرحمك الله

ماركوني المخترع

نظيرك نادر في الكائنـــات «لحق انت إحدى المعجزات»
رسول الفن انت ظهرت تهدي بآي الكهرباء البينـــات
نقلت الصوت فهو بغير سلك يحلـق في قوى متموجـات

وأرسلت الصدى في البرق يسري ... اميناً حافظاً للمرسلات

طوى الآفاق بين فم وأذن ... فزال بذاك تحريف الرواة

واصبحت الاذاعة من مكان ... تعم بسرعة كل الجهات

تفوق البرق يصحبها أزيز ... وأحياناً كصلصلة البزاة

فاغنت في الدعاية عن كثير ... من الصحف العديدة والدعاة

وتلك يد لنشر العلم جادت ... بمعجزة تفوق المعجزات

«أمر كوني» رثيتك لاحترامي ... وحبي للعباقرة الدهاة

وانت اجلهم عندي لأني ... رأيتك فوق هاتيك الصفات

نفعت الناس اجمع باختراع ... خــلا من كل انواع الأذاة

فكم لك من يد كانت شفاءاً ... لآلام البرية في الحياة

وكم اشفت على عطب سفينا ... دعتك فكنت اسباب النجاة

ولم تك مثل من يسعى ليأتي ... بما يقضي على باقي الحياة

يفكر في اختراع الموت قتلاً ... بغاز خانق ومفرقعات

ولكن كنت تسعى لاكتشاف ... يخفف شر تلك المهلكات

فليتك طال عمرك كي ترينا ... غرائب ما يزلنا مكتمات

علوم العصر ان بسقت وآتت ... فانت لها بمنزلة النواة

كشفت بفضل نور العلم سراً ... سيكفل حل عقم المشكلات

فهذي رؤية الصور استطعنا ... على بعـد نراهـا واضحـات

رأينـا مـن تكلم مـن بعيـد ... كما يبدو على سطح المراة

اراد الشاعر بعبارة يفكر في اختراع الموت ان يلفت النظر الى نوبل صاحب

جائزة نوبل الذي اخترع وسائل التدمير ثم انشأ جائزته للسلام وقد نزه شاعرنا ماركوني عن امثال هذا المخترع..

وسوف نرى بفضلك عن قريب طريقاً لاكتشاف النيرات
مسائل لا يزال العـــلم يسعى ليجعلها لرأيك طائعات
وكان يعـــد رأيك مستحيلاً فاصبح في عداد الممكنات
وصـار الفخر في كل اختـراع يعود اليك في ماضٍ وآت
فما لسوى عـــلاك يقال حقاً علو في الحياة وفي الممات

الفساطوي

بينما نسمع عنـــه انـــه قال في الاصلاح رأياً او فعل
ورأينا سعيه قلنا بـــه نقتدي في السير كالنجم.. أفل
امل خـاب فـماذا نرتجي وقصارى المرأ في الدنيا .. أمل
تبعث الآمال حباً في الحيا فإذا حالت إلى يأس.....قتل
يا لقومي أي خطب نشتكي صارت الشكوى من الخطب ملل
ما شكونا حادثاً لو لم يكن مثل هذا الفادح المر الجلـــل
برزت فينـا يـــد عامـلة فرمانا الدهر فيهـــا بالشلل
ودليل على ما خطونا خلفه خطوة حتى توارى ما مهل
ايها المصلح يبكيك دمـــاً معهد من زينة التاج عطـــل
قمت بالأمس خطيباً عاملاً وقليل من اذا قـــال فعل
قلت ابنائي فلبى فتيـــة سمعوا سحر البيان المرتجـل

كلهم غرسك فأنظره غداً ستراه كيف أجنى واظل
يا عظيم القدر نفساً وأباً عن عصام ساد.. ماذا ؟مافعل؟
سيد القوم الذي يخدمهم في الملمات على رأي المثل
شهد « العدل » بما أديته شاهد العدل وجيه حيث حل
كم نصرت الحق بالعدل على باطل قاومته حتى بطل
ناصر الحق ... جهاد حبره كالدم الطاهر من جرح البطل
يا اديب القطر حتى بعدما غبت ما زلت على الخير تدل
فقدك المؤلم أذكى انفسا جاش فيها الشعر دمعاً فأستهل
عاد حياً من جديد شعرنا لرثاء .... بعد ما كان غزل
كنت أعددت لك المدح فما راعني الا قضاء قد نزل
نزل القلب فأدمى ورمى بالأسى فأرتاع عقلي فانذهل
كنت تستحسن شعري وترى قصب السبق لغيري لا يحل
طالما أخجلني ذكرك لي إذ أرى نفسي من الذكر أقل
كان تقديرك حثاً لي أرى فيه للارشاد ما قل ودل
من علاج المرشد التشجيع ان علم الغالب في النفس الكسل
ان في التقدير تشجيعاً لمن وطن على حب العمل
بك ان تاهت طرابلس على سائر القطر لها القدر الأجل
أنجبت مثلك أبناً .. فإذا اطنبت في فخرها لم تنتحل
هي أم الصقر فيما نابها أترى المقلاة تخلو من ثكل
ذهبت بالصيت «فساطو» وان لم يدعها غيرها ان تستقل

بك زادت رفعـــة من نسبة زانها الله بها ... عز وجل
شمخت وارتفعت عن غيرها في ذرى طود على الكل أطل
عبثاً لم تتربـــع شاهقـــاً مرباً الشاهين في رأس القلل
لي اليهـــا نسبة ... تجعلني أبكماً اعلن اعلان المـــدل
ايها الراحل مـن ابقى عـلى صفحة التاريخ ذكراً ما رحل
ليس كالتاريخ عدل منصف لا يهاب البحث في نقدالخطل
لك يـا أحمد فى ذمتـه سيرة تبلغ مـا سار المثـل
عشت عمراً في جهاد كله ما ثنى عزمك فى ا لجد كلل
فاسترح يا طيب الفعل وطب بجزاء..فهو من جنس العمل

لا شك ان القصائد الثلاث مراثي كل منها تدل دلالة واضحة على قوةالشاعر فلم تخل مرثية دون عبرة ومثال أو دون إبراز ناحية في المرثي ونرى هنـــا في رثاء احمد الفساطوي عندما قال رفيق :

هى أم الصقر فيما نـــابها أترىمرباً المقلاة تخلو من ثكل

يشير إلى بيت العباس بن مرداس :

وأم الصقر مقلاة نزور

بمعنى مقلة نادرة التوليد .. كما نري رفيق في قوله :

عبثاً لم تتربع شاهقاً مرباً الشاهين في رأس القلل

أجاد في التشبية والوصف والتمثل .. وفي قوله:

ليس كالتاريخ عدل منصف لا يهاب البحث في نقد الخطل

.. يدلل رفيق على الجودة في الرثاء والقول وفي الأمثلة التي يضربها إسناد لنظمه وتقوية لايديولوجية شعره ... وانا وقد تطرقت إلى نقد ودراسة جميع قصائده في هذا الباب .. لا يسعني إلا أن اترك الحكم على ماهيـــة المراثي في شعره ليدرك من يلحي عليه انه ناظم يعرف كيف يرصف الكلمات في المناسبات.. هذا اللاحي انه مخطيء من نفسه .أما في رأيي فان رفيق يجيد المراثي ويعطيهـا حقها من النظم والحركة الموسيقية والمحسنات ولم يك قائلاً فقط ولكنه مجيد نابغ وحساس وفنان يكاد يسمو فنه على صدى الحياة في حياته ..اما الحكم فللوعي الذي سوف ينطق حتماً في الأجيال المقبلة .... وعفا الله عمن اخطأ ..

* * *

٢٥

أحاسيس ....

طلبوا من رفيق فوق ما لا يتسع الأفق في عصره إلى وصوله ، وقـالوا ان رفيق لـم يصغ شعره بالفن الرفيع الذي يجعله اليوم يكسب هذا الجاه بعـــد موته .. فماذا قال رفيق ؟ وما هو الإبداع الفني في اطار المعنى الذي يجعـــله في مصاف كبار شعراء الشرق ؟ ونسوا حقيقة التاريخ .. وحقيقة الواقع الذي كان يعيشه رفيق في ليبيا .. فما هو الازدهار الفكري ؟ وما هي الامكانيات الأدبية ؟ وكيف كان الجو الذي يحيا فيه رفيق ؟ .. ألم يكن العهد عهـد بلبلة وخوف واضطراب ؟ فكيف ينتظرون زهوراً يشمونها من وراء قضبان المقابر او اتربة الحرب المنتنة ؟ . الم تكن ليبيا فارغة الوفاض من الامكانيات الأدبية التي تمكن للغة العربية .. وخالية من جميع السبل الـــتي تخلق الأديب؟فكيف ينتظرون من الأعزل الفاقد السلاح خوض المعركة المجلجلة بالبـــارود ، الداوية بالمدافع ؟ الم يكن الجو الذي يحيا فيه رفيق جواً خانقاً مكفهراً ملبداً بالغيوم مغلفاً كل نفس لا يزيح على الروح عناء المشقة .. فكيف يمكن لغير رفيـق في ليبيا ان يبدع ويسجل ويؤرخ .. كل الاحداث في صورها واطاراتها وابعادها وحقائقها ؟ من يقول ان رفيق لم يكن قد وصل حدود ابعاد الفـــن في الشعر الليبي ، جاحد مسفه مغلق عليه باب النقد .. حاقد راشق لا يصـح ان يلتفت

اليه .. ومع العلم بأن النقد والتقليل من الشأن يخلق العظمة ويحفز للتقـــدم والاستزادة .. ولكن لا بد لنا من ان نعلم كذلك اننا بصدد دراسة لشاعر نال سبق عصره في بلاده وضرب في النغم ضروباً لم يصلها غيره في بـــلاده ورسم لوحات فنية عجيبة وغنية بالابداع ، ويكفيه انه صور عصره تصويراً يمكن في ذاته ان يبقى تاريخاً حياً ناطقاً صارخاً بالأحداث التي صاحبت عصره..فكيف تحدثنا انفسنا لنقول ان رفيق لم ينحت لنا من ريشته صوراً فنية خالدة ؟ ..
فهو ليس في مصاف شعراء الشرق :. في حوالي عام ١٩٣٧ ، وعنـــدما توفي ملك بريطانيا كان العرش الانجليزي الذي لا تغرب عليه الشمس مهيأ للملـــك ادوارد نجله الأكبر .. واحب ادوارد غانية من عامة الشعب ، وخيره الشعب بين حبيبته وبين عرش التايمس .. ولم يفكر الملك ادوارد ولم يستشر ، لأن قلبه كان محكوماً للغانية ، وخان القلب الواجف صاحبه فتنازل عن ملك بريطانيا العظمى في سبيل حبه .. والشاعر العبقري الذي عاصر هذا الحدث الكبير .. اليس عليه ان يؤرخه وان ينسج فيه بديع ونفيس درره .. فهيا بآذاننا نسمع رفيقاً فيما يقول :

هو الحب مـا تنفك تترى عجائبه	وتظهر من حين لحين غرائبـه
هو السر لم يستكنه العقل كنهـه	ولا العلم حلت منه شيئاً تجاربـه
لـه من صفات الكهربـاء فعالهـا	اذا انتظم (القطبان) اشرق ثاقبه
اذا مس من تياره القلب (موجب)	تمكن حتى يسلب اللب (سالبه)
لسلطانه قهر إذا ما تحكمت	عزائمه لـم يبقَ شيء يغالبـه
تحيرت الأفكار فيه فمادح	له ولاهليه .وآخر عائبه
وما زال رأي الناس في كل حادث	كثير نواحي الخلف شتى مذاهبه
دع الناس ما شاءوا يخوضون واستمع	عن الحب في التاريخ ما خط كاتبه

تنافر جاه الملك والحب وانتحى إلى جانب الملك المنيع محاربه
وباهى بأسطول على البحر حاكم وذي لجب في البر خضر كتائبه
وعاد بعرش ترجف الارض هيبة لذكر اسمه يخشى ويرهب جانبه
(رسى أصله تحت الثرى وسما به) إلى النجم فرع لا تنال .. هيادبه
وجاء بتاج أعجز الشمس حكمه سرى فسرت فاستدبرتها مغاربه
وفاخر بالتاريخ ضاق صحائفاً بمجد فعال الجد لا الجد كاسبه
هنالك جاء الحب ما في عتاده سوى قلب انسان وسهم يلاعبه
وصاح بجاه الملك صيحة آمر انا الحب! فاعرف قدر ماانت طالبه
فولى فراراً لم يعقب ولم تفد دعائم عرش .. ركنه وجوانبه
فوالله لولا الله .. ثبت ركنه (لزلزل) من ذاك السرير جوانبه
وقال ولم يستثن في قوله انا أو التاج فاستغنى عن التاج صاحبه
وودعه لا آسفاً من فراقه ولا سامعاً ماذا تقول أقاربه
وراح بتاج الحب فوق جبينه يقلده التاريخ والدهر مادحه
غدا ملكاً للحب لم يأت مثله على الدهر إنسان ولا من يقاربه
مثال الوفا في الحب كان تخيلاً فأصبح فعلاً ذكره ومناقبه
تنزه عن عيب فلم يك مثلما به سيم (انطونيو) فشاعت معائبه
ولا (كيلوبترا) فى الشقاء بحبها سقاها الردى .. حيّاته وعقاربه
ولا مثل قيس لا فداء لحبه سوى خيمة حدباء فيها مآربه
ولكنه حب تضاءل جنبه مقام ملوك الأرض طراً تراقبه
وذلك في التاريخ أول حادث وآخر ما يملي على الحب كاتبه

تباينت الآراء فيه مشاربــاً (فقلت وأي الناس تصفو مشاربه)
كفى انه في حادث لم يكن له نظير أصاب الرأي في الحكم جانبه
وأصبح في بث القرار قراره يمثل كيف العزم تمضي مضاربه
ولم يتلكأ مثل من كان قلبه (يغالب فيه الشوق والشوق غالبه)
ترفـع حتى مــا يقال لفعلـه (كفى المرء نبلاً أن تعد معائبه)
مثال الهوى العذري كان خرافة وسار الذي من بعده اليوم ضاربه

كثير ما يتمثل شاعرنا بأبيات كما اسلفنا لمن يتأثر بقولهـم الشعراء فالبيت الذي وضع بـين قوسين (رسى اصله تحت الثرى وسما به) للسموءل مـن قصيدته :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه.. فكل رداء يرتديــه جميل

وانطونيو .. هو مارك انطونيو قائد روما المشهور وهـو الذي نزل مصر لمقابلة كيلوبترا ولمؤاخذتها على معاونة الـذين قتلوا يوليوس قيصر .. فكان ان إحبها ووقع في غرامها وكانت النتيجة ان هزمه غريمــه اكتافيوس .. والقول الذي ختمت قافيته (**فقلت واي الناس تصفو مشاربه**) لبشار بـن برد في قصيدته التي كان مطلعها ..

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

اما البيت الأخير الذي جاء بين قوسين فهو للمتنبي واصله .. اغـالب فيك الشوق والشوق اغلب .

لواعـــج

وصورة أخرى لرفيق يمكن ان نستنتج منها خصوبة ينبوعه من الالهـــام

ينفث فيها لواعجه ويضمنها صبوات الفنان الذي يحب ، فيرسم صورة للشعور ..

ملت اليه .. فمال عني تعلم الهجر والتجني
أحور غض الشباب لدن يخطر كالغصن في تثن
غاية ما تشتهيه نفسي ومنتهى القصد والتمني
كان كحبي له محباً يسأل ان غبت عنه .. عني
ما زال به الوشاه حتى افلت كالجؤذر الأغن
يا بهجة ناظري ونفسي وملهمي الشعر والتغنى
مالك يا سيدي وروحي غضبت ماذا رأيت مني ؟
غرك قول الحسود لما قال بأني كذا .. وأني .. ؟
ما كنت اظن فيك هذا خيبت مع العدو ظني
لا ينفع في هواك الا تجرع الصبر .. والتأني

كان رفيق يحب دون شك ولكن لا اعتقد ان اسس حبه هو هذا الذي قال فيه ابياته وانه هو الذي يلهمه الشعر والتغني .. وربما كان هذا جميلاً .. احور العينين غض الشباب لدن البدن يخطر متمايلاً كالغصن في ميس وتثن .. وهذا لون من الجمال حرك رفيق حتى قال فيه ، فلنستمع إلى قصيدته :

يحلف ..

تجمعنا نزهة الأصائل في ظل آرائك الخمائل
في منتزه له سياج من شجر البرتقال مائل
مال بأغصانه يقيناً من خلسة أعين العواذل

ما أجمله ! وقد ترآى ملتهب اللون كالمشاعل
وقطع الشمس قد توارت بين ورنقاته الحوافـــل
تلك مصابيح كهرباء تسطع محمرة الفتائل
تشبه في حجمها نهوداً برزن من خضرة الغلائل
تبعث في الأنفس اشتهاءً يرفض له اللعاب سائل
تمتلىء العين من جمال في شجر البرتقال ماثل
قام وقد حفنا بصف كالحارس ، يدرأ الغوائل
قلت وما حولنا رقيب يزعجنا والزمان غافل
يا ظالماً كم تطيل هجري ما تعرف رحمة لسائل ؟
فاحمر ..ومال في دلال (كالغصن مع النسيم مائل)
يحلف لي انه وفي لا يقبل في قول قائل
أفديه بمهجتي وروحي ما ألطف هذه الشمائل

لا اشك بعد هذه اللمامة من شعر رفيق (إحساسات) إلا ان الفن قد وضح بجلاء في نظمه فقدصور الحب وسما به .. وادخله المعركة منازلاً ملكاً .. وبارزه واخرجه منتصراً ، ووضعه الصف الأول في الحياة يقود الشعور والاحساس إلى اوجيهما اللذين يستحقانها ، وسلك رفيق بالفن كل مسلك فعندما ارخ الحادثة الأولى من نوعها رسمها في إبداع مجسم للقارىء والمستمع .. واساس عباراتهـا التي حشاها بها ، وزركش اطاراتها زركشة بليغة ، حتى ان القصيدة عن ادوارد ملك انجلترا ، وحبه تكاد تنطق بمرور الأحداث ، وتباين الأوضاع وتغـــير السنون وتطور الدهر .. ومـــا خرج رفيق من تصويره للقصة حتى صور اطارات اخرى فيها الاحساس بالجمال والشعور بالحب وتلمس العاطفة مـــن الحبيب والعتاب والنجوى والاستجداء ، مقرونة كلها بعزة النفس والعفـــة

والطرافة في سبك العبارات التي لم تخلُ من لفظ شعبي أحياناً . وكم كان بالود ان لو درس الناقد ديوان رفيق دراسة فيها شيء من الوفاء والصدق وإيلاء الحق .. لو حدث هذا من كاتب ناقد ما .. خرج علينا دون ريب بجائزة الشعر تسكب ذهباً وهاجاً على ضريح هـــذا الشاعر الملهم والوطني المخلص ، الذى لم يصمت حياته ، شادياً بحب بلاده وحريته ..

* * *

٢٦

بين رفيق والحصادي

زار المرحوم عمر فخري المحيشي (درنة) فاستضافه علي أسعد الجربي سفيرنا الحالي بتركيا ، وكان المرحوم محمد عبد القادر الحصادي شاعراً مفلقاً وهو كفيف فود ان يساجل اصدقاءه شعراً على عدمَ دعوتهم له أو اجتماعهم به حين وفدوا إلى مدينة درنة وهو يعلم ان الذي سيتولى الرد عليه رفيق .. فأرسل قصيدته إلى المحيشي والتي يقول فيها :

فيّ الخصام وانت الخصم والحكم	وقد يبرئني عذري وصفحكم
يا أعدل الناس في الآداب عندك في	شريعة الأدب الغراء نختصم
لما اقترحتم على شعري محاكمة	والشعر برهانه بالضعف يتهم
جردته من خيالي .. وجئت به	على قضايا يقيناً ما بها تهم
فوضت فيها اليك الحكم فاقضِ على	عادات قوم لهم في ودهم وفم
قصصت موضوعها نظماً مقررة	فالنظم مني ومنك الحكم والنظم
قد زرت (درنا) فشرفتم بزورتكم	ومن سرور لقاكم كيف أنحرم

رصدتكم فى مظنات الوجود فلم ... أظفر بلقياك والأشواق تضطرم
زيارة شغلت يوماً فكان بها ... كعيد استقبلته الأشهر الحرم
قد عاقني سوء حظي من مؤانستي ... فيه بآدابكم فاشتد بي سقم
وليس من حرج نص الكتاب على ... مثلي واعرج أو من مضه سقم
وانت في سفر فيه اتى اثر ... يقول فى السفر الأتعاب والألم
فما على الوافد المجهود يفحص عن ... جميع من ضمه من صحبه الحرم
جعلتم سبب التعطيل مادبة ... بها (لأسعد) يغري الجود والكرم
فهل بذاك على «الجربي» من خطأ ... وهل حضور جميع الصحب ملتزم
بل قام بالواجب المطلوب محتفلاً ... بكم وجاءت به للواجب الهمم
قصدتم الشكر بالتعريض وهو لدى ... أهل البلاغة اولى حيث ينفهم
فقلت ان غذاء الجسم عطلني ... عن المعاني.. غذاء الروح تحتكم
فكيف هذا ونشر العلم خدمتكم ... ومن فنو نك تروي العرب والعجم
ومن اراد على ما قلت بينة ... فالشاهدان لك القرطاس والقلم
(فخري) بكم قد فشى فخري ولا عجب ... بالفرد قد تفخر البلدان والأمم
أتاك مني قريض فى مخاصمة ... ودية بيننا والجاه يحترم
بيني وبينك والجربي أي فتى ... منا بهجران ذي الآداب متسم
فاحكم بجرأته عدلاً وموعظة ... فالعدل افضل ما تسمو به الشيم
هذا ولا عتب في رأيي على أحد ... إلا على الحظ فانظر فيه يا حكم
واحكم عليه بوصف السوء ملتزماً ... حكماً صحيحاً به الحرمان ينحسم
ان الحظوظ تعادي كل ذي أدب ... جل الإله.. له في خلقه حكم

يا ابن الحيشي تشتاق القريض فخذ   نظماً حوى درراً لكنهـــا كلم
أهدي اليكم تحيـــات معطرة   كنشر ورد غدا في الروض يبتسم

وقد نشرت ليبيا المصورة عام ١٩٣٨ والتي كان يصدرهـا المرحوم فخري الحيشي قائلة ان رفيق لم يرض بتحكيم إلا شاعر كبير .. كان ذلك الشاعر هو المرحوم احمد الشارف وقـــد جعله المتساجلان حكماً استئنافياً في الدعوى الأدبية الكبرى .. وقال رفيق :

نظم حوى درراً .. لكنها كلم   فيها على الحظ جار الحكم يا حكم
ومن أراد من علي ما قلت بنية   لا تستوي عندها الأنوار والظلم
فليقرأ الحكم في شعر الأديب يرى   حظاً بريئاً بوصف السوء يتهم
ان كان عن حسن ظن مثل حكم (أبي   موسى) فلا شك عقبى حكمه ندم
أو كان ذلك عن قصـــد ومعرفة   جل الإله لـــه في خلقه حكم
يا أعدل الناس في الآداب عندك في   شريعة الأدب الغراء نختصـــم
نريـــد إثبات حق في مناقشة   وديـة بيننا والجـــاه يحترم
فلا تضيقن بي صدراً فدقي للا   حناك يزعج من في أذنه صمم
(فاحلم علينا) وقال الله (هرجتنا)   وزال عنك إلى اعدائك الألـــم
واسمع لحكمي فان وافقتني فبها   وان أبيت الى التمييز نحتكم

يخاطب رفيق صديقه الحصادي ، ويعلنه انه سيحتكم إلى احمد الشارف شاعر ليبيا الكبير ، ان لم يرضه قوله وهو الاستئناف (التمييز) .. وقصـــد بأبي موسى – ابي موسى الأشعري الحكم الذي انتخب لفض الفتنة بين الإمام عليّ ومعاوية معاً ثم قام عمرو بن العاص فايد عزل الإمام عليّ وتنصيب معـــاوية .. حكم المسلمين .

أأن رصدت المحيشي في الوجود فلم تظفر بلقياه والأحشاء تضطرم
وقال ان غـــذاء الجسم اشغله عن المعاني .. غذاء الروح يا فهم
وما رأيت من الجربي سيئة ولا حضور جميع الصحب يلتزم
بل قام بالواجب المطلوب محتفلاً بالقوم لما دعاه الجود والكرم
رميت بالسوء حظاً أنت صاحبه وقمت معتذراً عنهم وقد ظلموا
بل قمت تمدحهم زوراً .. وتنشدهم (فما لجرح اذا أرضاكم ألم)
فيما اعتذارك عمن قال معترفاً (فيك الخصام وانت الخصم والحكم)
قد رشحوك لحكم لو أردت به وجه العدالة حقاً كنت تنتقم
ان كنت مستغنياً عما لشخصك من حق فان حقوق الشعر تحترم
اخوانك الشعراء البائسون رأوا فيما هضمت طعاماً ليس ينهضم

ينحى الشاعر نحـــو المحيشي ، فيداعبه دعاباته المعهودة ، والشاعر قريب للمحيشي وصهر ، وتربطهما صلة الأدب منذ صغرهما .

أمـــا المحيشي إذا لاقاك مبتسما (فلا تظنن أن الليث يبتسم)
(أعيذها نظرات منك صافيةً) ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم)
ان كنت تسالني عن جرمه فله ذنب وأقبح منه العذر والجرم
ان كان في سفر فيه الى خبر يقول فى السفر الأتعاب والألم
وانه وافد حق زيارته و (الشاي لله) وهو الركن يستلم
فليس من حق من عمت فضائله والشاهدان له القرطاس والقلم
(والخيل والليل والبيداء تعرفه) والهند والسند واليابان والعجم

ان يدعي سبب التقصير مادبة | فيها القطائف والبوريك واللقم
ويجحد الشكر للجربي .. مدعياً | بأنه وحـــده المسؤول عندكم
فكيف تصفح عن هذا وتمدحه | يا (بو الحصادي) هداك الله يا(علم)

نرى الشاعر رفيق كثير التمثل بأبي الطيب المتنبي فقوله الخيل والليـــل والبيداء تعرفه .. والهند والسند واليابان وإيران (العجم) .. ونراه يداعب المرحوم محمد عبد القادر الحصادي بقوله (يا بو الحصادي) .. وها هو مع الجربي يقول :

أما الأفندي (أبو سامي) ففعلته | (غبراء) طبقها الاظلام والقشم
ان كان أمثاله لا يرفعـون لكـم | قدراً فمن يا ترى للفضل يحترم
عهدي به لبق ان كنت أعرفه | وزاد قولـك بـالآ داب متسم
هذا دعاك لشرب الشاي متبعاً | عادات قوم لهـم في ودهم ذمـم
يا ليت شعري ماذا ضر مجلسهم | لو زاره شاعر في الناس محترم ؟
لا أدعي ان بخلاً كان يمنعهم | حاشا وكلا وهم في جودهم ديم
لكنهم لم يراعوا حق شاعرهم | ولا أهابت بهم للواجب الهمم
فليس قولك لاعتب على أحد | الا على الخط فانظر فيه يا حكم
مبرئاً لأبي الجربي من خطل | أتاه عمداً فدعنا منه ننتقم
كل الملام على الجربي أسعد إذ | جرم المحيشي بعض الشيء ينهضم

ويتوجه رفيق بشعره الى الأستاذ المرحوم محمد عبد القادر الحصادي، فيعاتبه على تظلمه من الحظ الذي يشترك فيه معه كشاعر فيقول :

اما جنابك يا أستاذ كدرني | حكم تبينت فيه الحظ يتهم

إذ لا جناح على من كان مثلك أو — من كان أعرج أو من شفه سقم
وان عزة نفس فيك قد عزفت — عن التطفل إذ لم (يعزموك) همو
وبان عذرك حــــق ليس ينكره — الا الكفور ومن وجـدانه عـدم
فكيف تشتم حظاً ثم تمدح من — اساء حتى تولى وهـو يـبتسم
ان كنت تذكر ان العفو أقـرب — للتقوى وأفضل ما تسمو به الشيم
وان عفوك نوع من عقوبتهم — والعفو اقتل للاحرار لو علموا
فانني لا أرى إلا العقاب ولا — أرضى بحكم (قراقوش) كما زعموا
قد صح للشعراء الانتصار بقـو — ل الله و(انتصروا من بعدما ظلموا)

افصح رفيق عما حدث وحاول التنصل والعتاب فما يا ترى النتيجة ؟

خلاصة القول إما أن تقر بما — حكمت ثم تقيم العدل ينتقم
ومن مخفف قانون الجزاء لهم — (السيف والرمح والقرطاس والقلم)
وخيزران غليظ ريحه عبق — في كف أروع في عرنينه شمم
ومذود لهدم .. لي لو علوت به — صخراً لطار شظايا حين احتدم
أو تدعي لهما عذراً وتعرض عن — حكمي وحينئذ (فالشارف) الحكم
هو الأمير الذي قال الجميع له — بالفرد تفتخر البلدان والأمم
إذا قضى بعقاب أو بترضية — فحكمه نافـذ والقول منحسم
هذا وجوهر دعوانا أوضحه — في جملة باختصار القول نختتم
انا نحاول تأديباً لغيرهما — وحرمة لذوي الآداب نلتزم

٢٧

حـــكم الشارف

حصل احمد الشارف شاعر ليبيا الكبير .. على نسختين من القصيدتـــين اللتين تساجل فيها رفيق والحصادي .. واعترفا له فيهما بأنه أمير شعراء ليبيا.. وهو رحمه الله شاعر مغلف دسم عميق المعرفة قوي الحجة ضليع باللغـة ملهم إلهاماً منسقاً منظماً .. لا يقول الشعر بغزارة ولكنه إذا قـــال أحسن السبك واجاد القول .. ونمق القافية وأبدع المصاريع واشجى الناس وعبر بإجـادة واستفاضة عن جميع أطراف الموضوع .. فماذا قال وكيف حكم ولمن ؟اصدرت محكمة الاستئناف الأدبية بطرابلس الحكم التالي :

لقد نشرنا بساط البحث في درر ولم تكن درراً لكنها كلم
قضية عظمت فيها مشقتنا (لولا المشقة ساد الناس كلهم)

الوقائع ..

كان المحيشي قد وافى على قـدر (درنا) وقد كان فيها الشاعر الفهم
وقد تولى (ابو سامي) ضيافته وليس بينهما إلا الوفا رحم
وفي مكان سوي كان منزله نعم المكان ونعم المنزل الضخم
حتى إذاحان وقت الأكل قد حضرت تلك (القطائف والبوريك واللقم)
والشاي قد دار بالكاسات دورته بين السماطين منهل ومنسجم

وهكذا كل من يرضى احبته ... يقيم حفلة تكريم اذا قدموا
فلام من لام في اغفال شاعرهم ... ولم يكن لهمو عذر كما زعموا
ما كان ضرهم لو زار مجلسهم ... لو زار مجلسهم ما كان ضرهم
ولم يكن بالفقيه القح ذا ثقل ... كأنه علم من فوقه علم
ولا يرى الفضل الا في عمامته ... وتحت الفاظه الجوفاء ما يصم
يقول يعني كذا.. وهكذا ذكروا ... وفي كتاب خليل جاء نصهموا
وان تجل يده يوماً بمادبة ... ليفعلن بها ما يفهم النهم
وان شاعرهم فيما يخيل لي ... باللطف متصف بالظرف متسم
ولم يكن بالقديم الصرف مشربه ... ان الشبيبة من اعدائها القدم
فكان ما كان من هرج ومن مرج ... ومن محاولة زلت بها القدم
اما المحيشي احال الامر للشعراء ... ان يحكموا فهو مسئول بما حكموا
وبرأ الشاعر المسكين ساحتهم ... وبات في لجج الاهواء يقتحم
يقول لا عتب في رأيي على احد ... الا على الحظ فانظر فيه يا فهم
و (المهدوي) ابى الا معاقبة ... كي لا يعود ولا يسري لغيرهم
وجاء ينشر من آرائه حججا ... تجل ذيل فخار وهي تبتسم
سود ذوائبها بيض ترائبها ... ورم مرافقها في خلفها عمم
كالشمس في وضح والصبح في بلج ... لم يغش نورها غيم ولا قتم

يا لله .. ما ارضى شعر الشارف وارقه وافعله في النفس .. ان الحقيقة التي اعترف بها الشاعران رفيق والحصادي لشاعر ليبيا الكبير الشارف لتدل بوضوح على انهما ملتصقان بالشاعر عارفان بقوته ، متأكدان ان من الهامه وقوة باعه

وطول معرفته .. انني اعجب من نفسي حين اقرا لأحمد الشارف فلا اعلم إلا انه شاعر ليبيا ولا ادرك الا ان رفيق والحصادي نصباه اميراً للشعر .. .. وكم انا في شك من نفسي لغمطها حق الشارف ذلك اني لم ادرس ديوانه ولم اعرف عن شعره إلا بمقدار معرفتي الشخصية بما قرأته له . وقد قرأت له القليل النادر بينما اتخيل هذا (الشاعر الفحل وهو يصول ويجول في ميدان الشعر .. حقيقة ان الاستعمار الايطالي ابعد بيننا وبين فحول شعرائنا ولم يقرب ما بيننا الا الأدب، وفي الاعوام الأخيرة ذلك ان احمد الشارف كان في حلبة مغلقة بفعل ذلك الزمن الذي كان يقيد الأحرار ويحول دون تقدم الفكر ويحجز بين التلامذة والاساتذة.. ان استاذاً كبيراً مثل الشارف على مقدرته الأدبية العلمية..وعلى الهامه الواسع.. لا يعرفه الكثيرون من المواطنين .. ان طبقة المفكرين في بلادنا عرفوا رفيقاً، ودرسوا لرفيق أكثر مما عرفوا عن أي شاعر ليبي آخر .. وهذا عجز وبعد عن واقع بلادنا وضرورة معرفتنا بتراثنا وادبنا وقفزتنا . وانا احد الناس الذين عرفوا احمد الشارف من خلال رفيق لو ما قرأت للشارف اخيراً بعض اشعاره فحكمت بما حكم به رفيق على هذا الشاعر الفحل .. ولا اذهب بعيداً بالتعليق والدراسة فان حكم الشارف في رده على الشاعرين الحصادي ورفيق خليق بأن يلهمنا محجة الواقع الذي سيضع ايدينا على كل بيت من أبيات قصيدته معترفين له بأنه سيد شعراء ليبيا اطلاقاً .. دون تحيز او تضخيم .

أرى لحكمك يا استاذ (فذلكة) — فيها على الحظ جار الحكم والحكم

يا هل ترى حيث لم يضممك مجلسهم — من سوء حظك أم من سوء حظهم

وهل لحظك دخل في قضيتنا ؟ — مهما جرى الأمر طوعاً باختيارهم

العذر بالحظ لم يرفع مواخـذة — ما لم يكن خارجاً عن حد وسعهم

لو صح رأيك لم يؤخذ قصاص ولم — يطلب خلاص فلا حكم ولا حكم

وهــــذه منك يا استاذ نادرة ... بمثلهــــا تضرب الأمثال والحكم
ألم تكن للفتى (الجربي) هيمنة ... وفي يديه زمام الأمر مستلم
وحجة (البيك) اضحت غير ناهضة ... لانهــــا من قبيل الدفع يا فهم
وحيث ليس لهم عــــذر يبرئهم ... لم يظلم الحظ كلا بل همو ظلموا
هل وخزتهما يومــــاً بقافية ... وخزاً يقوم بها القرطاس والقلم
أما ترى الشعر لا يرضى لصاحبه ... بان يهان ولا ترعى لهم ذمم
وقيمة الشعر قدماً كان يعرفها ... (قوم هم الأنف والأذناب غيرهم)
رمى (نمير) بسهم غير طائشة ... حتى أصيب بجرج ليس يلتئم
والشعر كالنحل يجني كل فاكهة ... لكن اذا هاج فيه السم والدسم
والعود والفج والطنبور يعرفه ... والقصر والمد والترجيع والنغم

الاستاذ علي الجربي كان في الزمن الايطالي ذا مركز بين مواطنيه .. يمثل درنه كمستشار لأيطاليا .. وهو بالرغم من كونه موظفاً الا انه كان ذا فائدة لبلاده ومصلحة لأبناء وطنه .. ولهـــذا قصد الشارف قوله كان للفتى الجربي هيمنة .. وقد قصد بعبارة (البيك) عمر فخري المحيشي الذي كان يطلق عليه لقب (البي) في بنغازي ، وهو اشهر شخصية بالمدينــة وله باع في الوطنية كما ذكرنا ..

وما اعظم وادسم ابيات الشارف هذه الاخيرة حين وصف حجـــج رفيق وهي قادمة تجرر ذيــــل الفخار .. مبتسمة سوداء الذوائب وهي الشعر بيضاء الترائب .. والترائب ليست جمع تراب ، لكنها جمع لترباء وهي الهام ذلك ان جمع الترب اتراب .. وقوله ورم مرافقها .. فذلك اشارة الى قول الشاعر القديم :

هركولة فنق ورم مرافقها   كان اخمصها بالشوك منتعل

وقد وصف الشارف حجج رفيـــق بأنها كالشمس في وضوحها وكالصبح في ابتلاجه لم يتغير نورهما بغيم ولا قتم أي ولا غشاوة او ظلماء .

وها هو الشارف يؤيد رفيقا الذي ثار على من اهان الشاعر .. في قوله :

أما ترى الشعر لا يرضى لصاحبه   بان يهـــان ولا ترعى له ذمم

ومن هنا نرى الشاعر الكبير احمد الشارف وهو المحترف للشعر في عصره الجديد عصر الاستعانة بالشعر في التغلب على الاشياء .. بعـــد ان كان الشعر للاطراء والمـدح والتسول او الكسب .. والبيت الذي اشار فيه الشارف الى قوله ..

قيمة الشعر قدماً كان يعرفها   قوم هم الأنف والأذناب غيرهم

هو من قصيدة للخطيئة مطلعها :

سيري أمامفانالأكثرين حصى   والأكرمين اذا ما ينسبون ابا

وقوله :

(رمى نميراً بسهم غير طائشة   حتىاصيب بجرح ليس يلتئم)

يشير الى قصيدة جرير التي هجا بها الراعي لمناصرته الفرزدق .

اقلي اللوم عاذل والعتابا   وقوليان اصبت لقد أصابا

فغض الطرف انك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ويقصد شاعرنا العظيم الشارف ان سهمالشاعر يصيب صاحبـــه بأصابات لا تلتئم .. وارى ان هذا منقبيل التهديد بالشعر والتحريض على نوعالهجاء منه .. وهو بالنسبة للحياة الجديدة معيب ، ويكون من قبيل التشهير أو التهديـــد

بالقول وهو سب وتجريح لا يتناسب مع العقل الجديد . والذي قد يخشاه انما يعدل عن الرد لأنه لا يجد سبيلا الى تنميق عبارات التجريح .. ولا بد ان يخشى الانسان قول الشعراء وهجومهم لتأثير فيه ..

جراحات السنان لهـا التئام ولا يلتـام ما جرح اللسان

ومن هنا استطيـع تبرير قول الشارف ..

حتى اصيب بجرح ليس يلتئم

ولكنه ممجوج لا يتمشى وروح العصر .

وعند هذا المهبط من السماجة في القصد .. وليس عيبه على الشارف ذلك‌ان الشارف ذكر الحقيقة من مؤدى اغراض الشعر .. ولكن العيب فيـــه على من يتخذ الشعر سلاحاً للهجاء .. نصغي قليـــلا لحكم الشاعر في القضية التي رفعها الشاعران الحصادي ورفيق في مساجلتهما :

ان(المحيشي والجربي) في نظري كلاهما بارتكاب الجرم متهم
فان هما اعتذرا لم يجد عذرهما نفعاً وان ندما لا ينفع النـدم
خير من العفو عندي ان تعاقبهم شر العقاب ولكن دون قتلهم
الا اذا اظهروا اعــــلان توبتهم فوق الصحيفة بالامضاء مختتم
وقد ضربنا الى اعلانهم اجلاً من قبل ان‌تنقضي الأشهر الحرم
وان تكرر فيما بعد جرمهمو عمداً يهد عليهم سيلنا العرم
وللقوافي اذا هاجت بلابلها يوم الكريهة جيش ليس ينهزم

اتينا على قصيدة احمد الشارف‌وفسرنا بعض ابياتها لنترك للقراء فرصة للحكم دون تردد على اي القصائد الثلاثة ارجح كفة واقوى كلمة واروع كفاية ، واوقع تأثير واسلس تعبيراً وانفذ الى رغبة القارىء؟اما عقيدتي فأنها لا تتلكأ لا تنتظر

في حكمها على قصيدة احمد الشارف معبرة قوية دامغة على مستوى كبير من المكانة..
واني استطيع دون تردد ان احكم على عبقرية احمد الشارف بأنها لا تقل عن مستوى
حافظ وشوقي والزهاوي ومطران .. أما شاعرنا الذي نحن بصدد نقد ديوانه
حرفياً وبجملة قصائده فانه لا شك اجاد في قصيدته ، ولو انه يبدو لي وهو ليس
على المستوى العالي الرفيع فيما يتعلق بالمساجلات .. ومن هنا يمكننا القول بان
رفيق يتميز بنواحي شعرية يكاد يبذلها كبار الشعراء في الشرق بينما في اخرى
فهو قائل ومعبر وشاعر وكفى .. وهذا كله راجع الى ان رفيق شاعر وجدان
وعشرة ووطنيات وغزل .

***

٢٨

شـــاعر الوطن الكبير

ليس من الانصاف في شيء وليس من الفضيلة بهدب أو ليس من الحـــق بنصيب ، اذا عبنا الواقـع الذي عاشه رفيـــق ، واستهجنا الطريقة التي يسلكها شاعرنا .. او استنكفنا علـــيه مزاجاً خاصاً به .. فالشاعر ، وكل شاعر ... بله بالفذ العبقري الذي من مستلزمات عبقريتـــه الشذود ولو في الحركة .. يميل دائماً الى سبوحه في دنيـا الخيال .. فهو العاشق المولّه وليس له حبيب معين .. وهـــو المجنون وليس له ليلى .. وهو واصف الريم وليست له ريم .. والشاعر يتخيل كل شيء حادثاً له .. ويصف الواناً من ضروب الوقائع التي لم تعترضه .. ويتألم دون ألم ويفرح بلا مفرح .. ومن هنا كان الشاعر صديقاً خليلاً لشيطان مـــا .. فعندما يتصدى أديب لنقـــد شعر رفيق بما لا يتلاءم والاشهاد على عبقريته . وعندما يحاول ناقد ما .. لنقد شعر رفيق دون ان يعيش حياته في عصره كله .. أي ان يرجع بعمره الى عمر رفيق وبسلوكه الى سلوك رفيق وبعزته الى عزة رفيـــق .. ويحرك الشريط الزمني فيرى حوافر بغال (المصوع) تنتشب بالارض فتحدث ثقوبـــاً في تلك الأزقة والشوارع الموحلة والتي لم تعبـــد آنذاك .. ويلتفت وراءه فيشاهـد دينيك البوليسيين (الكرانبيري) يميلان على بعضهما في مشية رتيبة منسقة هادئة جبارة يتوشحان

ذلك الجلد الأسود الرقيق جهة الصدر والظهر .. عند اعلى الصدر جيب صغير وتحت الخصر جيب اكبر كلاهما يحمل عنوان القوة واسمها .. وعند اعلى الخصر وفوق جهة الردف الايسر يضيء سيف وهاج كأنه قطعة من ماس وفوق البرنيطة تظهر علامة حمراء ناتئة توحي بالاخافة والسيطرة يرتديان حذائيهما الطويلين الى الركبة ويفصل الكعبين من الحذاء قطع مستديرة على قدم الرجل وقاعها من .. البرنز والنحاس الابيض .. ويعمل البوليسان في ارهاب الاهالي حتى ان المواطن لا يطيق الكلام بين اكامه .. بل ليبلـــغ بمن لهم أهل في (الأدوار) كتائــب المجاهدين .. ان يكتموا انفاسهم خوفاً من تسلط عيون الحراسة عليهم .. او نظرة البوليس لهم ..

فليرجع الناقد ان كان معاصراً الى ايام الاحتــلال .. اما اذا كان لم يعاصر تلك الأونة وهو الان ناقد وكفى لأنه يجيد سبك الجملة . وقد اتيحت له فرصة التعليم ليتعلم ويكون ناقداً .. فعليه ان يعطي الأدب حقه وهو النزول او الصعود الى الشيء .. فمثلاً الكاتب الذي يكتب للناس .. وأهم الناس القطاع الشعبي فعلا من الناحية الاعم فائدة لا بد للكاتب من ان يجهد نفسه في اختيار الاسلوب الذي ينزل به الى مستوى القــارىء العادي ، فاذا تراقصت امام ذهنه عبارة اشرأب .. استغنى عنها بعبارتين همـــا مد عنقه وهذا افضل للعموم او للتعميم وهي من قبيل ان الذي يرد البحر ليستحم لا بد وان يخلـع ثيابه . فهناك الى وسط الماء يتساوى العظيم والحقير المتعلم والجاهل الغني والفقير .. ولكن شيئاً واحداً هو الذي يظهر .. ذلـــك الشيء هو الجمال او الدمامــــة .. الصغر او الشيخوخة .. النحافة او البدانة .. ثم الجنس .. رجـــل أو امرأة .. من هنا تنشأ النظرية ويتكون في رأيي السؤال .. أمن الخير ان نهدم أو نبني ؟؟ سيما اذا كان ما نريد هدمه ليس لدينا ما يعوضنا فيه؟؟ ومن هنا يظهر لنا جلياً ان يتأكد الفرد منا من نفسه وكونه له من الامكانيات اللفظية وحسن السبك ما يقنع به الاخرين .. لا يكفي لان يسبغ عليه شرف صيرورته كاتباً أو أديباً ... ومن ثم فان التهجم على شعر رفيق وسمو رفيق ونبوغ رفيق ان هو إلا دافع اقليمية سخيفة

جاءت به نفس معقدة شريرة تتبلور واضحة مصورة أو منحوتة في وجه صاحبها.. فالى من يشين ملامح شعر رفيق اقول ان الصورة التي يراها مشوهة ليست صورة رفيق .. ولكن أثر رفيق مرآة خالدة تحلي كل الصور ، فاذا بدا امامها الجميل يرى نفسه جميلا ، وان بـــدا امامها الذميم رأى ذمامة خلقته ووجهه .. والى المتهجم أو الناكر لحقيقة شعر رفيق اهدي هذا النموذج الحي من قصيدة يا (نور البدر) وقد وردت في ديوانه تحت عنوان (لا ابصر غير محاسنه) .. ونور البدر اسم تخيله الشاعر وكان الشاعر معروفاً بين مواطنيه بأسم (السيد) وألف أصحابه عنه كلمات مشهورة .. فعصاه اسمها مسعودة وتصبره على الشدائد اصطبار .. وكان رحمه الله يقول : اصطبر ..

وشرحا لما تقدم وايفاءا للموضوع أعد بنشر قصيدة لرفيق هي الان تحت أيدي بعض اصدقائه ولا أدري من من الثلاثة ..السيد عبد الكريم لياس أو الحاج عقيله بالعون أو الاستاذ محمود مخلوف المحامي.. وهؤلاء الثلاثة من خيرة اصدقاء المرحوم رفيق وهم من الطبقة التي كان لها باع في الوطنية ودفع رفيق الى كثير من قوله... وما زلت انتظر وعد احدهم بتمكيني من الحصول على القصيدة التي لم تنشر بديوانه .

يا (نور البدر) وانت أخي	قل لي.. مارأيك في قمري
شاهدت بعينك طلعتـــه	من بعد سماعك بالخـــبر
قل لي ! ارأيت كصورته	فيما شاهدت من الصور ؟
ان كنت سواه ترى .. فانا	غطى والله على بصري
لا أبصر غير محاسنه	جاءت لهـواي على قدر
العيب و (ليس به عيب)	من أحسن شيء في نظري
قالوا قد جن به ومشى	في أقبــح ماثور السير
ما الحيلة فيمن ليس يرى	في الحب سوى نيل الوطر ؟

والله وحقك لا أمـل لي في المحبوب سوى النظر
وقنعت بذاك فما تركوا بث الارصـاد على أثري
أرأيت ونحن جميعاً في (جليانة) في وقت السحر
كيف اخترعوا ما نغصني واحالوا الصفو الى كدر ؟
وحسدوني حتى رؤيته وأنا اتزود للسفر
لا انسى ذاك ولا انسى معروفك في .. مدى عمري
ما اجمل تلك الليلة إذ كنـا يا (نور) مـع القمر
سكنت حشاشة مضطرب يقضي الأيام على خطـر
يا (نور البـدر) ألم يك لي عذر .. ان ضقت من الضجر
أيعاتبني الاخوان لذا ك واني ليست من الحجر؟
ألهم حق في قولهم يا روح(السيد)اصطبري؟؟

نرى الشاعر في قوله : وأنا اتزود للسفر .. يريد ان يشير الى كونـــه على أهبة السفر .. ويبدو لي ان رفاق الشاعر عندما علموا بأنه طلب اليه مغادرة البلاد .. اولموا له واكثروا من السهرات معه سيما في جليانه التي يحمل لها الشاعر ذكريات حبيبة .. وهذا دليل قائم على مدي تحمل الجيل وقوته في المجابهة .. الآونة مخيفة .. وشاعر مغضوب عليه مطرود .. واصدقاء لم يفارقوه ولو تحت ظروف تهدد مصائرهم .. فلو كان مـــا جرى لرفيق ولأصدقائه يجري لمعاصر اليوم لتخلى عنه الاصدقاء ، وهربوا من وجوده .. وتنكروا له .. امـــا جيل رفيق واصدقاء رفيق .. فانهم صبروا معه واصطبروا للسيد الشاعر وتحملوا (شلط) مسعودته وها هم يداعبونه فيلومونه عن حبيبه الذي يتمنى حتى رؤيته فتجسده اصحابه اياها .. وها هو الشاعر الحساس الذي يحيـــا لا لبدنه ولكن لوجدانه .. يؤكد قوله انه لا أمل له في المحبوب سوى النظر والرؤية .. ويعاقب

صحبه على جسدهم اياه الرؤية والنظر في محبوبه .. هـــذا رفيق في عام ١٩٣٨ وهو يتهيء للغربة والنزوح واصحابه يودعونه في حفلات، ويداعبونه في سهرات ويحولون بينه وبين حبيبه الذي يتخيله في صورة ما مرت امام ناظريه .. فلنلتق معه في غربته ثم في ايامه .. وهو الشاعر الذي تخضرم وجرب وتغرب وعاد .. ذاق المرارة والحلو .. وبلى حياة الرجال .. لتخلق منه شاعر الوطن الكبير.

❁

٢٩

رفيقيات . . .

سيغادر وطنه عندليب عاش على افياء كرومه صداحاً شادياً مترنماً يطرب ويشجن ويلهم ويحنب يكسر ويجبر.. يمزح ويغضب .. يرتاح ويتعب وهو فوق هذا كله .. لا يستطيع فراق الوطن .. سيغادر ارضه الحبيبة ابن بار عاش على اديمها حياته وترسم ازقتها و (حيشانها) وميادينها .. وتنسم عبيرها وهواءها فهو لا يحيا بدونها .. ها هو الشاعر الكبير يتصور الدنيا بحياتها كما يراهـــا في مسرحية تمثل على مسرح ..يكتظ بالجماهير ثم يسدل الستار على آخر فصولها فاذا المسرح خالياً واذا الاشخاص متشبهين قاموا بالدور الذي رسم .

المرء في هذي الحياة مشاهد ... وممثل لم يعد ذلك حالا
اعمالنا فصل نمثله ومـا ... خلف الستارة يشبه استقبالا
الكون مسرحنا ونحن رواية ... مقصدونا ذات الاله تعالى

لنتصور رفيق الوطني والمتغزل والمتصوف يأتي بهذه الابيات ليرسم مشهد تمثيلية شاهدها .. هل كان رفيق بائساً ؟؟ هل كان رفيق يلحظ آنئذ ظرفــاً معيناً يجعله يتحول عن شذوه وترنمه بالجمال ؟ هل يريد رفيق ان لا يكون احد

الابطال او (الكورس) الذين تشملهم المسرحية ؟ هل هو مشاهد سيتوب مع الايبين بعد انتهاء دوره ؟ .. ان رفيق يقول نظمه في وصف المسرحية ، لأنه سيغادر غرفة الاكسجين التي يرتشف منها أنفاسه الى غرفة أخرى لا يدري ما اذا كانت خانقة ام منعشة .. وهـا هو ما بين قصيدتيه (التمثيل والممثلون) و (وطني وحبيبي) يعرب عما يحس به .. ويبث لواعجه للتاريخ .

انظر فقد ضربوا لك الامثالا — لكنهم جعلوا الحديث فعالا

عرضوا عليك من العظات مشاهدا

هن الحقائق قد لبسن خيالا

واذا تسترت الحقيقة فاكتست — ثوب المجاز تزيد فيه جمالا

قد نبلغ الآمال من نفس امرىء — ما ليس يبلغه الصريح مقالا

والعين مدركة .. فرب اشارة — كالوحي ابلغ من كلام .. طالا

جعلوا من التاريخ اصدق شاهد — فكانما نشروا به .. الاجيالا

وتخيروا من احسن الاخلاق ما — زان الملوك وميز الابطالا

فانظر الى فعل الجميل محببا — قد يبنوه لمن يريد كمالا

والشر ممقوتاً ترى آثاره — عادت على أهل الشرور نكالا

وتأمل الحب الشريف يزيده — حفظ العهود مع الوفاء جلالا

قد عاد يرسم للحياة جدالا

اكرم بفن يجعل المعقول في — حيز العيان مجسماً اشكالا

للعلم والاخلاق خير وسيلة — لو أحسن المتصرف استعمالا

ينجي من الغم النفوس مهذبا — ويزيد (افرند[1]) العقول صقالا

اني أرى التمثيل من غاياته — نشر الثقافة لو رأى أقبالا
فانظر الى المغزى ودع مادونه — لا تشغلن بغير ذلك بالا
خذ مايرادمن الروايةواطرحن — من لهوها ما يضحك الجهالا
ولغاية ما كان منها مضحكاً — كي لا تضيق به النفوس ملالا
ان صح ما قيل الحياة رواية — خذ للحياة من الحياة مثالا
لا تنظرن الى الممثل هازئاً — جل الممثل ان يكون مذالا
كل امرىء ما عاش فهو ممثل — لرواية ادوارها .. تتوالى
المرء في هذه الحياة مشاهد — وممثل لم يعد ذلك جالا
اعمالنا فصل نمثله وما — خلف الستارة يشبه استقبالا
الكون مسرحنا ونحن رواية — مقصودنا ذات الآله تعالى

ثم بعد هذه الصورة التي يراها شاعرنا .. ينزح عن الوطن ويعيش ايامه في بلاد وان كانت تربطه بها اصالة قديمة إلا انه لم يعش فيها ولا يعرف اهلها وينسى في ربوعها اصحاب (جليانة) لا بوكر ولا الماقني ولا مخلوف ولا المجريسي ولا فلاق ولا بالعون ولا لياس ولا الصلابي ولا الفلاح ولا القلال ولا الزياني ولا احد من هؤلاء .. انهم جميعاً في غير وسطه الجديد وانهم جميعاً في الوطن الذي يحبه ويعشقه وبه ذكريات صباه انهم في الوطن الذي طرده المغتصب منه اجلاه عنه وامره بمغادرته باكياً مشفقاً .. وهـا هو في غربته يخشى ان ينساه اصحابه واحبابه مع طول الزمن.. فهو يذكرهم به، ويصف غربته ويلوم نفسه لرضوخه وعمله بأمر من طرده ..

ولرفيق ومع الرفيق الحق في هذا الحنين فقد قال الشاعر قبله :

وارحمتا بالغريب في البلد الوعر — ماذا بنفسه صنعا

فارق احبـــابه فما انتفعوا بالعيش من بعـــده انتفعا

ها هو رفيق يبكي وطنه وذويه ويندب حظه ويستذكر ايامه ببلاده .. ويرسل دموعه الساخنة من الارض البعيدة الى آفاق (جليانة) .. والى مسامع احبابه ورفاقه .

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمعيب
عجباً لي ولتركي وطناً فيه حبيبي
وطنا فيه أناس .. وبه مسقط رأسي
لست ما عشت بناس ..
لذة العيش الخصيب

بين اهـــل وقريب .. وصديق وحبيب
عجبا لي يا بلادي .. كيف ضيعت رشادي
لم اوفق في اجتهادي .. فارقت حماك
وتوطنت سواك .. بان لي قدر الغريب
لم اكن يوم خروجي من بلاد بمعيب
عجبا لي ولتركي .. وطناً فيه حبيبي
ان من عاش غريبا .. عاش لا شك كئيبا
واذا كان اديبـا .. عـاش مجهولا مضاعا
ينفق العمر التياعا .. بين حزن ونحيب
لم اكن يوم خروجي من بلادي بمعيب

عجبا لي ولتركي وطنا فيه حبيبي

لم تزدني ذكرياتي .. غير سح العبرات

يا لهـول الحسرات .. حين آوى لفراشي

تلهب الاشواق جاشي .. كفراشي في لهيب

لم اكن يوم خروجي من بلادي بمعيب

عجبا لي ولتركي وطنا فيه حبيبي

ترى يذكر ودي .. ام سلا حبي لبعدي

ورأى في النـاس بعدي .. من له مثل ولوعي

في هواه وخضوعي .. ووفـائي لحبيبي

لم اكن يوم خروجي من بلادي بمعيب

عجباً لي ولتركي وطناً فيه حبيبي

ألم يصور رفيق منتهى الحسيات الرقيقة الدافقة بالحب والحياة .. المعبرة عن الوفاء .. الصادقة بالشعور .. انني لم اصل حتى الان الى معرفـة ما اذا كان شاعراً يحب قبل نفيه أم كان قوله خيالاً .

ويبتدىء الشاعر في تحوله منذ فراقة وطنه .. فها هو يصف نفسه .. يصف حياة الشاعر .. بأنها كالنحلة عندما تطير عابثة بالاوراد في مختلـف الرياض والبساتين .. ان رفيق يحترق في قصيدته هذه التي ينتقل فيها من مكان الى مكان كالنحلة .. ان الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر مضطربة مفككة يائسة تـكاد تبرز الشخصية واضحة في اوانها وساعتها .. وهي لا شك نموذج صادق يصور لنا عهد شاعرنا ابان تلك الأزمة المحكمة التي أدت بشاعرنا الى ترك وطنه .

كالنحلة في الروضة تعبث بالنوار
لا يفتأ حيران كثير الجـــولان
يقتحم الاشواق الى زهر البستان
لا يبلغ ما يمكث مقدار الطيران
ان رفرف كالواقف او حوم او طار
كالنحلة في الروضة تبعث بالنوار
لا يقنع بالورد ولا زهر النسرين
فيميل مع السرو الى شجر المرسين
كالظامىء يلتهف واظمأ المسكين
لم يرو صدى الغلة من نطف الازهار
كالنحلة في الروضة تعبث بالازهار
مـا لاح له زهر الا وتمنـــاه
كم صادف ما يحذر من خادع مرآه
ما آب عن الغيي ولا تاب له الله
ولهان على الحسن فلا يهدأ لقرار
كالنحلة في الروضة تعبث بالنوار
يتأثر كالزيبـق احساساً فـيراع
فيطير الى الحسن فتمسكه الاضلاع
لا يفتأ يلتذ بمختلف الاوجاع
قل واها .. للشاعر من واه محيار
كالنحلة في الروضة تعبث بالنوار

ختمت الحلقة هاته بالقصيدة الثانية لأعطي صورة للوعي في ذاته وحتى يحكم بالظاهرة الغريبة التي تبرز لنا كوامن السر من نحيب رفيق وبكائه لتركه وطنه.. ولعلني منصف اذا ابحت لنفسي ان اقول بأن رفيق في كبوته وصمته اراد ان يصف فارتج عليه واغلب لأمر الذي جعله في هذه القصيدة ناشئاً .. لا يجيد التعبير ولم يحسن القول .. وليست كل قصيدة ما يشوق للاستماع .

(افرند) مكمن السيف او مضربه .. وصقالا .. بمعنى جلواً وسناً .

*

٣٠

رفيق ودانو نزيو

ولكن شاعر الوطن الكبير كرواد الفضاء في اقدامه، فهو لا يبالي ما ركب الصعاب ولا يتأثر بالاحداث ولا يطأطىء للملمات ولا تخدش من عبقريته مظالم الأمور .. فهو في قصيدته كالنحلة قال وهو يصارع امواج يم الاخطار .. في لهفة على وطنه وفي ضراعات اخيرة لقلبه أن يصطبر كما عبر ولكن المفردات تخونه والاعجاز يلطم انتاجه ، فكلما حاول وصف الشاعر ابعدته لواعجه الدفينة عن الاجادة .. فهو يريد ان يقول .. والالهام الذي يخلق المعجزة ينأى امامه فيتابعه دون جدوى ويحلبه فلا يقبض.. ولكنه قال .. وما استلهمه في قوله عن الشاعر وفي وصفه .. كأن قبضة على الهـام سرى من بين اصابعه وسال دون السبك فكان وأصبح من شعره واجادته فيه .. كما أصبح محب ليلى الذي قال :

واصبحت من ليلى الغداة كقابض   على المـــاء خانته فروج الاصابع

وهكذا كان رفيق غير موفق في قصيدته (قلب الشاعر والجمال) .. ولكن شاعر الوطن الفذ رفيق ورائد القافية العربية يتغلب متى شاء على القافية فاذا (خانته مرة فأنهـــا ستنقاد حتماً طوع مشاعره وارادته .. وها هو يصور الشاعر..يصور جبرييلي دانو نزيو الشاعر الايطالي المشهور الذي ولد عام١٨٦٣م

وتوفي عام ١٩٣٨ ، وهو من مشاهير النهضة الاوروبية وبطل من ابطال الحريات في العصر الحديث .. كما قرن شاعرنا البطل الشاعر الايطالي بالشاعر كاردوتشي الذي ولد عام ١٨٣٦ وتوفي عام ١٩٠٧ ، وباسمـــه اسمى الايطاليون المدرسة الحالية مدرسة الأمير بمدرسة كاردوتشي الثانوية .. والحق رفيق بقصيدته مآثر وانني اليجيري وهو الشاعر الكبير وصاحب المسرحية الإلهية .. ورائد الشعر في اوروبا الحديثة وكان اول من كتب باللغة الايطاليـــة الحديثة كتابه الخالد الأثر الكوميديا الإلهيـــة .. ودانتي من مواليد ١٢٦٥ م وتوفي ١٣٢١ م كما ذكر رفيق حبيبة دانتي بياتريش .. وقد خلق رفيق وسما بشعره في قصيدته هاته التي رثا بها دانو نزيو .. وسبكها في شعر رقيق ابتسمت فيه القافية وزهت حرة خارجة عن سجن الخليل ورماله المحرقـــة . وجاءت ابداعاً في ابداع ولؤلؤة منثورة ستبقى الى الأبد على جيد الزمان ..

وقد جاء في ديوان رفيق التعليق الخفيف التالي تحت عنوان مناجاة ١٩٣٨ « ناجي روح دانو نزيو وقد خرجت من عالم الحدود الى العالم اللانهائي طالباً التنقل هنا وهناك وسؤال دانتي عن رأيه فيما قال والمتنبيء عن دعواه والمعري عن حيرته ثم طالب الارواح بأن تخـــبر شوقي والزهاوي ، وهما شاعر مصر وشاعر العراق بأننـا الى الآن لم نخلفهما وماركوني .. هل عنده تفكير في اختراع بالسماء ثم تساءل كيف كان الموت ؟ وهل فيه راحة ؟

رفرفي في عـالم إلا	رواح اصبحت طليقـة
في خيـال الشعر كم	حومت تبغين الحقيقة

***

كنت في سجـن من	الجسم الترابي اسيره
تشتشفين حجاب الـ	غيب من نور البصيره

كان ذاك الجسم يخفي نزوة الروح الكبيرة
فانجلى الآن حجاب الشك عن شمس الحقيقــة
فامرحي في عالم إلا رواح اصبحت طليقه
عـــاد كل منكما للاصل فالفاني لفان
للثري حــين سما الباقي الى اعلا مكان
فكأن لم يك مـــا بينكما غير ثوان
هي ميـــلاد وموت او لقاء وفراق
كنت في قيد من الجسم فاصبحت طليقه

***

حلقي ما شئت ما افسح اجـــواء السماء
بين مثوى شهداء الحب بين الحكماء
بين ارواح فحول الشعر بين العظـــماء
حيث لا حقـد ولا غل ولاثم نفـاق
رفرفي في ملكوت اللا ه اصبحت طليقـه
حلقي حتى تـلاقي روح (كاردوتشي) و (دانتي)
فاسألي صاحبه (الكو ميــديا) اين سكنت
هل وجدت الحال في الاخرى كما كنت ظننت

وشفى من حب (باتريش) ضم وعناق
أم هناك الحب آلام

.. وارواح مشوقة سائلي (دانتي) اما زال
على الرأي القديم ؟

في اناس عدهم من ضمن اصحاب الجحيم
هل اصاب الحكم أم ذلك تقدير العليم ؟
ليس في الاعمال من خير ومن شر دليل
يوجب الحكم على خاتمة قبل دقيقه

★

واسألي روح (ابي الطيب) عن دعوى النبوه
على على علم اتى بالجهل أم طيش الفتوه
أم اراد الحكم لكن لم يجد مالاً وقوه
فادعى ما كان من دعواه .. أم ذاك اختلاف ؟
بثه الحساد للفضل خلافاً للحقيقه

★

واسألي روح المعري عن قضايا حيرتها
بينت مقدار عجز العقل اسرار حوتها
فاطال الناس في تعليل آراء رأتها
فاسأليها رأيها في العقل .. هل يشفى غليلا
ام كما قيل احتياج العقل للوحي حقيقه
ليتني اعرف ماذا قال .. اذ لاقى اباه

اترى ! .. لم يعتذر من	قوله (هذا . . جناه) ؟
ام احـــال العذر في	ذاك على فرط تقـــاه ؟
غلبت عاطفـــة الر	حمة حتى عـــد ظلما
من بنـــي آدم ان	تذبح للطفـــل العقيقة
بلغي عنـــا اذا لا	قيت شوقي والزهاوي
اننا للان لم	نخلفهما .. غير دعاوي
يدعيهـــا شعراء	ما لهم في الدهر راوي
تدعـــى مصر وسو	ريا فتغتـــاض العراق
كدراويش الزوايا	فقدوا شيخ الطريقه
حيى (ماركوني) ويا	فرحته يوم اللقـــاء
وسليه هل له	فكر اختراع في السماء
اتـــراه زاد في	علم بسر الكهرباء ؟
من لنا بالعلم قد	والله اضنانا اشتياق
حبذا لو كان في	الامكان تبيان الحقيقة
ليت شعري كيف كان	الموت..هل في الموت راحة؟
هل كما قالوا برجم الـ	الغيب ام تلك وقاحة
من لنا بالعلم يجليـــه	يقين وصراحـــه
حبذا لو كان في	الامكان تبيان الحقيقه
كنـــت اولى من يجلـ	يها وقد صرت طليقه
في امـــان الله يا	ايتها الروح الكبيرة
في امان الله الـ	غفران في أحسن جيره

أتمنى لو أناجـ يك بأفكار خطيره
غير ان الناس ير مون بالحاد وكفر
كل حر الفكر ان الناس اعداء الحقيقة

لا اعتقد ان ناقداً واحداً يستطيع ان يعيب لوناً من الوان هذا الضرب من الشعر.. فقد اجاد رفيق وعبر واتى بالمضمون.. وقابل المعري بأبيه فخجل .. فالقصيدة عامرة قوية .

*

٣١

عندما يعشق الأديب ...

قيل في الروايات عاشق الذهب .. والنـــاس مذاهب وان كانوا من معدن واحد الا انهم يختلفون في طريقة الحياة . فرفيق لم يكن يوماً مادياً .. ولم يسع وراء المتاع الزائل بل كان كفافة خليقاً بأن يجعله دائماً بلبلاً شادياً بالحنان والجمال والمحبة . وها هو يعلن مذهبه :

فاقرأ من الشعر اي سطر ... فالحب يعني
فالحب معنى الحياة فيـــه ... سر الوجود
والشعر معنى الجمال فيه ... سر الخـلود

هكذا يتغنى رفيق بالحب والجمال .. وها هو يفصح عن الاغتراب وكيف انه لا يجد ذكرياته ولا الأهل الذين يحن اليهم وبالفهم .

غربة ثم كربة

بين قوم

لم توافق اخلاقهم اخلاقي

وها هو الشاعر العاشق يصور اجمل المفاهيم .. فهل سمعنا عن قتيل يعلن انه لا يطلب ثأره :

انا والله قتيل منك لا يطلب ثأره

لست في مجال المقارنة بين شعر رفيق وبين من سبقه من كبار الشعراء ولم اناقش ديوان رفيق لدراسة ما يجود به فكره الثاقب في الشعر ، ولكنني وضعت ديوان رفيق موضع النقد الأدبي لفحص جيده من عابره .. ولأقـــدم الى قراء ديوان رفيق مظهراً لم يتناوله الكتاب من حيث ايضاح المناسبات التي قال فيها، والظروف التي عاشها .. ولأعـبر مع القارىء الى قراءته قراءة فيها حـــكم صريح على المستوى الكبير الذي ناله رفيق حتى احتل الصدارة في بلادنا .. حياً وميتاً .

يا للمشوق الهزار غنى على الغصون
فهاج في الخاطر المعنى سحر الجفون
كان قيثاره .. ارنت لحناً شجيا
فهيجت انفساً اكنت واء خفيـا
وارحمتا للمحب يلقي من الجمـال
وجدا به لا يزال يشقى في كل حال
ان غرد الطير روعته ذكرى الفراق
اوفاحت الروضى ذكرته طيب العناق
فالزهر ما فاح حين باح بنشر طيب
وانمـــا باح حين فاح باسم الحبيب

مامنظر الزهر غيرشعر　　في وصف حسن

فاقرأ من الشعر أي سطر　　فالحب يعني

وما يحوم الفراش الا　　شوقاً لالف

فانظر الى الحب قد تجلى　　في أي وصف

في كل ما تبصر القلوب　　حب وشعر

وفي الذي تضمر الغيوب　　وعظ وذكر

فالحب معني الحياة فيه　　سر الوجود

والشعر معنى الجمال فيه　　سر الخلود

قد همت بالشعر والجمال　　فيا شقائي

من كان في حالة كحالي　　ففي عناء

جودة وسبك لين خفيف ظريف تكاد عباراته القصيدة المترادفة توحي الى الذهن انها جوقه موسيقية تشجى الآذان صامتة .. دون كلام .. أي تجديد.. خير من هذا النظم المتحرك الذي تقفز مصاريعه حرة دون عناء، فتحتل مكانها من النفوس دون ضيقة ولا ضجر .. وهكذا يريد رفيق ان يكون متحرراً من كل شيء يقيد باعه حتى من القوافي الطويلة رغم طلاوتها وموسيقاها ومعبراتها ..وها هي قصيدته التي ارسل بهامن جيجان حيث اقام في تركيا عند نفيه وابعاده عن بلاده .. يعبر فيها عما يلاقيه في غربته .. ويفصح عن حالته..

يا اخي هزني اليك اشتياقي　　فمتى يا اخي يكون التلاقي

لم تزل غصة بقلبي اني　　لم اودعك قبل يوم الفراق

كنت مثل الظمآن فقد المـاء　　وتمت وفاته باحتراق

علم الله انــــني ذقت نار ين لفقدي مواطني ورفاقي
ان تخلصت من هنالــك فا لآن (بجيحان) في أشد وفاق
غربـة ثم كربـة بـين قـــوم لم توافق اخلاقهم اخلاقي

أي حنين هذا .. وأي وفاء للوطن من الشاعر .. وأي تتوق واشتياق الى الرفاق والاحباب والذكريات !! لا يهمني من هو الصديق الذي ارسل اليه رفيق بهذه القصيدة وان كان يهمني ان اعرف محظوظاً ادخله رفيق التاريخ بالبوح له عن مكنوناته ولواعجه وما يلاقية في غربته .. انني لم اقرأ لشاعر اثاب اصدقاءه عما اكنوه له من محبة وحنين إليهم مثل شاعرنا الكبـير .. ورفيق الذي تراه في لحظات يبكي الديار ويحن الى الاحباب ويشتاق الى الذكريات ، ويتبرم بما عدا موطنه .. تراه يبتسم للاحداث ويضحك من المآسي .. ولا يتهدج حينذاك بكاء إلا لفراق الوطن .. فكيف لرفيق الذي عاش حياة الشاعر في بلاده بين خير رفاق .. وفي اصدق محبة .. ومع انبل اناس .. كيف له اذن ان يترك هذه الذكريات التي منها وصفه هذا وهو في لعبة (الطاولة) يرمي الزهر والدوبارة والشيش بيش والدوسه .. هي كلها مصطلحات للعبة المذكورة .. ها انا مع الشاعر العبقري اجوس خلال ملحمته هذه التي يصور فيها الحب اجمل تصوير ويسكب عليها طابعاً من التحمل في سبيل الهوى ويعبر فيها عن اسمى مستويات العاشق .

يلعب النرد حبيبي بنبوغ ومهـــاره
مـــا رمى بالزهر الا ورمى بالقلب ناره
قال (دوسه) قلت بوسه جد .. بها تطفي الحراره
يسلب العقل مع التد بير ان قال (دوباره)

سيف عينيه سيكفيـ   ـكهما الله غراره
لك يا محبوب في قلبـ   ـي من الحب شراره
انا والله قتيـــل   منك لا يطلب ثاره
يا عيون الريم يـــا   لحظ المهى يرعى صغاره
يا خديد الورد يـــا   ثغر الذي تحوي المحاره
يا نسيم الفـل والسو   سن يا طيب البهاره
يا مثال الحسن واللـ   ـطف وعنوان الشطاره
يا مليح القـد يا حلـ   ـو التثني في غضاره
له وجـــه يا حبيبي   رونق الحسن أناره
كلما كررت فيـــه   نظري زاد خضاره
انت يا روحي رقيق   الحسن تكفيك الاشاره
لم لا ترثي لصب   هتك الوجد ستاره ؟
خف منه العزم حتى   اذهب الشوق وقاره
قـد اسال العين مني   لك قلب كالحجاره
ما كفى يا حلو اني   فيك قد ذقت المراره
لي قلب كجناح الطـ   ـير حبيك استطاره
خافق انت له كالنبـ   ـض حرمت قراره
يا لقلبي من غزال   جعـل الصد شعاره
كلما حاولته زاد مـ   ـع التيـه ازوراره

كم توسلت بجـــاه وقرأت الاستخاره
ولكم اغريت بالمـــا ل فما مال (لباره)
كدت ان اياس لولا حسن صبري والجساره
راضه الشيطان فانقا د .. وانساه حذاره
سرني سراً بوعـــد زف لي فيه البشاره
كان يوم السبت يوماً حالف السعد نهاره
فيه لي نصر مبين فتح العاصي حصاره
فتواعدنا بجليا نة وقتاً للزياره
جاءني في ساعة أو رى لها القيظ اواره
سامه البحر عـذاباً فنضى عنـه ازاره
لاح عرياناً كما .. لاح هلال وسط داره
وارتدى ثوباً رقيقاً أحسن الذوق اختياره
ضيقاً يفصح نطقاً بلسان من أشاره
راح يشتد على رمل النقا .. يذري غباره
لاعيا .. طوراً .. وطوراً رشا .. ايدي نضاره
دخل البحر (عليه الحـ وت) قد خاض غماره
محسنا سبحا وغوصا تارة يطفو .. وتاره
لم يزل يلعب حتى سئم القلب انتظاره
ورأيت الشمس مالت لغروب كالشراره
تركت في الآفق لونـاً خالط الجو اصفراره

وترى الهيـــدب في لون من القوس استعاره
منظر يلهب في الش اعر عشقاً وحراره
مثلما يوحي الى العا شق شعراً وعباره
لنسيم البحر في الا نفاس انفاس العراره
ولقرص الشمس اذ صوب لليم انحداره
روعة فيها جــلال من جمال قـــد اثاره
خط فوق البحر نهراً عسجداً اجرى نضاره
يا له من منظر لو لم يغب يا للخساره
ساعـــة كانت من الدهر على الماضي اعتذاره
ثار في النفس الهوى والشعر فاخترت خياره
وحبيبي كان يسقيني ويدنيني جواره
يملأ الأقداح من راح بها بعـض المراره
جعـــة سوداء يعلو ها بياض في استداره
فهي كالعنـــبر والكا فور في الدر مـــداره
كلما ناولته . . كأ ساً . . اثني . . بسكاره
لم ازل اسقيـــه حتى مال بالرأس يساره
سلبته العقل لما كست الخد احمراره
ولجفينه . . فتور جبر اللحظ انكساره
يزدهي في قوله
لي . . (اصطبر) . . يبدي وقاره

فانتهزنا .. فرصة السـ ـكر .. وقبلنا عذاره
وجنينا من لذيذ الحـ ـب والوصل ثماره
هذه .. رؤيا وهل
في قصنا .. رؤيا .. ومهاره ؟

اننا نجد بعض المضامين داخل اطار القصيدة والذي نعتقده هو ان الشاعر كان يحب فتخيل الواقعة تخيلا .. ولم يفعلها .. بدليل قوله هذه رؤيا ..

**

٣٢

هل الحب يفجر الالهام ؟؟

عجبت كثيراً للشاعر الذي انشد في الحب معظم قصائده ومات ولم يعرف أحد من هي الفتاة التي اخذت بمجامع قلب شاعر الوطن الحساس الملهم !! فحين اتناول شعر رفيق اجده الفتى الذي اصاب في وصف اللوعة وتغنى بالجمال ووصف الحب .. وشبه وجه الحبيب .. وابدع في تصوير المحب وكيف يرضى على الالم ويصبر على فتك العيون بإحساسه الرقيق ، ويطأطىء عن هيبة حين يفاجئه محبوبه .. ويهون عليه كل نعيم في سبيل ان يتمتع بنظرة ممن يحب .. ومن المفارقات في الوصف ان رفيق يرى السعادة في شقائه وراء من يحب ويرى الشقاء في سعادته بدونه .. وها هو تهون عليه نفسه وهي غالية لحبه .. وها هو يعلن انه ليس له غيرها في ملاحتها لان جبينها هلاك فوق قوس حواجب على عينين قتالتين .. ومع هذا فهي لاهية .. لا تعيره ضرب هذه الصبابة التي يعانيها .

سمحت لقلبي في هواك صبابة   وهانت على النفس والنفس غاليه
لحبك ما بين الجوانح .. لوعه   تبيت لها كبدي من الوجد صاليه

عشقتك لا ابغي سواك مليحة ... وما لك عندي في الملاحة ثانيه

لوجهك ضوء الشمس عند طلوعها ... لها بهجة يا نزهة العين زاهيـــه

جبين هلال فوق قوس حواجب ... عـلى اعين قتالة وهي لاهيـــه

عـلى وجنـات كالشقائق حولهـا ... بياض من الفل المفتق حاليـــه

ومضحكها فيه عقيق .. ولؤلؤ ... اذا ابتسمت تبدو هنالك غاليه

ونهدان كالتفاح في غصن بانة ... وقـد اذا مـاست تهز العواليـه

فيا جنـة فيهـا المحاسن جمـة ... وقد اينعت فيها قطوفك دانيه

جمالك في عيني وصيتك في فمي ... وصوتك في اذ ني وكلك ماليـه

انا العـاشق الولهـان حبك شفني ... وخلف لي عيناً من الدمع باكيه

اذا جن ليلي هـام قلبي باكيـاً ... اليك فكوني في الملمات وافيـه

اي غرام هذا الذي يجعل شاعرنا العفيف القوي ينهار إلى درجة البكاء ليـلاً والاستجداء بأن تكون معه حبيبته وفية ؟؟

وهيا نراه في قصيدة أخرى يستعطف ويسترفق ويستجدي .. وهذا منتهى التصوير العاطفي الذي يدلنا على اطلال ذلك الهوى الذي كان يظلل شاعرناوربما كان سبباً في الهامه إذا أدركنا ان كل عظيم من ورائه امرأة .. توحي اليـــه بالاعجاز وتلهمه اقسى معالي الارادة ..

ملك الهوى قلبي فطـال عنائي ... وازداد اذ زاد الغـرام شقائي

رفقاً بلقب ليس في سودائـه ... الاك .. بين محبة .. ووفاء

رحماك يا « فيتوريا » جودي لمن ... اضحى بحـبك محـرق الأحشـاء

جودي بوصل أو بصد ليس لى ... في الحالتين عليك غير رضائي

داوي بوصلك داء هجرك انني من داء حبك لا أريـــد شفائي

عاهدت نفسي أن أفوز على الهوى بالصبر أو أمضي من الشهـــداء

ما لذت بالصبر الجميل تحمـــلا للهجر الا زاد فيـــك رجائي

ان اعظم ما في شاعرنا هو الوصول إلى الغرض في شعره دون إشعار للغـير بالمقصود .. فقد صور هنا تذلله في الحب (لفيتوريا) حتى انه لا يريد شفاءه من داء حب حبيبته .. والذي اعرفه ان رفيق لم يعشق فتساة اسمها (فيكتوريا) بل ان هذا الاسم يعني بالايطالية النصر .. وقد عاهد الشاعر نفسه ان يفوز على الحب بالصبر أو يمضي شهيداً من الشهداء .. وهـــذه القصيدة الـتي تعني حبه للوصل .. من فيتورنا . انما في حقيقتها تهدف إلى كون الشاعر الكبـير يتغنى بحبه لليبيا حتى تعود اليه وهي منتصرة على عدوها .. فهو يصبر حتى إذا ماعيل منه الصبر وجاء دور الجهاد في سبيل استقلالها سيذهب شهيداً في سبيلها .. أما بقية شعره في الحب.. فانه حقيقة لان رفيق تعرض لعنف فتاة.. موه باسمها.. وذكرها بمختلف الاسماء في قصائده حتى لا يسلط عليها الضوء .. ويشهر اسمها الحقيقي .. واني لاعجب حقيقة لدافع الحب . فهو عنيف يذل هامات الرجال فتنحني اليه وشاعرنا رفيق عزيز النفس وافر الكرامة .. الرجل الذي لم يسمح لنفسه ان يعيش مهاناً في بلاده وتحت وطأة المستعمرفحاربه بقلمه وبشعرهمعرضاً به في كل قصيدة وفي كل حالة من حالات الوطنية .. كيف اراه وهو يتعبـــد الجمال .. ويركع في محرابه رطباً تقياً ؟؟

ها هورفيق يصورحنينه وعزة نفسه وتحنانه لذكراه في بلاده فمن(جيحان) بتركيا يبعث بكوامنه نافثاً قوله :

غريب يحن لأوطانه ويبكي على عصره الذاهب

رمته المقادير في موطن بعيد عن الخل والصاحب

تغرب مذشب لم يسترح ولا قر كالخـائف الهـارب

اضاع الشباب ولم يكتسب سوى أسف مضمر ناصب
تعود بالرغم حلم الذليل وقد كان في عزة الغاصب
ومن ينأ عن أرض اوطانه يسغ جنف العاجز الغالب
ولكنني لا أسيغ الهوان ولا أقبل الذل من غاصب
ربيت على العز من نشأتي فموتي على العز من واجبي

ورفيق لم يقل في جيحان خيراً .. الا انه يحس بموطنه تنازعه إليه نفسه فلا يريد ان يصف مدينة من تركيا .. وقد كانت باب الخلافة ؟ وحتى الشاطىء التركي لا يعجبه فلا يتغنى بمأثرة فيه في حين نراه يقول عن جليانة ما لم يقله عن مكان آخر .

إلى شاطىء جيحان خرجنا زمن الصيف
جلسنا ساعة مرت مع الأصحاب في (كيف)
أراد القوم أعزازي وأكرامي .. كالضيف
فصورني مصورهم ليبقى عندهم طيفي
فهذي صورة المحزون في جيحان .. في الصيف

وهذه القصيدة بعث بها شاعرنا من جيحان مصحوبة بصورته على شاطىء في جيحان .. وقال لأصحابه في بنغازي ان هذه صورتي وانا مع بعض الأصدقاء في جلسة نحتسي فيها مشروباً .. معبراً بذلك لأصحابه بلغة مألوفة وهي (الكيف) ..

ولنرى رفيق الواصف المبدع يصور لنا غزالاً رائعاً في ضوء القمر لا يحجبه ليله ولا يخفيه لألأ النور ، فهو في مشيته سارحاً رانقاً امنا حتى إذ مال البدر إلى الاختفاء انذعر وراعه ميوله وتستره .. لا بأس اذا وصف رفيق الريم في ميسته .. والريم هو مدار التشبيه عند الشعراء :

يرتع في الليل راقه السحر   فبان يرعاه فوقه القمر
يـؤنسه ضوءه فيفزعـه   من ظله في مسيره الحذر
يتلع بالجيد هـا هنا وهنـا   يارن في خفة ويناطـر
حتى إذا البدر مال.. قابله   ينظر في ريبة فينذعر
أراعـــه أنه أسف إلى   ان كاد خلف الجبال يستتر
تهلل الحسن فى ملامحه   ورف بالحب وجهه النضر
كأنه وهو غير مبتسم   يكاد منه السرور ينفجر

وكما نرى من هذه القصيدة انها شائكة الفهم نوعاً لقوله يتلع ومعناها يخرج رأسه .. ويقال للرجل أو الظبي هذا ما ورد في ديوان رفيق ، ولكن الحقيقـة هو ان التلع معروف وهو سعة العين ويقصد رفيق هنا ان الغزال يفتـــح عينيه بشدة وبما ان عيني الغزال واسعتان من اصلها فان زيادة تفتيحهما يضفي جمالاً اكثر، ويحبب في المشاهدة للناظر وقد أجاد رفيق الوصف .. أما عبارة يارن فالمعنى منها النشاط من ارن البعير يارن فهو ارن وارون . وقصـد بعبارة ينأطر ... ينعطف ومجمل هذه المفردات التي احوجت القارىء الى فتـح القاموس معيب بالنسبة للتجديد والمضمون الجديد .. وهكـــذا رفيق ينشد في وصف الظبي مستغفراً ربه .. فيقول :

نفس الفداء لظبي كلما نظرت   عيني إلى عينه زاغت من الخجل
يظل مرتبكاً تحمر وجنتيه ـ   مصدقاً لأحاديثي عـــلى عجل
وتشتهي النفس ريا من محـــاسنه   فأبدع المزح تنكيتاً على مهـــل
سحرته بأحاديث وصلت بهـــا   إلى التمتع من عينيه بالحيـــل
وكنت اسألـــه عمدا ليبسم لي   فاسرق الحسن لا اخشى من العذل

هذا مناي .. على اني للذتـــه   استغفر الله من قول بـلا عمل

وهكذا رفيق يتندر .. يصف الحسن .. ويخلق من عنده ظروف المشاهدة والوصال ويتخيل القرب والحديث من الحبيب ويصوره ظبيـــا حتى ينشد .. فيأخذ القارىءمعه إلا أنه ليس ظبياً بالمفردة المرادة ..ولكنه حبيبة ومعشوقة .. وهذه الحالة اعتبرها حمى تعـــتري الشاعر .. وهي حمى الحب .. وهي هزة ونشوة تأخذ الأديب والشاعر معاً في اوقات معينة لينتفض ويكتب ويستلهم .. واعتقد ان هذا الشأن شأن المكبوتين الذين لم ينعموا بقرب الجنس .. وعاشوا بعيدين عن المرأة .

* * *

٣٣

من وفـــاء الشعراء

الشاعر رهيف الحس .. رطب الجانب .. طيب القلب .. رقيق المشاعر .. روحاني بطبعه .. ابعد من يكون عن الماديات ، ومن ثم كان الشاعر دائماً وفياً .. وفياً لذكرياته .. وفياً لوطنه .. وقبل كل شيء وفياً لحبه .. ونحن مع شاعرنا الكبير .. الذي لم ينفك باعثاً فينا الامل ، متغنياً بالحب ، ناظماً عقود الغزل .. لم يفرط لحظة في حبه ، فهو الذي يعرج على ذكر الحبيب في جميع ما يقول وفي كل ما ينشد .. وها هو رفيقنا ذات احد من الآحاد سره صفوه .. حين برز جماله يأخذ بمجامع الالباب .. ويبعث في النفس كوامن دهر ينصرم دون وصال .. فما عساه يقول في يوم الأحد الذي سره ، واطربه وجسم اليه حبه في لون جديد من الجمال ؟

الا ليت ايامنا كلها ... تمر كما مر يوم الأحد

تبرج فيه الجمال البديع ... فأجج من شوقنا ما خمد

جمال اثار الهوى والشباب ... فقلت لقلبي (اصطبح) ياولد

ولا تقل الصبر مر المذاق ... فما لذة الحب الا النكد

نمتع بالحسن ارواحنا ... فنلتذ من حسرات الكمد

عجيب ان يرى رفيق لذة الحب في النكد والمتاعب ؟ اليس الحب مضنياً اذا كان على شوك متاعبه وآلامه يرقد القلب الموله الحائر المنتظر الشاغف ؟ ولما يقول رفيق .. انه يمتع روحه بالحسن فيلتذ من حسرة الكمد ؟ فهل هذا القول تصبر ومن ضرب التشدد والعزيمة ليصبر ؟ ام انه حقيقة يشعر بها رفيق وانه يحس بالحب من خـــلال صعوبته فكلما كان حبيبه بعيدا عنه او صعباً مناله ، او يفصل ما بينهما فاصل جدي .. يحس بحبه قوياً جديرا بالذكر والاشادة .. اذا كان رفيق كذلك فانه يضرب المثل الأعلى في مقاييس الغرام .. والانسان الرقيق الحس لا يلتذ بالحب السهل .. ولا يؤثر فيه الجمال (البعلي) المبعثر الذي ليس له ثمن .. فكلما كان الجمال غالياً سومه بعيدا عن متناول اليد كان عزيزا ثميناً كلما كان يبعده عن الدوس بالارجل كلما كان له قيمته ومكانته ووقعه في النفوس العالية .. وحينذاك يكون الجمال الغالي في اوج صعب الادراك .. ومن هناك يكون عالياً وغالياً .

ولي خافق في حنايا الضلوع	كثير الولوع قليل الجلد
يذوب حناناً لمرأى الجمال	اذا لمته في هواه استبد
يجاذب قيد النهى والوقار	على رغم من قد لحى وانتقد
يرى ان حب الجمال ارتفاع	عن الشهوات وغيظ الحسد
وفيه يرى من سمت روحه	لطائف صنع البديع الصمد
وليس الجمال اعتدال قوام	وسحر عيون وحمرة خد
ففي كل فن بديع جمال	به اختص عن غيره وانفرد
يروقك في الرسم غير الذي	يروقك من شاعر ما نشد
ويشجيك في النغمات نشيج	يردده الوتر المرتعد
وارقى صنوف الجمال المعاني	يفوز بها الذوق من غير كد

فذلك معنى الجمال الذي　　يهيم بـه ذو الحجى والرشد
على ان لذة حب الجمال　　تهيم بها الروح دون الجسد
تهيم بهـا الروح في عـالم　　من السحر اجواؤه لا تحد
تجوب بأجنحة من خيال　　عوالم منها الشعور استمد
هنالك انوار عرش الجمال　　تجلت على الحب حتى سجد
هنالك تشعر روح المحب　　بمعنى الكمال وسر الأبد
ويلهمها الوحي لحن الخلود　　اذا صاغه الحب شعراً خلد

ان كل بيت من هذه الأبيات ملحمة قائمة بذاتها وكل مصراع يعبر عن مبدأ يصح ان يبقى نبراساً يستضيء به الباحثون عن الجمال .. والشاعر هنا عبر احسن تعبير وصور اصدق صور للحب .. وبين مزاياه وغربله وصفى قيمته حتى اجلاها من انها ليست في الانسان الوجه الجميل والفتنة والخد الاحمر ولكن الجمال في كل فن بديع والجمال الذي حدده ونعته رفيق هو الهام الشاعر الذي يستمد منه الشعر حتى يخلد لحناً للخلود ولنعرج على قصيدة « لم يجد » لنساير شاعرنا في تأوهاته ..

من لقلب في يد الحب رهين　　لا يداوي داءه غير الوصال
يتمنى الوصل لكن لات حين　　نفذ السهم فما يرجو محال
ماله غير اشتياق وحنين　　كلما حاول ان يقصر طال
ليته ينسى بحب الآخرين　　حب من اراده من غير قتال
لم يجد في قاصرات الطرف عين　　بدلاً ممن حوى هذا الجمال
قلت لما لج في الحب .. المتين　　وابى الاهـوى ذاك الغـزال
ليس يمحو الوجد من قلب حزين　　كل ما في الكون من اي الجمال

وليس وفاء الشاعرقاصرا على الحبيب الذي يلمح من خلاله عاطفتهالبوهيمية أو الغزلية ولكن .. ها نحن مع رفيق في تقريض كتاب الاستاذ المرحوم محمد بن عامر الذي الفه .. ملخص الاحكام الشرعية .. نقرأ اعجابه بالكتاب ونأخذ صورة عن المؤلف ثم رأي رفيق في الكتاب ..

من معجزات شريعة الاسلام ... للناس صالحة مدى الأيام
غراء واضحة تلائم فطرة ... كل العصور بصائب الأحكام
كفلت سعادة من بصاحبها اقتدى ... دنيا واخرى فهو خير امام
فانظر إلى احكامها ترَ انهـا ... ليست على شيء من الأوهام
اساسهـا وحي الإله وسنة ... مروية عن سادة اعلام
قبسوا من النور المبين فبينوا ... للناس كل محلل وحرام
هم كالنجوم اذا اقتديت بمذهب ... فقد اهتديت به الى الإسلام
كل المذاهب في الحقيقة راجع ... للاصل ليست موضعاً لخصام
والاجتهاد اذا تخالف رحمة للناس ... فهو تخالف لوئام
خذ مني البرهان مذهب مالك ... وانظر بعقل تهتد لكلامي
فقه اذا شئت الوثوق بفضله ... فاقرأ كتاب ـ ملخص الأحكام ـ
هو حجتي فيما أقول فسل به ... ان شئت اهل العلم والحكام
جمع الفوائد باختصار نافع ... من غير تقصير باي مرام
بلان لم ير مثله في شكله ... من سبك ترتيب وحسن نظام
فهو الدليل اذا بدا لك مشكل ... راجع مراجعة من الأرقام
تر حكمة التبويب في ابوابه ... وفصوله في غاية الأحكام

لم يعتمد الا الصحيح ولم يمل لضعيف قول أو الى ايهام
شرح المتون ووضح المعنى الذي فيه الشروح عصت على الافهام
وكفاه فخراً أن اقصى مدة للحمل اثبتها لمـدة عام
بصريح نص للامام ابن الحكم وبقوله ونقر في الأرحـام
بحث قد استوفاه حتى لم يدع قولاً لدى نقـض ولا ابرام
لا بدع فهو نتاج فكرة عالم بالشرع مارسه مدى اعوام
خدم القضاء فكان انجب خادم ثم استقال فكان خير محام
لم يخل في الحالين رغم معارض من خدمـة للحق والاسلام
لله درك يا ابن عامر هـذه آثار عقـل واسع الالمـام
آثار علم فاض صافي نبعهـا مـن بيت علم بالمـآثر سامى
كم من يد كانت لوالدكم على هذي البلاد بخدمة وقيام
خدم البلاد فكان كل زمانه في الدرس والافتاء والأحكام
في الله في الوطن العزيز جهاده في امة رزحت من الآلام
لي في الثناء عليه آيات بها قلمي يسابق سائر الأقـلام

هذا بعض وفاء شاعرنا رفيق .. وفائه للحقائق وللرجال فهو اذ ذكر قوله من بيت علم .. قصد بالاجراء القاضي الجليل محمد بن عامر والد المرحوم محمد ابن عامر المحامي .. وهو أشهر من نار على علم في الوطنية وحب الله والحق ولعل اهل ليبيا يشهدون بمآثر القاضي بن عامر في زمن الشدة .. والاغتصاب .

٣٤

رفيق ... المقطب المبتسم

ان الرجل الذي يشاء الله الا ان يجعله شاعر الفترة الكريبة الحزينة حسبه ان يحيا مقطباً باسماً .. ضاحكاً باكياً .. عابساً مفتراً .. غضبان جذلان .. وباختصار مضرب المتناقضات .. وكيف للانسان ان يعيش حياته رتيبة دون تناقض .. فالتناقض يحتمه التغير .. والله الذي لا يتغير اودع سر التغير والتبدل الانسان .. فلو خلد المرء لمعرفة الحقيقة ، ولو انه حذا حذو الواقع .. وانتصب ليكون في انتظار واقعه فقط .. ولو السلوان والسهو .. لأخذ الانسان مكانه قرب الاضرحة ينتظر ساعة مصيره .. ولو كانت هذه الحقيقة الروحية والواقعية هي الموئل الوحيد للانسان ولو سهو الانسان عنها لما عمر الكون ، ولا كان البناء .. وما ازدهرت الدنيا من عمل الانسان .. وإذن فرفيق يبتسم في الأحداث التي تجعله مقطباً .. لانه يريد ان ينسى أو يتناسى تلك الاحداث .. ويقطب رفيق في الاوقات التي تجعله يبتسم .. ليستذكر دائماً انه نهب الاحداث .. وهكذا شأن العبقريات .. وها هو رفيق يطفق بأسماعنا ليقص علينا قصة لم تكن خيالاً .. ذلك انه جعل اسم الاول « وسيم » بين قوسين ثم جر الاسم الثاني مجتبي تحت القوسين وقال انها قصة المال والجمال وصور فيها صورة احدى

الايامي .. تأيمت من بعلها فكثر بعد ذلك خطابها .. وتصدى لخطبتها شابان احدهما وسيم جميل والآخر ذو عفة وعزم متيسر المال .

تأيمت (كوثر) من زوجها وهي شباب بضة ناعمه
فازدحم الباب بطلابهـــا كل بها .. اطماعه حالمــه
فردت الكل بمـــا يقتضي عابسة .. للبعض أو باسمـه
غير (وسيم) وجهه كاسمـه فتى .. كبدر الليلة القاتمه
ذو مرة يمـــرح في عزة ويزدهي.. بالقوة.. الغاشمه
مالت اليه والى (مجتبي) وهو فتى ..آراؤه.. حازمه
ذو ثروة..يسعى لتكثيرها بعفة في عزمة صارمــــه

كانت (كوثر) نهباً بقلبها بين الاثنين (وسيم) الجميل المرح .. و (مجتبي) الحازم الثري الشريف فأيها تختار ؟

وها نحن بعد هذه القصة الطريفة وعلى حـــين غرة نهفو مع رفيق لذكرى الوطن ونحن إلى ربوعه كما لو كنا نعيش معه في جيحان مرة اخرى عائدين إلى التغني بالحنان والاوطان والاخوان .. وكما قلنا في عدد سابق .. ان رفيق وفي.. ومن وفاء الشعراء ان يحنوا دائماً لاوطانهم واحبابهم وذكرياتهم .

يا من على البعـــد نهواه ويهوانا لشد مـــا شفنا شوق فأضنانا
ذكرى عهود الهوى باتت تساورنا يا من يبلغ للأحباب شكوانـا
انا بحكم الهوى صرنا ولا عجب نزيد ذكرى لمـــن يزداد نسيانا
ما انصفتنا الليالي في نوى تركت جسماً هنا وهناك القلب ولهانــا

قلب اضر به .. حب الوفاء فما اخل بالعهد في حب .. ولا خانا
واف على البعد لا النسيان خامره ولا استطاع على الأيام سلوانـــا
واهاً .. لذكرى حبيب .. كلماسنحت كأنما قدحت في الجاش .. نيرانا
ذكرى تمثل في ريعان .. نضرته عصر الشباب واخواناً وأوطانا

الشباب

اما الشباب .. وما كان الشباب لنا الا على رغم انف الدهر طغيانا
كان الجنون .. وما احلى الجنون .. به ما لذة العيش .. الا فيه .. اذ كانا
كانه (سكرة) طارت فأعقبهـــا صحو اجد لنا .. لا كان .. احزانا
وما عرفنا له .. في حال نشوتنا قدراً .. وكم جحد الكفران احسانا
يا حسرتا .. ما تمتعنا .. برونقه اذ كان .. كالزهر .. رفافاً وريانا
كأنه نعمة من بعدها ذهبت ذقنا لها حسرة .. حرى .. وفقدانا
لم يبق من طيب لذات الشباب سوى ذكرى تمازجها .. الآلام .. احيانا
وكيف يلتذ بالأحلام من ذهبت بالصبح عنه .. فبات الدهر يقظانا

الأصدقـــاء

ورب اخوان صدق كان يجمعنا لهم اخـاء .. صفا سراً واعلانا
كانت مودتهم قربى .. ورؤيتهم تجلو عن القلب من دنياه .. مارانا
ما سرنا بعد مـا ولت شبيبتنـا الا صداقة من بالصدق صافا نا
وفي الصداقة عن فقد الصبا عوض ان الصديق شقيق عز أو هانا

ما في الحياة من اللذات امتع من صافي مودة عقـــل حاز رحجانـا
لله ايامنا .. والشمل مجتمـــع في ظـل عيش على الأيام اطغانـا
حتى خرجنا عن الاوطان من بطر بنا جزانا به الأحباب هجرانا
انا على الهجر ما ننفك نذكرهم فهل على بالهم يجرون ذكرانا ؟

الوطن ..

ما خيم الليل الا بات يقلقنا شوق اذا رقد السمار ناجانـا
نحن شوقاً إلى اوطاننا فاذا تبسم البارق الغربي .. ابكانا
ومن سوانا جدير بالبكاء على ذكرى (الفويهات) و (البركة) وجليانا
معاهد حبها .. لو لم يكن شغفاً بما لها .. من جمال كان ايمانا
قد طوحتني الليالي عن مواطننا يا ويح كل غريب .. قدره ها نا
لا عز الا لثاو .. في مواطنه ان الغريب مهان .. اينما كانا
ما أقدر الله ان يدنى على شحط سكان برقة من سكان جيحانا)
عين الزمان اصابتنا فلا نظرت وعذبت بصنوف الهجر الوانا

يقول ديوان رفيق ان البيتين الأخيرين للعباس بن الأحنف الشاعر العباسي المشهور واصل الشطرة في البيت الأول (سكان دجلة من سكان جيحانا) حسب ما ورد في كتاب الاغاني لأبي فرج الاصفهاني بالجزء الثامن .

وهذه القصيدة التي يتجلى فيها الحنين والوفاء في ابهى صوره وحلله تعتبر من ارق انغام شاعرنا ومن اجود البضائع الفكرية التي عرضها شاعر ليبيا في معرض الادب الليبي المعاصر .. وهو مع شبابه وذكرياته لم يفتأ ذاكراً وشادياً ومغنياً بأمجاد احاسيسه فهو يحب كل مجتمع في بلاده .. ولعل المكان المحبب اليه اكثر

من أي مكان آخر هو مصيف جليانة .. فقد كان الشاعر المنطلق يألف الشاطىء ويألف ذكريات الليالي الممتعة يقضيها مع احبائه واصدقائه في « براريكهـا » وتحت نخيلها الذي كان متبعثراً في شتى المنحدرات والبرك .. والاسباخ .. ففي عام ١٩٣٩ يتغنى بتمثال جليانة .. والتمثال ازيل الآن .. ولا ندري أي ايحاء جعل المسئولين يهدون معالم التمثال الذي كان يذكر دائماً باليوم الجهـادي الذي تعتز به مدينة بنغازي .

الى تمثال جليانـــة ذهبنا ساعة العصر
فكان هناك ممسانـا وعدنا .. مطلع الفجر
وكان هناك ما كانا لشرب الشاي..والخمر
وكان الأكل.. حيتانا ومشوياً .. على الجمر..
وكان .. الكل اخوانا من الحيين .. بالفكر

إبداع في التصوير .. وانطلاق في التخيل والوصف .. وشعر رفيق سلس فيه حلاوة السمع تطرب وتحلو للذوق .. حتى ليخيل إلى القارىء انه يعيش مع الشاعر وهم يصطادون السمك الذي عبر عنه بالحيتان .. اخواناً واصدقاء أوفياء لبعضهم البعض .. ويقول ديوان رفيق ان جليانة شاطىء بنغازي ذكر ان تسميته بهذا الاسم كانت بسبب غرق ابنة قنصل بريطانيا المسماة جليانة .. فقد ذهبت ضحية مياهه عام ١٨٥٠ .. وها نحن نترحل ونطير على افيـاء الاشجار وفي خيال الفكر وفي سماء الوعي والابداع الادبي مع شاعرنا الضاحك .. البا كي الباسم المقطب لنعيش في وصفه للحب وقوله :

ابتسم واعبس ودعني بين خوف وحياء
وارض واغضب وابتدع في الهجر اسباب الجفاء
لا تواصلني واطمعني ولا تقطع رجائي

وتداركني بعطف حين يشتد بلائي
لأذوق الحب في حلو بين .. داء .. وشفاء
وأذوق الحب ممزوجا بسعد وشقاء
ربما .. لذ .. عذاب لنفوس الشعراء

نذكر كلنا ان معايير الرجال فعالهـا وان مقاييسها آثارها .. فكل قول يجسم صورة القائل .. ويضعه في ميزان النقد ومن ثم فان الناقد لا يمكنه ان يغمط حق الشخصية فان مدى نقده لا يصل الى الشعور بالوضع حيث لا يجب ان يوضع الشيء .. ونحن حسبنا ان نقرأ هذه الأبيات لرفيق لنحكم على مقـدار نفسية هذا الشاعر الذي وصفته بالباكي الضاحك المقطب الباسم الحزين المتفائل وقول رفيق ابتسم واعبس ، خير معـبر للصورة التي رسمتها عنواناً للبحث .. بين خوف وحياء .. بين القلق والخجل .. بـين صورتين متناقضتين .. وارض واغضب .. هكذا يقول الشاعر الذي لم نعرفه الا بعد موته .. نعم عرفناه بعد موته بديوانه ، وان كنا عرفناه في حياته بأنه شاعر الوطنية والغزل بالقليل الذي قرأناه له في المدة الاخيرة .. وان كان هذا القدر كبيراً الى حد اننا الفنا رفيقاً شاعر الوطن الكبير الا ان القدر ليس هو كله الذي قرأناه له فأنا شخصياً وكنت تلميذاً لرفيق لم اسمع عن الكثير من هذه القصائد التي تعتـبر كل منها الياذة إغريقية .

* * *

٣٥

تصوف ومــــدح وهجاء ...

قلنا ان رفيق يتقمص شخصيات في شخصه ويمثل جوانب عدة في تقويمـــه للحياة .. فبينما نرى رفيق الذي يتغنى حتى بالخمر في لياليه وسهراته بجليانة نراه يعمد الى اخلد واقوى القصائد الوطنية ثم نراه يتحول فجأة إلى الغزل فيصور الحب في احلى صوره ثم يصور لنــــا معه فلسفته في الحب .. والقوله ومداجاة الحبيب ، ثم يتغنى بالجمال فيقدسه ويركع في محرابه ، والآن التقي مــــع رفيق في قصيدته هــــذه في الهجرة وهي اجمل تعبير وادق الهام في اختيار مجامع الكلم التي تسيطر على النفس وتجعل قيمة الصبر والفة الفرقـــــة بسيطة في نظر القارىء .. وهـــــذا منتهى القدرة في الابداع . فالشاعر الذي يحمل معه القـارىء الى آفاقه البعيدة يهون عليه المأساة ويستخف به على الجلى وينطلق معه في اخيله الحب وقوافل الغراميات روحانياً صادقاً خالياً من المادية البغيضة .. وخلاصة القول ان رفيق متصوف حتى في ذوقه واعتباره الانساني .. هــا هي صورة الهجرة يرويها في قالب جديد ممتع :

رتل مناقب هجرة المختار واشد بذكرى سؤدد وفخار

ذكرى تجدد كل عـام سيرة تزداد .. تجديداً على التكرار

في طيها عظة وفيها عبرة ... لذوي الفطانة من اولي الأبصار
سعد الزمان بيومها فاحله ... في جبهة التاريخ تاج نضار
يوم أغر كان صادق فجره ... فجر السلام ومشرق الانوار
بدأ انتشار الدين فيه مؤيداً ... بالفعل بعد القول والانذار
إذ أعرضت عنه عقول اصلدت ... وتحجرت لعبادة الأحجار
كم ليلة بات الرسول مجاهداً ... يدعو لهم في ظلمة الأسحار
(يا رب قومي) أنهم من جهلهم ... لا يعلمون مصيرهم للنار
يرجو هدايتهم وهم في كفرهم ... يرمونه بالفرث والاحجار
يبكي لهم وهم الذين تعاهدوا ... لهلاكه في نـــدوة الأشرار
حتى رأى ان ليس يصلحهم سوى ... حد الحسام الصارم البتار
قد الجاوه فأنتضاه .. ولم يكن ... للانتقـام ولا لاخذ الثار
لكن لهديهم الى الخير الذي ... رفضوه .. بالأعراض والانكار

واقع تأسيس هذه الابيات بناة الشاعر على بحر عاد ليس له تأثيره الموسيقي كما عهدناه عن رفيق ولكن دخول رفيق الى المضمون من القصيدة مؤثر ومدهش الى حد ان التعبير جاء يحمل الرواية المقدسة حملا رقيقاً لينا .. فالسامع الى الهجرة في تصوير رفيق يمعن النظر وينصت كلياً لينتهي مـع الشاعر الى النتيجة ، وهذا المد والجزر في الأسلوب الفني لرفيق هو سر نبوغـه وتأثيره على من يسترسل في شعره قراءة وتنقيباً دقيقاً .. لقد بين رفيق كيف عمل النبي (صلعم) على هذي قومه ولم يكن يحمل السيف ضدهم ولكنه لانجاح الدعوة وبامر الله حمل السلاح ضد الكفر

ولكن مع هذا لا لينتقم .. وينتقم ولكن ليوجههم الوجهة السليمة من قلق الحـق .

هجر الديار مجرداً لعزيمة ... في حدها الأيمان بالقهار
الحق رائده ومن يك مؤمناً ... بالحق لا يخشى أذى الاخطار
والصبر ناصره فكم من حادث ... لاقاه وهو بهيبة ووقـار
وكفاك درساً في الشجاعة موقف ... يصف التوكل (إذ هما في الغار)
لولا الشجاعة واليقين بصدق ما ... يدعو له في الجهر والأسرار
ما قال (لا تحزن) لصاحبه وقد ... قرب العدو ولات حين فرار
ايقول لا تحزن يواسي صاحباً ... الموت أقبل ضارباً بحصار ؟
في مثل ذاك الموقف المرهوب من ... يجبن .. فما .. في جبنه من عار
لكن للايمان عنـد رسوخه ... في القلب .. أي سكينة ووقار
تلك النبوة لا شجاعة باسل ... يسعى لملك أو لفتـح ديار
فتح الممالك ليس بدعاً أنـه ... في مستطاع الفارس المغوار
لكن تلقين العقيدة امـة ... نشأت جبلتها على استكبار
صعب وليس لقوة مهما قست ... ان تدخل الايمان بالاجبار
القهر لا يمحـو بغاشم سيفه ... ما في صميم الروح من اصرار
ليس العظيم من استطاع بقوة ... ادراك ما استعصى من الاوطار
ان العظيم من استطاع بحلمه ... تحويل اعـداء الى انصار
بوسائل الاقناع يجعل امـة ... جحدت تطاوعه الى الاقرار
ماتت فأحياها واسعدها بأن ... بسطت سيادتها على الأمصار

ان شئت معجزة فليس كهذه　　فيما روى التاريخ من اخبار
فاقت جميع المعجزات لأنها　　مما يحير ثاقب الأفكار
ليست من النوع الذي يدعو هوى　　من لم يشاهدها إلى الأنكار
جاءت كنوز للبصائر فهي لا　　تحتاج في التصديق للابصار
لا فضل للعقل الذي يحتاج في　　ادراك برهان الى (منظار)
ولئن اتى بأجل معجزة فكم　　قاسى من الآلام والاكدار
عبء الرسالة لا يقوم به سوى　　من جل قدراً او اصطفاه الباري
علماً بما في ذاته من ميزة　　اعرفت معنى لفظة المختار ؟؟
خرج الرسول مهاجراً فهيأت　　اسباب نشر الدين لاستظهار
ما زال مذ هجر الديار مجاهداً　　حتى تكلل سعيه بالغار
اذا جهلت مكان هجرته وما　　جاءت به فانظر الى الآثار
في كل يوم من شريف حياته　　درس لأمته مدى الاعصار
في سيرة العظماء اسرار اذا　　كشفت لشعب قام بعد عثار

قد يقول بعض القراء ان قصيدة رفيق هاته ليست اعجازاً بالنسبة للقول الذي قيل في الهجرة النبوية فلقد وصفها الشعراء بما جاد وغطى على مثل هذه القصيدة ولكن الرد السريع على هذا هو ان حقيقة المضمون في قصيدة شاعرنا تجلت في ثوب جديد حيك من ألياف متينة التحمل ، ومع هذا فرفيق تناول الموضوع بريشة حية تعطي الصورة الجديدة في الابداع ، فالخيال مرئى وواضح كلما قرب الذهن على بعد من اللوحة.. والرسم الجديد يعطي الصورة وضوحها على بعد ، فكلما بعد عنها الرائي كلما تجسمت له في اللون الذي يحبه وكلما قرب

منها تلاشت معالم خيوطها حتى تآكلت في النظر وهذه الصفة الفنية تعطي الذهن الحديث مقدرته على السير مع حقيقة التاريخ والأبداع السمح للاطار الفني .. ومهما تصورنا ان رفيقاً لم يبدع في هذه القصيدة فأعتبارنا قائم بجد ذاته الى ان رفيق اجاد في وصف الهجرة وصاحبها مرحلة مرحلة حتى النصر .. وهذا هو الفن في الشعر وطاقة الشاعر على الابداع .

تهنئة لصديق

بمناسبة زفاف لآل بن عامر .. فيما بين الاسرة الواحـدة قال شاعرنا من جيحان :

فرح .. وفوز بالمنى ونجاح يا آل عـــامر دامت الأفراح

دام السرور لكم ودام لبيتكم مجـد يردد ذكره المـــداح

مجد دعائمه التقى .. وعماده كرم وعـــلم واسع وصلاح

رفع ابن عامر سمكه واتمه خلف نجيب للعـــلا طماح

يا آل عامر ليس لي في مدحكم فضل فأنـــتم أهلي النصاح

أنتم احبائي الذين صفا لكم قلبي فصار بذكركم يرتاح

ان لم يكن جسمي لديكم حاضراً فبحبـــها تتقارب الأرواح

جاءت رسالتكم لدعوة صاحب لم ينسه كرم لـــكم وسماح

نبتت لما غاب عنكم شخصه دارت على ذكر اسمه الاقداح

اوليتموه من الجميل بفعلكم ما لا يقوم بشكره افصاح
يا آل عامر بالبنين وبالرفا عقد تتم لكم به الأفراح
تأتي نتائجه بكل غضنفر شهم الفؤاد جبينه وضاح
كمحمد ومحمد وكأصلها تأتي الفروع وتعظم الأرواح
واذا توشجت القرابة انجبت ان الوشيج نتاجه الارماح
فضل الزواج من الاقارب انه نسب وان اضوى بنوه صراح
ذرية من بعضها في مدحها نزل الكتاب واطنب الشراح
لا كفء افضل من بني العم استوت
اعمارهم .. وتدانت الارواح
فاستبشروا يا آل عامر انه نعم الزفاف يلوح فيه فلاح
هذا بشير النصر جاء بمظهر «ملخص الاحكام» فيه نجاح
قهر الحسود فمات من غيظ به وتقهقر النطاح والنباح
« حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه
فالقوم اعداء له اقحاح
منهم « فقيه الرز » ما في عقله
المنحوس الا الكرش والمنفاح
ابداً تراه على المآتم حائما للازدراد كأنه التمساح
والعالم المجهول فهو الجاهل المعلوم ليس لقوله افصاح

والآخرون ومنهم « الزمزاك والحبراك

والشوماد والصياح »

تبعوا الهوى فأضلهم ورماهموا

بفضيحة ان الهوى فضّاح

كل يعود لأصله بفعاله فعل الرجال لسرهم مفتاح

داب الضعيف شتيمة ووقاحة ان الوقاحة للئيم سلاح

لا يتبعوا خلف ابن عامر انهم لن يدركوه «فقل لهم يرتاحوا»

مهلاً ايا الفاروق لا تعبأ بما قال الحسود فان ذاك نباح

واشكر لما أوتيت من نصر ومن فرح يتممه لك الفتــــاح

واذكر محباً ضاع في جيحان لا خل يواسيه ولا نصاح

اشكو اليك قطيعة الأخوان إذ قداعرضو بوجودهم واشاحوا

صدقتهم وصدقت في حبي لهم فاذا بهم ضحكوا عليّ وراحوا

فأنا الغني عن الصداقة بعدما حققت ان جميع ذاك مزاح

مني عليهم للوداع تحيــة ما بعد انذار على جنــاح

شوقي اليهم كل يوم زائد فمتى ترى يوم اللقاء يتاح

هذي تحياتي وتهنئتي لـكم أوحى بها شوق لكم ملحاح

لا زال يشملكم برغم حسودكم فرح وفوز بالمنى ونجاح

الزمزاك تعبير شعبي في بنغازي ويعني المتقرب المتملق و« الحبراك » يعني كذلك المتملق الذي يتقرب بصفة الخدمة للآخر – « الشوماد » الشخص الذي يخلق من الحبة قبة .. فاذا مسه أمر بسيط أكبره وضخمه والطفل أو المرأة

إذا هولت من الأمر يقال عنه وعنها شوماد وشومادة و« الصياح » المهرج .. لي تعليق على قصيدة رفيق هذه وقد رأيت لجنة وضع كتاب رفيق حشت الكتاب بجميع القصائد التي قيلت عنها وكم كان جميلا ان لو وضعت قصائد لم تنشر في ديوان رفيق وهي قصائد عامرة .. وقالها رفيق ويعرفها الناس .

* * *

٣٦

بلبل ليبيا الصداح

جميع انواع الاساليب .. وكل صفات الانواع ومجمل خلاصات الابداع .. شواهد كلها لرفيق، فمن شاء ان يحكم على واقع الاحداث فليقرأ بتدبر وليطلع بامعان وليدرس بعمق ديوان رفيق .. رفيق الذي ينشد عندما يحس فلا يترك فرصة تستوجب التخليـــد والتمجيد الا وخلدها ومجدهـــا ولم يمر ظرف شدة يوجب القريـــع والسحق الا واستل يراعـــه وجرده صارماً . في وجـــه الاحداث ومع هذا فشاعرنا كان يختلف وضعه عن اوضاع شعراء الاقطار العربية .. اذا مـــا قارناه بشوقي فشوقي يعيش في اعتــاب السمو والخديوية.. مقرب من السيادة والكماليات.. تتوفر لدى موهبته سبل الانشاء والترنم فهو يجيد بحكم ترفه ومكانته وتوفر سبل عيشه وكثيراً ما تكون خطوة الرجل وحدها نبوغاً .. تفتح امامه ما اغلق على الغير واذا قارنا رفيقاً بحافظ ابراهيم وجدنا حافظـــاً وهو شاعر النيل على خلو وفاضه من الترف والتقريب الملهم الذي توفر حوله كل سبيـــل للإطلاع والتزود والطبقة التي تحفزه وتساجله علماً وأدباً ودور الكتب وآلاف الأدباء.. والجامعة والندوات الصحفية كل هذه تفتح صدورها الأدبية لحضن حافظ ولرفع درجة الهامه حيث يجب ان تكون.. واذا قارنا رفيقاً بمطران او بالزهاوي فإننا نرى الأخيرين كذلك يتمتعان

بجو قابل للبذر والحصاد .. فبلادهما تتوفر فيها صفات الأدب والشعر ...، والرسالة المقدسة كانت آنذاك هي رسالة الأدب والشعر .. أما شاعرنا رفيق فقد كان خلواً من جميع هذه الامكانيات .. بل بالاضافة الى ذلك كان الأديب المتابع المقتفي اثره الملاحظ المراقب .. طريقه شوك ولسانه عليه آلاف الحراس والاعداء يتربصون به الدوائر والجو معتم مقتم وحتى بني وطنه منهم من يخافه ويخشاه .. ومنهم من يخشى عليه من نفسه خيفة تعرضه بسببه للتنكيل ... عدوان غاشم واحتلال غادر .. وعدو جاهل .. ووطن متأخر .. ورجال أمنوا بالضرورة بقاءهم تحت اعتبارات فقد كانت جنازة يحملها بعض فقهاء المحتل .. أما الثقافة في ليبيا الدين ولم يرث الفكر منها الا تعاليم الفقه الاسلامي والذي كان نفسه مهدداً بالفتوى كلما اراد المستعمر سخر بعض رجال الدين من اصحابه للافتاء بما يتنافى والدين فكيف للعقل اذاء دقق ووقف على حيلة امر الحقبة التي قال فيها رفيق ...ان لا يسلم الرأية لشاعرنا معتزاً فخوراً معترفاً له بسيادة النظم وسيادة الروح التي لم تهن ولم تسمح لكائن ان يهينها .. اني ارجو ان يعي الشعب مع الزمن فان الحكمة التي ارجوها من وراء الوعي تتجاوز كل واقع نحياه اليوم .. وليس بدون تغلب الوعي يقوم للادراك قائمة فهات لي شعباً واعياً اعطك كامل الحقوق .. ان الشعب الذي يعيش على حافة الطريق سيظل حياته مترقباً ناعساً عرضة لأي تيار يجرفه .. وسأترك الحكم على قولي هذا للوعي الجديد اذا شاء ربي لبلادي ان يهبه اياه في فترة كم ارجو ان لا تطول ... وهناك سيحمل الوعي راية الشعر لشاعرنا الذي مات ولم يعرفه الوعي لأنه ما زال في نظر المكفوفين أو مشوهي الوجوه والسطحيين أو الاقليميين .. عرضة لعدم معرفته او التعريف به .. ورفيقنا لم يهضم احداً حقه ولا يبالي في الحق احداً .. فعندما توفى المرحوم الشيخ ابراهيم حويو وهو من مشاهير اهل بنغازي وقد ولى القضاء في المدينة فكان عادلاً شجاعاً غير هياب يخشى ربه فيما يقضي به ولو اغضب المسيطر المحتل .. رثاه رفيق وكان لا بد لرفيق ان يرثيه ..

عز والله علينا فقده عالم فـــاق على امثاله
حاكم كان مثال العدل في حكمه يجري على منواله
كان للدين وللحق معاً خالص النية في اعماله
واذا الايمان في قلب امرىء قر.. فاض الصدق في اقواله
ان صدق المرأ في اقواله شاهـد للصدق في افعاله
كان شهماً لا يبالي لومة في سبيل الحق من عذاله
في سبيل الحق لم يرهب أذى من خصوم الحق أو جهاله
وإذا صح يقين المرأ ..لم يخشى غير الله في اقواله
قدعلمناه حصيف الرأي لم تخلص الدنيا الى اغفاله
عاملاً بالعلم لم يقصد به غير وجه الله من آماله
ليس من يعرف بالعلم كمله قد اجاد العلم باستعماله
رحم الله (حويوا) ..اننا لم نؤد الغرض من اجلاله
كم له من وقفة كان بها قسوراً يحمي جمى اشباله
حفظ التاريخ ما سجله من جليل الذكر في اجياله
ومضي خلف (البصيري) تابعاً بعده (العالم) في ترحاله
يالقومي.. كل يوم فاضل تحرم الاوطان من افضاله
ما لنا في وطني منهم خلا غير سح الدمع في اطلاله

رفيق الذي يسكب الدمع على العالم الفاضل حويو .. نراه في قصيدة اخرى تلي الرثاء يناشد حبيبته ان لا تتأثر برأي الغير حتى لا يشمت به وهو تذلـــل شاعرنا للحب..وقد قيل ان قائداً تركياً شهيرا كان مغرماً بأصطياد الآساد ..

وكان ما ان جاء بأسد اصطاده إلا ومرغ خديه تحت رجلي حبيبته قائلاً .. ها انا صرعت اليوم اسداً .. وجئت لتصرعني عندك نظراتك فقاتل الله الحب كيف يفعل بصاحبه ..

عنبر الخال في صميم الخدود   كسويداء مهجتي في صدود
كل خال في الخد مثل مجوس   اضرموا بين ركع وسجود
قسم الورد بيننا في الشوك   وفيك احمراره في الخدود
ياشهي الرضاب والله لولاك   ما ملت لابنة العنقود
وإذا ما وضعت كفي على   كبدي نلت لي (النار ذات الوقود)
ياأبا الحسن كن كوجهك فعلا   لاتطع قول عاذلي .. وحسودي

بعد وفاة رفيق مباشرة قامت لجنة من اصدقائه بالأشراف على دفنه ومواراته التراب وتنسيق حفلة التأبين .. والأمر الذي لا يجحده أحـد هو ان الحكومة أرادت ان تكرم الفقيد رحمه الله فاسمت شارعاً كبيراً باسمه واطلقت اسمه على مدرج الجامعة الليبية وأمرت بطبع ديوانه على نفقتهـــا أي نفقة الحكومة .. وتكونت لجنة أسمت نفسها لجنة الرفيقيات .. ولها فضل تجميع قصائد رفيق .. فقدمت الديوان الأول تقديماً جافاً مجرداً من كل الأعتراف .

حتى لمن مهد السبيل وجعل للمناسبة وزنها بتفضيل رفيق على غيره من عظماء المدينة كما صدر الكتاب بتوقيع وزير العمل والشئون الأجتماعية .. بكلمة تمهيدية مجدت الجهة التي أرادت اكرام هذه العبقرية بما توفق ومكانتها أعمالاً بما كان يحتله الفقيد من مكانة إذ كان عضواً بمجلس الشيوخ .. وابرز ما صدر به الكتاب في كلمة السيد الوزير قوله (ولم يكن شاعرنا يعيش في دائرة الوطنية الضيقة بل كان يؤمن بقوميته وعروبته فكانت تهزه انباء كفاح اخوته المناضلين في البلاد العربية

وشاء القدر ان يكلل جهاد الأحرار في ليبيا بالنصر على يد بطل الأمة الادريس العظيم) وكم اعجبني هذا التصدير في كلماته لأنه يصور جلياً نفسية كاتب التصدير وهو الشاب الذي خدم المجتمع الليبي والمؤسسات والرياضة بروح البيتية والمروءة والنزاهة والصدق ، فجاءت كلماته قوية معبرة صادقة لمست جانب الاعتراف بالحق لبطل الأمة الأدريس العظيم ..

أما لجنة الرفيقيات فانها انتقت من شعر رفيق ما تريده هي .. ولا أدري كيف سمحت لنفسها أن تنشر كل ما يتصل بشعر رفيق عن بن عامر بينما لم تنشر بعض الجديد من شعر رفيق وهو ما زال حياً في مخيلة الشعراء والأدباء وكم عن لي أن اسأل اللجنة لماذا قال رفيق في شعره هذا كله في آل بن عامر أبان الاحتلال الأيطالي ؟؟

اني اريد العبور الى نقد وشرح ديوان شاعرنا بكل أمانة وصدق وذلك لأن الأجيال تريد ان تعرف حقائق التاريخ .. والتاريخ الليبي لم يكتب حتى الآن بكل أمانة ودقة ووضوح وصراحة .. والآن لا يسعني إلا أن ابرز جانب الرقة والاعتراف وشهامة شاعرنا ووفائه للاصدقاء في شعره عن آل بن عامر .. واسرة ابن عامر في الحقيقة من الأسر العريقة والتي ذاع صيتها بفعل قاضي بنغازي زمن الاحتلال الشيخ محمد بن عامر الذي عرفه الجميع بغيرته على الدين وعلى المواطنين وهو الرجل الذي جازف بنفسه مع الحكام الايطاليين ولم يسمح لافتاء مفسد مضلل ان يأتي عن طريقه .

بني عامر حتى القيامة لم يزل	لو الدكم ذكر يرده الناس
تظنون ان الناس في العام مرة	على فقده يضنيهم الحزن واليأس
وهم كلما حلت بهم وبدينهم	مصائب لا تحصى يشيب لها الرأس
يقولون ياللخطب اين أبن عامر	وأين الهدى والدين والعقل واليأس

وأين الذي للعلم بحر وللهدى ... منار وللاحكام والعدل قسطاس

فقدناوهو الليث يحمي.. ذمارنا ... ويرشدنا منه.. الى الحق نبراس

فقدنا .. لكنا علمنا مكانه ... لدى الناس لما بعده قام انجاس

نؤمل في ابنائه الخير بعده ... وفي المعدن المشهور لا يفقد الماس

بني عامر منكم أنا ومدائحي ... وانتم جميعاً عندي الاهل والناس

لئن غبت هذا اليوم عنكم فسامحوا ... فقد عاقت الحمى واقعدني البأس

شاعرنا رفيق يعتذر عن حضور دعوة وجهها له المرحوم الاستاذ محمد بن عامر ولكنه اعتذر بقوله أنه مريض من الحمى .. واشاد بافضال اسرة بن عامر التي منها المرحوم الشيخ محمد بن عامر مفتي بنغازي وقاضيها الوطني الغيور على الدين كما اسلفنا .. وقد توفى المرحوم الشيخ محمد بن عامر سنة ١٩٢٢ ولي كلمة وأنا اتناول موضوع دراسة شعر رفيق اقولها بصراحة وبدون تعرض نفسي لشخص ما .. الا وهي ان جمع شتات ديوان رفيق مجهود ضخم وجبار والفضل فيه يرجع للنخبة التي حملت رسالة تجميع الديوان ونشره بظروفه ومناسباته وقد جاء الديوان في اطار مناسب ومحتوياً على المرغوب من مناسباته إذ لو لم يتعهد اصدقاء رفيق على شبابنا ممثلين في لجنة الرفيقيات لما سهل الاتيان على مناسبات القصائد كما هو الحال في الديوان .. ولكن شيئاً واحداً اشتمه من حقيقة الوضع . يجري في لثتي وخلال لساني واسناني .. إلا وهو ان اللجنة .. اعتقدت في وضعها للديوان انها انما تباشر عملا لها .. وان رفيقاً لها وحدها فهدرت حق رفيق نفسه دون أن تعلم ذلك ان المناسبات التي ذكرتها لم تكن وافية بالقدر الذي اراده رفيق .. وحتى نهاية الديوان الأول .. وهو الذي يمثل فترة الاكتراب والاغتراب أي إلى سنة ١٩٤٠ لم يكتنف بعض القصائد التي قالها رفيق فهناك البعض من تلك القصائد (فتدهور) وربما على السنة بعض الحفاظ وهذا عدم أمانة للفقيد وللتاريخ ولسنة الأداب التي ينبغي ان تعيش بجوهرها

حية صارخة .. وان المناسبات التي ذكرتها اللجنة ليست كلهـــا صحيحة وصريحة .. والذي يبدو لي هو ان اللجنة اخفقت في اظهـــار اللون الحقيقي لشعر رفيق .. وأرادت ان تتجاهل عن عمـد حقيقة الاطار الذي تركه رفيق فموهت على أساس انها قريبة وصديقة لرفيق مـــع علمها بان تلامذة رفيق واصدقاءه كثيرون ويحبون ويعرفون ويعلمون اكثر من علم لجنة الرفيقيات..

**

٣٧

هل كان رفيق متشفياً ؟؟

الشاعر الذي اجلاه الطليان عن دياره .. ونفوه دون رغبتـــه ونكلوا به وهو الشاب الذي يريد ان يترف بالحيـــاة .. وغلبوه على امره وهو الذي لم يسكت .. وشردوه وهو الحنان لذكرياته .. وكمموا فمه وهو الصارخ المنادي بحب بلاده .. واهانوه وهو الذي لا يحتمل الاهانة ولا يرضى الخنوع .. هؤلاء الاعداء .. هذا الحكم الفاسد الغاشم الذي يكبل باع الشاعر ويكتم عليـــه احاسيسه .. والهاماته ووجدانياتـــه .. كيف يقابل رفيق هزيمة العدو من بلاده .. وكيف يسمع ان ايطاليا جلت عن ليبيا مدحورة مغلوبة مشتتة الجند ملقية الاسلحة تاركة وراءها جندها وعتادها وآمالها اسيرة في يد جيش اقوى وقوة ابسل واضخم .. وتكتيك لم تفلـــح معه القوة الغاصبة المحتلة الأثيمة .. كيف يقول رفيق في المناسبة وأي اعجاز سيظهر خلال قصيدته ، وأي الهام سينطق من عبرات اعجاز .. بلورتها المعجزة الكبرى .. معجزة التاريـــخ والايام .. وتلك ايام نداولها بين الناس..

الاستعمار الغاشم الذي احتل ليبيا عام ١٩١١ ورمى المدن بجحيم سفنـه الداكة حياض البلاد .. وهل التفت رفيق حواليه .. ودار بمخيلته كل شيء..

وهل تصفح تاريخ الجهاد فعاش عام ١٩١١ حينما كان الأهالي آمنين غائلة الزمن .. وحين استيقظ السكان على دوي المدافع فاذا البوارج تتاخم المدينة وتنزل آلاف الجنود المدججين بالسلاح ويقابل قواد الجيش بعض أهل المدن ، فينزلونهم على على اصوات موسيقاهم يسلمون لهم مفتاح المدينه .. لنمكث لحظات نقلب صفحة تاريخ الاحتلال حتى لنرى بعض ما رأيناه مخزياً فلم نتناوله بالبحث .. ذلك ان كتاب التاريخ يستنكفون من كتابة بعض الحقائق عن انفسهم ومن هنا كان التاريخ العربي مشوهاً في جل وقائعه .. ارغمت تركيا على التنازل عن حقها في ليبيا وسلمتها لأيطاليا .. وحطت بمدينة مصراته سفينة (غطاس) تحمل الضباط الليبي التركي الكبير الغناي باشا ليعلن تنازل تركيا عن ليبيا وليتولى القيادة في الشمال الافريقي كله .. ويتمسك الاهالي به .. ويعلنون انهم يطلبون منه .. تكوين جيش ليبي وقيام حكومة وطنية .. ويتجمع الليبيون ويتهافت الشعب كله على ميادين الجهاد .. وما هي الا ايام حتى تتكون الجمهورية الطرابلسية ويتولى القائد التركي الذي اصله من بنغازي قيادة الجيوش ويعلن بالاسلكي قيام الجمهورية الطرابلسية .. ويعلم رؤساء الدول بالقرار الشعبي الكبير .. وتقوم الحركة الجهادية في طرابلس .. وفي بنغازي ، تنزل البواخر المشحونة بالجند والعتاد .. رجالها .. ويهرع الشعب محارباً ويسقط يوم جليانة اكثر من .. ستمائة رجل .. وهذا السبب هو الذي حدا بشاعرنا رفيق ان يحب جليانة ويتغنى بمآثرها .. ويحتل العدو المدينة بعد ان فقد جيشاً عرمرماً نتيجة تصلبه وعناده ويخرج المواطنون الى الضواحي ثم الى الادوار .. ويتكون (دور الفعكات) وينضم اليه اغلبية اهالي بنغازي ويقود حركة الجهاد فيه المرحوم القائد نجيب الحوراني .. وتستمر الحرب سجالاً بين العدو والمجاهدين .. ويبقى في المدينة بعض المواطنين ممن امنتهم ايطاليا .. ويوفد الى المجاهدين في منطقة بنغازي بعض الاخوان السنوسيين ، وعلى رأسهم سيدي عمر المختار والسقوري ... وتبدأ حركة الجهاد في قوتها وسيطرتها على الموقف .. وتنتقل الحرب بين المجاهدين

والعدو من مكان الى آخر ..

ويقود الحركة النضالية سيادة السيد احمد الشريف ومعه السيد صفي الدين السنوسي ، وبعض السادة السنوسية وتنتشر القيادة السنوسية حتى ترغم ايطاليا في كثير من الغزوات على التقهقر وتدخل في جميع الميادين حتى تكتنف الصحراء ومن ثم تهزم ايطاليا حتى ان السنوسية تدخل مصراته وغيرها من مدن طرابلس.. ثم تنتصر الحركة الجهادية بفضل قيادة الشاب السنوسي والوالي الشرعي للقيادة السنوسية بعـــد الأمام المهدي رضي الله عنه « الملك ادريس الأول » وتضطر ايطاليا للدخول في مفاوضات مع الجانب الجهادي الليبي .. وفي حالة من نشوة النصر الوطني وحيال ازمة مجاعة لم تعهدهـا البلاد نتيجة للمعارك الدائرة .. تشاء حكمة القائد السنوسي (الامير ادريس) ان تفاوض العـــدو في هدنة شريفة ، وتستقر الحال وتنتهي المجاعة ويتكون برلمان عربي وطني .. وتبعث هذه الهدنة انتصاراً للجهاد الليبي لولا ان العدو خان العهد .. وانكل وتنكر فهاجر الامير .. وظلت الحركة الوطنية بالجبل الأخضر يقودها وكيل عن الأمير .. واخذ الامير يغذي الحركة بما يسعى اليه من نفوذ وما يتحصل من هذا النفوذ على مال وعتاد وسلاح .. واستمرت الحركة الجهادية في برقة حتى نصب العدو كميناً لوكيل القائد .. السيد عمر المختار .. فاوقعـــه اسيراً وقدمه لمحاكمة صورية فحكمت بشنقه وشنق الزعيم الشيخ بمدينـــة سلوق على مشهد من اهله وقومه ومواطنيه ارغمتهم قوى الشر على حضور شنقه وقد قال شوقي في هذا قصيدته الشهيرة :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء   يستنهض الوادي صباح مساء

يا ويحهم نصبوا مناراً من دم   يوحي الى جيل الغد البغضاء

إلى أن يقول :

واتى الأسير يجر ثقل حديده   أسد يجرجر حية رقطاء

خيرت فاخترت المبيت على الطوى   لم تبغ جاهاً او تلم ثراء

ان البطولة ان تموت من الظما   ليس البطولة ان تعب الماء

عمر المختار غني عن التعريف .. وله في زاوية القصور قرب مدينة المرج وحفظ القرآن في الجغبوب .. ودرس به ثم عاد الى منطقة الجبل الأخضر حيث ولد وتربى ، واصبح شيخاً لزاوية القصور ولما اعتدت ايطاليا على ليبيا كان شخصية بارزة.. وكان خير امين للامير ادريس (مليكنا المعظم) حتى سقط في آخر موقعة في ١١ – ٩ – ٣١ فأعدم واستنكر العالم كله نبأ اعدامه .. ماذا سيقول رفيق في عدو اعتدى على بلاده وعانت بلاده وشعبه من ظلمه واعتدائه ما لم يعانه شعب آخر؟ كيف يستعرض شاعر الوطن الكبير هذا (الفيلم) الطويل الطويل .. منذ احتلال بلاده الى اليوم الذي يندحر فيه هذا العدو فيجلو منهاراً مهزوماً منحلاً باكياً على مجده الذي صنعه ظلماً وعدواناً ..

امة الطليان هل انتم بشر ؟   ام لئام الاصل من جنس الغجر

ارأيتم كيف يجزى من طغى   وشهدتم كيف عقبى من غدر؟

ذقتموا ما تستحقون.. وهل   يحصد الزارع الا ما بذر

هكذا عاقبة الظلم اذا   ازفت لا تنتهي الا بشر

دولة الجور اضمحلت وهوى   نجمها .. اليوم بنحس مستمر

خسف الله بها مذ جاوزت   حدها ثم استطالت من يطر

طمعت فيما سما عن قدرها   طمع الارنب في وصل القمر

طمعت في مصر .. ما اوقحها اتظن النيل (تانا) او (هرر؟)

يشير شاعرنا الى طمع ايطاليا ابان الحرب الكونية الثانية في احتلال مصر وظنت ان مصر سهلة المنال مثل (تانا) وهي بحيرة في الحبشة ينبع منها النيل الازرق المتصل بالنيل الابيض عند الخرطوم ويكونان المجرى الجبار الصاعدالى الشمال .. والذي يطلق عليه نهر النيل .. اما (هرر) فتقع شمالي الحبشة ضمتها الحبشة الى امبراطوريتها .

نفخ الشيطان في يافوخها فتمادت في غرور واشر
ليس للمغرور من غفلته واعظ الا التردي في الخطر
وقعت في ورطة فانتبهت حين لا يغني انتباه وحذر
قضي الامر .. فهذا جيشها فر.. في كل مكان واندحر
فر لا يدري على شيء فقل لنعام جافل اين المفر ؟
لو فررتم تحت اطباق السرى لنقذناها عليكم .. كالقدر
ليس يغنى حذر من قدر ما لكم من ملجأ الا سقر
اتفرون ولما ننتقم ؟ للشهيد الباسل الشيخ الابر
عمر المختار ينسى ثاره ؟ يا لقومي..يالثارات عمر!!

ولم يقف العدوان عند حده .. فهو في طريقه إلى الهزيمة وهو العالم انه الفاني المقبور في هذه الصحراء .. وما زال بكفره وطغيانه حقوداً على الاهالي جاحداً بالمروءة ناكراً للانسانية .. واسرة اجعوده كان من بينها المجاهد الكبير علي اجعوده في مصر وفي جيش التحرير بالذات إذ لبى نداء الادريس في أول حركة

دعا إليها عاهلنا المفدى وقد كان مجاهداً منذ نعومة اظفاره .. فمنذ دخول ايطاليا المدينة بنغازي هرع محارباً في الأدوار ثم في طرابلس وله باع في التأسيس الوطني وهو غني عن التعريف .. العدو في طريقه إلى الهزيمة ولكن يأبى إلا أن يعتدي على آل جعودة وبينهم الشيخ صالح وابو بكر والأخير شاعر الوطنية المشهور بالعامية وكان الايطاليون يتربصون به الدوائر وقد جاء في ديوان رفيق (الأول)فاجعة الغدر تمثل تلك النكبة المروعةالتي وقعت في بنغازي عام١٩٤١ اثناء عودة ايطاليا إلى بنغازي في الزحوفات ، وتنكيلها بالوطنيين دون تمييز وقد سقط مئات الرجال بفعل التنكيل الايطالي الغـــادر وببعض ممن اشترك ذووهم بالجيش السنوسى الذي تكون عام ١٩٤٠ . وكان المغيرون المعتدون يستعينون بالجيش الايطـالي بحجة البحث عن المختبئين من جنود العدو فكانت المعارك ، وكان القتل بين المواطنين والمدنيين الايطاليين ورجال جيشهم .. وكان افظع هذه النكبات ما لقيته اسرة جعودة التي ذهب ضحيتها خمسة اشخاص من بيت وأحد ثلاثة اخوة وهم صالح ابراهيم جعودة واخواه موسى وابو بكر .. وابناء صالح وهما عثمان وابراهيم .. وقد اتخذت بنغازي شعاراً للذكرى بان تحتفل بها سنوياً تكريماً لبطولة الشهداء وفي هذا قال رفيق :

أهاجت اسى في القلب فاجعة الغدر ... فبت ولي بين الجوانح كالجمر
تؤرقني ذكرى فراق احبـــة ... هم الشهـداء الخالدون على الدهر
قضوا في دفاع عن حمى العرض انهم ... اسود تواصوا في المنية بالصبر
لئن فجعتنا النائبـــات بفقدهم ... فيارب رزء كان مجلبـة الفخر
اباة تمنى كل حر كموتهم ... حياة.. هي التخليد في اطيب الذكر
هنيئاً لكم في الفخر (آل جعودة) ... مناقبكم كادت تجـل عن الاجر

اشاركم في الصيت لست مؤنباً

ولا مادحاً .. لكن مدحت بكم شعري

فلا تحسبوني قلت مـــا قلت طالباً

لشكر .. فما بين الاحبة من شكري

وكيف ولي فيكم أب كان (صالحاً)

وكان شقيق الروح منكم (ابو بكر)

فتى كان في حريـة وترفــع

وعزة نفس أروع القلب كالصقر

فتى كله روح من الشعر ملهب

يفيض حيـاء .. كالمخدرة البكر

ستبقى لكم في قلب مكانـــة

وتذكركم أوطانكم ساعـة العسر

رزيتكم كانت كاصدق شاهـــد

لمـــا فعل القوم اللئام من الغدر

طغوا مـــدة .. فالله شتت شملهم

وعاقبهـــم بالخزي والذل والقهر

هذه وطنيات رفيق .. وهذا لون من الوان الهامه عندما يضجره شعور الاحساس بالواجب نحو الوطن .. ورفيق على ما اعتقد انه ليس من طبعه ان يتشفى ولكن ما عاشه من ألم وتنكيل وتشريد واذلال ابعاد .. كل هذا يحمله الى ان يتشفى ممن انهزم بعد صولة وذل بعد كبرياء ، وانحط بعد علو وجلا بعد استقرار .. وانحل بعد تماسك . وخسىء بعد تجاوز حد الفتك بالابرياء .. و..

ان رفيق لم يقل شعره لأنه من طبعه ان ينتقم من المهزوم الصريع ولكن الظلم الذي عاشه وعاناه حرك لسانه ليصف عدوه مهزوماً وحرك فؤاده ليستلهم الشعر وحرك يراعه ليأتي بالعبقرية وقوم وجدانه ليقول الى آل جعودة :

اشارككم في الصيت لست مؤنبـــاً
ولا مادحاً .. لكن مدحت بكم شعري

٣٨

فذلكة من التاريخ

المرحوم فتحي الكيخيا نجل المرحوم عمر باشا الكيخيا تزوج في القاهرة او الاسكندرية ابنة محمود خيري باشا في عام ١٩٣٦ وكان المرحوم فتحي محامياً لامعاً بالمحاكم المختلطة آنذاك .. ومن الانصاف ان نشير إلى ان مصر كانت ترزح تحت وطأة استعمار بغيض وكانت الامتيازات تعقد اللسان عن التعبير ، وكان يكفي للاجنبي ان يكون تابعاً لأية دولة فيفعل ما اراد ولو اقتراف جرائم القتل ثم يعمد الى السفارة التابع لها فتؤمنه وتتدخــل في مصيره بحجة الترحيل ولا تستطيع يد العدالة في مصر ان تمتد اليه .. وظلت مصر يهيمن عليها هذا الوضع البغيض فترة طويلة حتى قيض لها الله من بينها من يعمل وينجح في الغاء الامتيازات الاجنبية وهو المغفور له النحاس باشا رئيس حزب الوفد المصري وهو شخصية من شخصيات مصر المجاهدة واحــد ابطال الحرية وتلميذ للمغفور له سعد باشا زغلول .. ومن هنــا كانت المحاكم المختلطة هي المحاكم العاملة والمفيدة والتي تجمع شتى المحامين من الاجانب .. وكان ضمن المحامين المغفور له فتحي الكيخيا، فهو عندما حصل على الدكتوراه من جامعة السربون في فرنسا رجع الى بلاده ثم اختار مصر محل اقامة له اذ كان المرحوم الدكتور فتحي عفيفاً عزيزا ربي في بيت النعمة والشرف اذ كان النجل الوحيد لعمر باشا الكيخيا ولما كانت ايطاليا

تحتل ليبيا والليبي لا يجد العيش الشريف الخالي من الاهانة والاستبداد في بلاده فان الاحرار الاعزاء كانوا لا يجدون في الاستقرار بليبيا حياة بمعنى ما يوفر لهم عزتهم وكرامتهم .. ولم يختر الحيـــاة بليبيا الا من ثقلت عليه الحياة وقصرت رجله عن السفر وبترت مسئولياته العائلية فلم يجد بدأ من الأقامة ببلاده على اية حال .. وهنا يطيب لي ذكر حقيقة ما تنفك متأججة تتحرك في مخيلتي الا وهي أي الجانبين كان على صواب .. من فضل ان يعيش بعيداً عن الوطن حتى يأمن حياته الافضل خـــارج بلاده .. وحتى يتمتع بحريته ويضمن رأسه من مشانق الطليان ؟ اما المواطن الذي عاش على اديم ارضـه وفي ربوع بلاده على احر من الجمر وعلى امض من رمد العين معرضاً لرجمه بكل انواع الدسائس .. رأسه في الخطر ورجلاه تخطوان في تؤدة الخائف الراجف المتوقع امراً خطيراً او باعثاً مزرياً .. او الحاقاً به كل انواع العذاب ؟؟ الحكم نتركه للتاريخ ولمن سيتناول قضية الوطنية بالتحليل والدراسة الوافية ..

الدكتور فتحي عمر منصور باشا فضل ان يعيش في الاسكندرية اذ كان الظرف عصيباً وكانت عزة نفسه تأبى الذلة والتعرض للاهانة .. وكان والده المرحوم عمر باشا مطارداً من ايطاليا ، متابعـــاً من سلطات الفاشيست .. وكنت ساعة كتابة هذه الاسطر استعرض بعض النقاط التاريخية من شخصية عاصرت العهد الايطالي بترهاته وآلامه فذكر قوله : انني ما زلت اذكر شارع العقيب .. واذكر ذات يوم خرجت مظاهرة كبيرة من الفاشيست تجوب البلاد منادية بالويل والثبور لعمر باشا خائن ايطاليـــا وكانت تتزعم المظاهرة فتاة في العشرين تحمل شعار الفاشيست وتهتف بالمتظاهرين (حاكموا الكيخيا) وكان عمر باشا تلك اللحظات في ديوانه بمنزله في تلك الغرفـة التي ألفها سجناً له والتي عاصرت اللذة والألم ، العزة والاهانة دخلها العظماء والقادة والزعماء .. كما دخلها الحراس والسجانون والارهابيون والطغاة والمنكلون . وهجم المتظاهرون الافا مؤلفة على منزل الباشا .. واغلقوا الشوارع المؤدية الى المنزل ولولا تدخل

رجال البوليس .. (الكرابنيري) الايطالي لقتل المتظاهرون عمر باشا في منزله .. وفتحي الكيخيا كان اول رئيس وزراء لبرقة عند اعلان استقلالها .. ثم وزيراً للعدل وتوقيعه ما زال يمهر قوانين ليبيا حتى الآن . . وكان نائباً لرئيس وزراء ليبيا ، وتوفى أثر مرض عضال في امريكا حينما كان سفيراً لليبيا بالولايات المتحدة .. وبكاه والده العجوز .. اما عمر باشا فكان رئيساً للوزارة البرقاوية عام ١٩٤٩ — ١٩٥٠ ثم رئيساً لمجلس الشيوخ وكان اديباً ورعاً تقياً .. شجاعاً ذا اقدام وبسالة لا تأخذه في الله لومة لائم وقد طويت بوفاته صفحة مشرفة من صفحات تاريخ الوطن وهو من اوائل من مثل بلاده في المجلس التركي وكانت له مواقفه الخالدة كعربي يدافع عن قضايا الشعوب العربية التي يحوزها نطاق دولة الباب العالي .. ونال الباشوية اثناء مقابلة له مع السلطان عبد الحميد .. ذلك السلطان الذي ذاع صيته ، ونال من حظوة الجلالة ما ناله هارون الرشيد في عصره .. غير ان التاريخ يصف عهد السلطان الكبير عبد الحميد بعصر الانحلال ومرض دولة الباب العالي .

ورفيق .. شاعرنا الوفي لا بد وان يكون صديقاً لمن يعز نفسه ، وفياً لمن يستحق وفاءه ومن ثم فان الدكتور فتحي الكيخيا سينال من شعر رفيق قسطاً يشاركه احتفاله بزواجه من اسرة مصرية عريقة في المجد ولا بد ان يكون لمصاهرة بيتي الباشوية بيت الكيخيا وبيت محمود خيري المنتمي للاسرة المالكة في مصر .. فكان شعور رفيق يفيض بالقصيدة التالية :

بالسعد واليمن في عز واقبال ... زواج اروع سمح الخلق مفضال
فتى المعالي سليل المجد من شرفت ... اصوله بكريم العم والخال
يا اصدق الناس في ودي واكرمهم ... عندي واولهم ذكراً على بالي
اليك من صادق في الود تهنئة ... يزفها بين اخلاص واجلال
مبادراً لك بالبشرى على ثقة ... بما ستحظى به من نيل آمال

ان اتحادكما في الاسم دل على ... حسن الوفاق وهذا احسن الفال
اما بلوغك للعلياء شاهده ... علو نفسك بل تحصيلك العالي
قد خاب فال امرىء بالجهل مغتبط ... يظن ان بلوغ المجد بالمال
وانما المجد طود ليس يضرعه ... ذو المال الا باخلاق وافعال
كمثل فعل ابن منصور سما وعلا ... كأنه الصقر فوق المرقب العالي
مستيقظ لمعالي ليس يغفل عن ... اسداء مكرمة من غير منوال
يكفيك ان تقتدي في المكرمات به ... فانه واحد من غير امثال
يا صاحبي هذه بالعرس تهنئتي ... وعن قريب اهنيكم بانجال
سررت والله لكن كان لي أمل ... أني اكون لديكم ناعم البال
اهيم في العرس اياما اسجلها ... في العمر من خير ايامي واعمالي
يا لهف قلبي على ما مر من زمن ... زاه بكم وبقرب الصحب والآل

الظاهر من القصيدة ان شاعرنا أرسل بها ولم يحضر الزفاف لان تأوه رفيق وتمنيه ، ان لو كان في العرس هائماً يدل على ان القصيدة ارسلت للمرحوم الدكتور فتحي وانه كان في بنغازي بينما جرى احتفال الزفاف بالقاهرة . ويقول من حضر الزفاف ان اكبر شخصيات ذلك العهد حضر زفاف المرحوم الدكتور فتحي ، غير انه من الملاحظ في القصيدة بان رفيق تمنى للدكتور فتحي انجالاً ، والمعروف ان الدكتور فتحي طيب الله ثراه لم ينجب خلفاً ، وتوفي دون وريث .

الشاهي ..

مذ زمن احمل خواطر عن الشاي .. انني اتمنى ان يوجد شيء على شعبنا يحل محل هذه (الطبخة) التي سببت لشعبنا اضخم مشكلة اجتماعية ، إلا وهي مشكلة الكسل وضياع الوقت في جلسة الشاي وحضرة (البراد) يفور على النار .. حتى يسود ما بداخله ثم تدار الاكواب على الجلاس في احاديث جلها عن الناس .. طفت جل مدن المملكة فما كنت أرى شارعاً في مدينة يخلو من جماعة يجلسون على حافة الطرقات وامام الدكاكين وفي الوكالات فضلا عن المنازل ومجالس للسهر .. والجميع منهمكون على الشاي .. النار تضرم (البراد) و (البراد) يفور بعصارة الشاي مسودة قاع الأكواب .. ثم يتهافت هؤلاء كل يشتكي مرضاً من الأمراض المزمنة .. لقد آن للشعب في عصر ازدهاره ووعيه وكالياته ان ينبذ هذا الشراب الذي اورثهم مرض البطالة والكسالة والجلوس الطويل .. ان الشعوب الناهضة ليس فيها اليوم اقفية تألف الجلوس الطويل في انتظار طعم اصبح عادة كعادات الافيون والمخدرات .. واني مقدماً اختلف مع رفيق فيما دعا اليه من رأي مخالف .. ولعل رفيق كان يعتز بالذكرى التي تخلى عنها زمناً طويلا وهو يحن الى الشاي من قبيل العادة والعرف .. فهو يقول :

هات اسقني روحي فداك الأخضرا ... شاياً كساه الماء لوناً اخضرا

كالتبر من خلف اللآلي فوقه ... حبب كتاج بالجواهر . صدرا

لله منظره .. اذا جاءوا .. به ... صفا .. على طبق .. فشاق وابهرا

كل اللذائذ .. فيه قد جمعت كما ... قد قيل .. كل الصيد في جوف الفرا

لون ورائحة وطعم .. كلها ... من حسن خلق الماء صادف سكرا

في الأنف طيب ·· في اللسان حلاوة   في العين نور يستميل ·· المبصرا
ينفي الخمول عن العقول ولن ترى   عوناً سواه لمن يبيت مفـــكرا
نعم الرفيق لمن على سفر ·· فكم   حمد المسافر غب نشوته السرى
يعطي نشاطاً والنشاط اذا سرى   للروح كان هو السرور بلا مرا
كالخمر في جلب السرور ولم يكن   كالخمر مراً ·· أو حراماً مسكرا
ما في عواقبـــه سفاه ·· كالتي   تكسو الحليم ·· من السفاهة مئزرا
لا خير في اللذات يتبعهـا اذى   كالخمر شاربهـا يفيق مـكدرا
شتان بين الشيء تفعل شاكرا   والشيء تفعل ·· خائفاً متسترا
فاشرب جهاراً من حلال طيب   من ذاقـه شكر الاله وكبرا
نعم الشراب فليس يسمع شاربا   في شربه لغوا ولا (اطرق كرا)
فعليه كم عقد الوداد مجالساً   فيها ·· وإن هو دار ·· كان المحورا
وعليه يظهر ذوق صانعه فلا   تجعل نديمك فيه الا .. خبيرا
وتزيد لذته النظافة ·· انها   شرط له ولمن عليـه تأمرا
فاذا اردت به السرور ·· مكملا   فاختر له حلو الشمائل ·· ازهرا
يسقيك قبل الكاس من انفاسه   سحراً حلالا بالعفاف مطهرا
لا تنقصن عن الثلاث ولا تزد   في عادة ·· عرف البلاد ·· بها جرى
من عادة الأولى كبكر طبعهـا   قبض يسير إذ يجيئى مكررا
حتى إذا النعنـاع خالط كأسه   سالت به عسلا وفاحت عنبرا
وإذا أتى مسك الختام متوجاً   باللوز .. فاحبب ان يكون محمرا

قول رفيق (كل الصيد في جوف الفرا) مثل شائع بمعنى ان الشيء يحوي

كل شيء وقوله (بلا مرا) يعني بدون جدال من المجاراة .. اما قوله (اطرق كرا) فيعنى ترخيم كروان ، وهو هنـا يقصد خلو مجالس الخمر من العربدة والشغب ..

وقد رأينا شاعرنا في هذه القصيدة وهو يحلل عادة شرب الشاي ويسمو بها عن المجالس الاخرى مثـل مجالس الخمر .. وبديهي ان الشاعر يضفي من السمو على ندوة الشاي ما يضفيه بالنسبة لوضاعة مجالس الخمر التي قد لا تغب بسوء الضرر .. غير انه اطرى هذه العادة اطراءه ليتفق مع الشعر الشعبي الذي تناول الشاي بشتى القصائد، غير ان رفيق ساند مبدأ الشاي في ادواره الثلاثة .. أي الطهي الاول ويكون مراً .. ثم الطهية الثانية فتكون حلوة ثم الثالثة ارادها رفيق انتكون باللوز المحمر .. بدلاً من (الكاكوية) اما شعراء البادية فمنهم من ذهب بالشاي الى ادوار سبعة ، بدليل البيت القائل :

اندیرو فيهن سبـع ادوار ..
اللي خطار ..
الشايب عارك نين ابطل
اطبـع في واشو ناسب
او تاني ثار

٣٩

وكأن الجسم ثوب اذا لصق

فعلاً .. كثيرون من الناس تشنف آذانهم العذوبـــة التي تربط الفصحى ببعض الالفاظ العامية .. وحتى القصيدة التي تتكون تعبيراتهـا أحياناً ببعض الألفاظ المألوفة المحلية .... تدخل على الاذن رنة محببة السماع ذلك ان ربط الجملة بتعبير محلي مشوق تطرب له النفس التي تألف تلك العبارات الشعبية وكما اسلفنا في مقال سابق .. هـــذا النمط او اللون من الشعر يظهر داخـل نطاق القصيدة العربية - فلكلور - الناحية او المكان الذي تقال فيه القصيدة .. فتحس النفس بشيء من الراحة للاستماع خـــلال قراءتها للقصيدة كاملة .. .. ورفيق اغنى الشعراء بهذه التندرات و « القفشات » المطربـــة الحية .. ففي قصيدته عن الصيف نراه يضجر قلقاً به .. وينعته نعتاً يدل باللغة الدارجة على السآمة ممن لا مفر من قبوله .. فيقول « عمي الصيف » وهو تعبـــير يدل على الضجر والقلق ... والعصبان اكلة محلية وهو حشو لامعاء الشياة ببعض البقول مخلوطة بالارز والكبد والرئة والقلب من الشاة .. وعبارة « وسقة » تعني ملأ التاريخ من الاشياء ..

جاء « عمي » الصيف وانهل العرق   فغدونا فيه لحمـــاً في مرق

بل ولا تشبيه « كالعصبان » في　　القدر لولا رحمـــة الله احترق
ينشف الريق فمن لأوائـــه　　يشرب الانسان حتى ينفلـــق
ويسح العرق الساهك لا　　يمنع المنديل منه لا الخرق
وتضيق الروح والانفـــاس من　　« وسقة » المعـــدة حتى تختنق
واذ المرء ارتخت « اعضـاؤه »　　وسرت منها الى الروح القلق
ظن و « الظن هو الخوف هنـا »　　انـه والله يرعاك .. انفتـــق

تندر لطيف خفيف ووصف فيه دعابة ورقة .. وقول ينبي عن الشاعر ونفسيته المرحة الخفيفة الظريفة وسبك حلو دسم عميـق .. يعطي المضمون في اطار جميل وجمل تقرب الى الفهم وسهلة الوصول الى المؤدى والغرض .. فهو يصف الصيف بأنه عمه الثقيل فحين جاءه انهل العرق حتى بات منه كاللحم في الماء الذي تصطلي تحته النار..فالماء مرق آخذ من اللحم قوته بل وبدون تشبيه كالعصبان في القدر لولا رحمـة الله كاد يحترق .. والصيف ينشف الريق ومن جرائه يطفق الانسان يبحث عن الماء ليشرب رتيباً وتباعاً حتى ينفلق مما دخل جوفه من ماء والانسان في الصيف دائب مسح العرق حتى ان المنديل او الخرق لا تمنع من كثرة نضوحه والروح تضيق بالحر فتنكمش الانفاس تضيق سيما اذا اكل المرء «فوسق» معدته حتى يشعر انه اختنق .. فاذا ما المرء احس بأرتخاء اعضائه ..وقلقت النفس ظن ..والشعور بالظن هذا هو نفس الخوف ..ظن انه سلمك الله انفتق وتمزقت احشاؤه ..

دخل الصيف ولكن كادت الر　　وح ان تخرج منـه وتطـق
زهقت من طـــول أيام له　　مل قلب الدهر منها وزهق
يكـثر النوم على المرء وان　　لم ينم فهو صريـع لم يفق

ومتى يهنأ بالنوم .. امرىء   من ذباب وبراغيث وبق
وسموم تلفح الوجـــه ولو   في وريف الظل أو تحت النفق
وعجاج يملأ الحلـــق فان   لم يسد العين في الوجه لصق
يترك الوجه (على الكيف) فصف   حسنه انت اذا ساح العرق

اجاد الشاعر وصفه واستقبح ظواهر الصيف حتى اجـــلاه في صورته التي يشعر فيها كل من يعيشها حقيقة الفصل اذا كان شديداً مروعاً .. .. يكثر النوم في هذا الفصل ومن لم ينم فأنه سيلتقى حتماً من عناء الحر ووطأته الشديدة .. والشاعر يتساءل كيف يهنأ امرىء بالنوم اذا كان حوله الذباب والبرغوث والبق تتماطر كلها في خشوم الشمس المحرقة التي تلفح بسمومها الوجوه ولو استظل المرء بالظل الوريف ؟؟ ولو تحت الانفاق .. وذلك العجاج الذي يملأ الحلوق.. واذا كان العجاج المتأجج لا يسد العيون فأنه دون شك سيلصق بالوجوه حتى تظهر تلك الوجوه (على الكيف) من ابشع ما تبدو فيه وعلى الكيف عبارة شعبية تعني العكس.. وصف ايها الواصف حسن الوجوه اذا التصقت بها الاغبرة وساح منها العرق ؟

جاء (عمي) الصيف واشتد فمن   كان ذا شحم فقل عنه انسحق
صار كالكعكة في الشمس متى   ذاب في باطنهـا السمن دفق
ساح لولا عظمه كان كما   زعموا ان صدقوا في وصف شق
يا له الله اذا ما ناجر   جاء (بالقبلى) واغبر الافق
ان مشى ابصرته منبهراً   لاهثاً..او حاول النطق شهق
عيشة البادن في الصيف اذا   يكرب الروح وضيق وقلق
ليس للبادن في الحر سوى   حفظه في الثلج صونا للرمق

والبدين .. السمين ماذا سيفعل به (عمنـا) الصيف ؟.. اذا اشتد الصيف وكان المرء ذا شحم فأنشر أخبـاره انه انسحق وصار كالكعكة في الشمس اذا ذاب باطنها ... يتدفق منها السمن الذي صنعت به وربما كان هذا الوصف بعيداً عن حقيقة البدين .. ولكن قول رفيق ساح .. السمين البدين ذو الشحم وصار كما وصفوا ذلك الكاهن الذي ذاب عندما شاهده .. متابعوه .. ويزيد في شدة وطأة الحر اذا جاء يوم (قبلي) فالرياح القبلية تزيد من ضجر الحرارة وقيظهـا وتصير الأفق مغبراً يضايق الأنفاس ... فالسمين تراه مثل هـــذا اليوم سائراً يلهث فإذا ما استنطقته لأمر شهق من كتمة أنفاسه وتعب صدره ، فالبادن السمين عيشه في الصيف يكرب روحه ويضيق عليه حياته ويقلق راحته.. وها هو رفيق يتندر بالسمين البدين ويجري فكاهته حوله فيقول : ليس للبدين إلا أن يحفظ نفسه في الثلج ليصون رمقه ويبقى على قيـــد الحياة .. ويظهر ان رفيق يقصد صديقاً ما .. سميناً يداعبه في الخفا بهذه القصيدة وإن لم يفصح رفيق عن هذا الاسم وأنا أرجح أن يكون هذا السمين المرحوم عمر فخري المحيشي ..

اقبـــل الصيف فأقبلنـا على	كل ما من شأنه يطفي الحرق
وتمنينـــا جمادي لو أتت	بجليد وصقيع .. ودهـــق
وألفنـــا كل شيء بارد	ورضيناه وان لم يتفـــق
غير (برد الوجه) لا يرضى به	لو شوته النار حتى من نهق
ان (برد الوجه) حاشاك اذا	كان فيمن يدعي الذوق قلق
وكذا الملحة ان جاء بهـــا	(سامط اي بارد) دق العنق
فحمـــانا الله في الحـــر من	البردايضاً.. رب برد قد حرق

الحر مغلق للتنفس ممل يخرب الحياة ويضيق خناق الروح ولا يجد الانسان في فصله إلا المبردات ينفس بها عن حرقته ولهفته حتى ان المرء يتمنى (جمادي)

وهو ما يجيء شتاء غالباً ليأتي بالجليد والصقيع والريح الباردة « الدمق » ذلك أخف وطأة من وطأة الضيقة والكدر والكرب، ورفيق يقول انه ألف المبردات تطفي من غلة لهثه ولكنه لا يطيق برد الوجه اذا كان فيمن يدعي الذوق.. يغلق صاحبه والملحة كذلك ان جاء بهـا « السامط اي البارد » السمج وقت العنق « يعني بالعامية » تقطع الهام .. وهو اذ يستغيث من الحر لا يريد كذلك شدة وطأة البرد التي تحرق كذلك .

حمى الصيف وحم الجو من	وهج القيظ فأضحى لم يطق
واستحال الكون فرناً حامياً	فالذي لم ينشو فيـه انسلق
غير ان الله مولانا .. بمـا	رحمة حف بلطف من خلق
فوقانا .. بامتداد الظل والـ	بحر والليل اذا الليـل غسق

الصيف حمي والجو حم من حر القيظ .. الحر الشديد فبات النهار لا يطاق والكون صار فرناً .. تنوراً حامياً .. وكل من في الكون من شدة وطأة البرد مصابون .. فمن لم يحترق منهم انسلق .. أي بدا عظماً ولحمه ذاب في عرقه .. ولكن الله لطيف بعباده حماهم من ناره الموقدة بالظل وبالليل وبالبحر ..غير أن الظل اذا كان في غير روضة غناء بغصونها وأوراقها .. وعند ضفاف مياه تجري تظللها الرياحين والورود والزهور العبقة بنداها وفواحها وعبوقها بالعطور الضائعة النسمات .. كان ذلك الظل يشبه ظل يوم الحشر فهو لا يغني شيئاً بوريفه بل يزيد المرء غمة وخنقاً وقلقاً وكربة .

لكن الظـــل اذا لم يك في	روضة تحت غصون وورق
عند ماء .. خضر .. حين جرى	وسط الريحان والزهر والعبق
كان ظلا مثل ظل الحشر لم	يغن شيئاً بل من الغم خنق

واذن فما هي المتعة في هذا الفصل الخانق المقلق ؟ قال رفيق :

متعة الصيف هى البحر فقل فيه ما شئت من المدح بحق
نسمات البحر . . ما ألطفها في العشيات اذا احمر الشفق
تنعش الروح اذا ما أقبلت كالندى في مثل انفاس الحبق
يقشعر البحر من تجميشها فترى الموج عليه يصطفق
وكأن الشمس في صفحته قطعة البلور لاحت تأتلق
بالحسن البحر في الصيف اذا لم تكن فيه كحيلات الحدق

انهن الخطر الاحمر في صورة البيض الدميثات الخلق .

يسفر الشاطىء منهن على فتنة يهلك فيها من علق
معرض للحسن قامت سوقه فتعالى الله ما شاء خلق
أعين زرق وشعر اصفر كشعاع الشمس في الفور انفرق
وجسوم أفصحت عن سرها كل شخص بارز منها نطق
غص ثوب البحر من حبكته فهو في الماء وبالماء شرق
فكان الجسم لا ثوب له وكان الجسم ثوب اذ لصق
هل رأيت العاج في الخز وهل ذقت معنى (وافق الشن الطبق)؟

يا للروعة في وصف البحر ووصف المصطافين والمصطافات . . ان رفيق أجاد الجودة كلها غير انه غير الحقيقة كما لو كان يعني خلاف ما يريد . . ما أروع البحر اذا خلا من كحيلات الحدق . . النساء . . . انهن خطر احمر في صورة البيض دميثات الخلق الطيبات . . ان الشاطىء يسفر على فتنة عجيبة حين . . . . والهالك في هذه الفتنة ذلك الرائي المشاهد المتعلق بنظر الرئام الرافلة الآمنة

العارية على الشاطىء الجميل . ان الشاطىء في الصيف معرض للحسن سوقه رائجة فتعالى الله من خالق وسبحانه ما خلق هذا للعرض يصف سلعه .. وسلعه رئام كواعب .. فتيات .. بعيونها الزرقاء وشعورها الصفر التي تتــلألأ في أشعة الشمس على المفروق أي « الجمـة » اذا هاج شعرها وعربــد ويعرض الشاطىء اجساماً تعبر عن سرها .. فهي عارية الا من دثار يستر العورة حتى كأن الجسم لا ثوب عليه وان الجسم هو الثوب حين التصق بالبدن .. ان هذه البشرية المغرية مثل الحرير الممتزج بالعاج وقصارى القول فقد وافق شن طبقة وهو مثل مشهور يقال عن المادتين المتشابهتين .. أي وصف للشاطىء والفتيات يرفلن يميسهن على رماله الدافئة .. ان رفيق أصدق من عبر عن حقيقة الشاطىء خلال الصيف .. ولم يسبقه الى هذه الجودة شاعر ليبي على الاطلاق ..

يستجير المرء بالبحر ومن ... يستجر يوماً بعرو يحترق
كيف ينجو من بلاء من رأى ... ربرب الشاطىء فيه يستبق
يتقلبن على ... ارجائه ... فقل«الحوت»على الظبي النزق
حركات تخلب اللب فمن ... لم تحركه « فجحش »لم يذق
حاطنا الله من البحر ومن ... شاطىءالبحرومن شرالحدق
فهناك الموت يا « حامي» فلا ... تقربالبحر.حذاريك..أفق!
« طائح المزال »من جاءت به ... ساعة النحس الى تلك الطرق

تعبير وتصوير وجمــال وتشويق .. ان الشاعر لم يــترك فرصة ولا حقيقة في الشاطىء الا رسمها بريشة الفنان المبدع .. ان قصيدة رفيق هذه لوحة فنية ثمينة معبرة تكاد تظهر للرائي لوحة الشاطىء معمومها بالجمال والافتتان .. ها هي البنات .. يتقلبن على الرمال في الشاطىء و « الحوت » وهو تعبير يقال محلياً للمناعة من العين .. أما الذي يرى هاته المناظر الفاتنة ولا يتحرك أويفتتن فانه بكل صراحة جحش لا ذوق عنده ولا احساس وقانا الله هـذه الفتنـة فلا

تقترب من الشاطىء لأن الموت فيه محدق من خلال هذه العيون المحدقة وهاته الرئام اللاعبة اللاهية الآمنة ..

ان « طائح المزال » من لا حظ له ولا توفيق هو ذلـــك النازل شاطىء جليانة ليرى موته هناك فإن منظرها لاهية لاعبة في (المايوه) على ما أبدع فيها الخالق من حسن وفتنة ..

بقي الليل ويا (عيني) على	آخر الليل إذا طال الأرق
قـد يقي الليل من الحر إذا	لم ينم فيـه النسيم المنطـلق
ويرى للنجم فيـه رونق	وكذا للبدر (ان لم ينسرق)
غير ان الليل في ظلمته	وحشة ينبيك عنها من عشق
يكثر الوسواس فيه ومتى	أكثر العقل(التخاريف)الخرق
خير ما في الصيف اوفي ليله	ساعة الفجر اذا الفجر انبثق
ثم يشتـد أذى الحـر الى	ان تكاد الروح من ضيق (تطق)
لا أذم الصيف لكن الذي	قلته فيه من الأوصاف حق
لو أردت الهجو اظهرت له	هفوات ليس فيها المختلق
وله بعض مزايا حسنت	تنمحي ان ساح أو فاح العرق
وقديماً قيل في استغرابها	«ربما يحدث في الصيف الزلق
واذا الصيف عـلى عـلاتـه	مر .. كالعادة والبرد طرق
تتمنـاه ومـا . . اكفرنـا	طينة الانسان شيبت بالرنق

بأي ريشة اعلق وبأي حسن اتابع الشعر هذا الذي اتصوره شاشة تبـدو رسومها متحركة حتى اخالها وانا أناقشها وأمعن فيهـا النظر ... البشرية الـتي وصفها رفيق تتحرك وتتكلم وتقترب مني رويداً رويداً .. حتى اصرخ وأنادي

من حولي فأجدني وحدي .. وحبذا لو كان قربا ما بيني وبين المتذوقين فأحيلهم إلى منظر هذه الشاشة التي تتحرك صورها وتتكلم بطلاتها .. ها أنا على شاطىء البحر أبصر إلى أمواجه وإلى رماله وأنظر إلى مئات الفتيات الرئام ..الحور.. الظبا .. البنات ... السابحـات يتمشين على الشاطىء ويرتمين على رمالـه في « المايوهات » يتضاحكن ويتحاكين ويتجاذبن بعضهن البعض وقد آمن امناً لا خوف في رحابه وجذلن وطربن .. وها انا اسمع بملأ أذني إلى الفتيات السابحات (اللاعبات وإلى سحر البحر وسحر الطبيعة وسحر الفاتنات .. أن الشاشة التي أجرى عليها رفيق قلمه هذا بقلمه في شعر مسبوك رقيق سهل ممتنع على غيره تعد بحق أول اسطورة شعرية يحلق بها رفيق مع القارىء في اجواء روحيـــة خيالية لا قبل بالانسان الضعيف حيالها ... انني أتمنى من كل أعماقي أن يقـرأ الناس هذه القصيدة بإمعان وبروح النقد فلنكن متفائلين ولنقرأ قصيدة رفيق هذه .. التي جعلت عنوانها وكان الجسم ثوب إذ لصق .. انني أود بكل اخلاص أن يقرأ كل انسان قصيدة رفيق هـــذه عن الصيف وعن البحر ووصفـــه للجمال بريشة الفنان المحب الذي يعشق الجمال .. ومن ثم يحب خالقه ومبدعه وفاطره .

* * *

٤٠

العتاب المهذب والدعابة البريئة ...

لم يخل شعر رفيق من الرمزيات فهو في جل منظوماته يضع اسماء بين القوسين.. وهو يقصد بهذه الأسماء أشخاصاً معينين.. والغريب ان قلة من اصدقائه يعرفون قصده من الاسماء ويقفون على جلية المناسبة التي قال فيها.. اما الديوان.. فإنه لم يشتمل على إيضاح المناسبة إلا بالقدر اليسير. ففي قصيدته عتاب جاء ما يلي: — ١٩٣٤ — هجره صديقه وأسرف وكان يحاول ترضيته ولكنه اكتشف اخيراً سر هذا الهجران ولم يشأ أن يسكت عن افهام صديقه معرفته السر من أوله الى آخره .. انني أنتحل العذر للجنة الرفيقيات فإنهم أوفياء للشاعر أخلاء أحباء لا يريدون كشف النقاب عن الكثير من المناسبات التي قد يرى البعض انها تتنافى ومكانة شاعرنا.. والحقيقة .. ان رفيق شاعر ملهم وذواق وابن مجتمع كله يحبه ويكرمه .. والشاعر كالنحلة التي تترحل بين الاشجار فلا تترك دوحاً أو عرفاً إلا ومصت منه موطن الحلاوة .. والشاعر الحي الجديد دائب التجوال .. باحثاً عن الحقيقة حلوها ومرها فتتصور له الحقيقة الحلوة في كل وجه صبوح جميل وتتصور له الحقيقة المرة في كل وجه عابس شاحب مقطب وإذن فلا تثريب على رفيق اذا اوضحنا للقارىء بعض ملامح شعره بتفسيره الحقيقي وفي مناسبته دون

تحفظ .. فإن رفيق قال الشعر منذ نعومة اظفاره ولم يولد رفيق عضواً بمجلس الشيوخ ، فلقد نشأ شاباً يمتع نفسه بكل ملذات الحياة فلم يترك سانحة طيبة منفسة إلا واستغلها لإيمانه بأنه انسان مصيره الفناء والعدم .. وتناهبته السنون .. وأكلته الايام . وعجمت عوده المآسي .. فكان رفيق يتحول مع مفارقات الزمن ناهباً فرصة لنفسه يسجلها ببيانه وسحر إلهامه في قصيدة .. وهكذا .. كانت قصائد رفيق كلها سفراً لتاريخ صادق الصفحات ناصع البيانات وضاء الدفتين ومن هنا نقول ان رفيق في قصيدته « عتاب » أراد تسجيل حادثة لأصحابه فهو افتقدهم ليلة وتمتعوا بوقت ربما بخلوا به على رفيق فسهروا ليلتهم على مائدة خمر تدور بكأسهم امرأة نادمتهم ليلتهم تلك ومن جلاس تلك السهرة .. « معطى » و « ناجحة » وربما كانت ناجحة هي اللغز أو الاسم الحقيقي للمرأة التي تدير على الندماء كأسهم . وقد وصف رفيق هذه الليلة بعبارة محلية « رابخة » ويقصد بها « التربيخة » وهي الوقت الذي يصبو فيه المرء ويعده متعة سانحة .. ولكن رفيق علم صباحاً بما حدث لجماعته .. فقد مرت « الدورية » بالمكان الذي يجتمع فيه اصدقاؤه وسمعت أو أنبئت بالضوضاء والصخب .. فدخلت عليهم مكانهم واقتادتهم الى مركز البوليس حيث اوقفوا تلك الليلة حتى الصباح وحتى حضر ضابط المركز وكان صديقاً لأحدهم .. فأخلى سبيلهم .. وقد عيرهم رفيق بالفضيحة ولكن في دعابة المخلص الحبيب .

يا أيها المسرف في هجرنا غرت بنا سيرتك الصالحة
كنا نظن الصمت من حكمة فيك وفي آرائك الراجحة
حتى أتانا خبر صادق جاء به ناقله البارحة
حدثنا من لم يكن كاذباً عنك وعن «معطى» وعن «ناجحة»
تأتيكما غبا وفى خفية تسرح مثل الظبية السانحة
تظل طول الليل في سكرة لاعبة .. لاهية .. جامحة

تسلب لب التقي عنوة   تجد بالعاشق .. كالمازحة

يقول ديوان رفيق في حاشيته انظر الى قصة معلم اودانيا في الفية رفيق فهي تعطيك صورة عن هذا المسرف .

في كل ما يملكه الصب من   جارحة الفاظها جارحة
ذات دلال وجمال .. لها   محاسن ..بينة .. واضحة
أنبأنا المخبر عن ليلة   « رائحة » طيبة .. صالحة
للراح فيمـــا بينكم جولة   تمشي الزجاجات بها نازحة
والنقل .. والمزة مبذولـة   من حلوة حامضة مالحة
والموز والتفاح مقشورة   اطباقها مملوءة طافحة
و « البيرة » الصفراء مثلوجة   تديرها بعد الغنا « ناجحة »
وكلما مالت إلى جانب   فاحت من العطر لها رائحة
وهكذا للصبح في لذة   قد اعقبتها وقعة فاضحة
مـرت بقرب الدار دوريـة   أوقفها الصائح والصائحة
ازعجتم النـــاس بأصواتكم   والناس تبغي راحة جانحة
ساقتكم الشرطة تمشي بكم   والناس في افعالكم قادحـة
زجـــوكم في السجن أتى   رئيس تلك الشرطة الفالحة
سرحكم اذ انه صاحب   لولاه كانت حالة فادحـة
هذا الذي الهاك عنا فما   قولك ما حجتك الواضحة

وها هورفيق في عتابه مرة أخرى ولكنه عتاب رقيق أملس الكلمات رطب

العبارة فيه دلال ومحبة ورحمة ... وأي عتاب يصل هذا المستوى من اللياقة والتسامح حين يخاطب « أبا فكري » وينزل عن القصاص ويرحب بالهجر دون غضب ومن قبيل الوفاء فقد مرت ثلاثة أشهر على صديقه لم يره خلالها فهومشغول بدرسه وتعليم تلامذته.. ان رفيق كثيراً ما ينحو بالعتاب ناحية الرقة والتسامح حتى يخرج به عن حيزه المعروف وكم من عتاب اورث قطيعة ولكن شاعرنا يحلو له التواصل بالعتاب فيسكب في صحته كل إلهامه ومفرداته وعباراته الشيقة العذبة الحنونة الرخية وهو بهذا يمسك بزمام الوفاء فلا يعتريه انفصام ولا تقطع ومن ثم كان رفيق مع اصدقائه محبوباً متصل المودة ... يعز عليه ان يفارقه أحدهم ومن هنا كان رفيق شديد الولع في غربته إلى وطنه وذكرياته ومنازله ..

اطلت الهجر فاخترت العتابا ... وكان الحق اختار العقابا
قصاص والقصاص العدل. لكن ... رأيت العفو يفضله ثوابا
اجازي قبح هجركمو .. بهجر ... جميل لا يكلفني .. خطابا
ولكني لأحبابي وفي ... إذا هجروا خلقت لهم متابا
بقاء الحب اعفاء وصفح ... وان لا تكثرن فيه العتابا
احافظ ما استطعت على صديقي ... واحفظه حضوراً أو غيابا
فما بالي الاقي كل يوم ... من الأحباب حزناً واكتئابا
اذاك لسوء حظي أو لجهلي ... بمن اختار احسبهم صحابا
سؤال لا يجيب عليه الا ... (ابو فكري) اذا شاء الجوابا
فقل يا أخي ما لعذر فيما ... فعلت فقد اطلت لنا العذابا
ثلاثة أشهر مرت هباء ... فلا خبراً بعثت ولا كتابا
ستذكر ان ذلك لانشغال ... بتعليم التلاميذ الكتابا
قبلنا ما اعتذرت به نهارا ... فهات لنا عن الليل الحسابا

اظنك طول ليلك في صلاة فتحت بـه الدعـاء المستجابا
رويدك لست أول من يجهل عصى ربي وآخر من أنابـا
تقوم الليل تسبيحاً وذكراً تريد به الى الفردوس بابـاً
رضينا عن حساب الليل أيضاً لأنك بالعبادة لن تعابـا
أما لك بعد في الأسبوع يوم تحط به الى الديمة الركابا ؟
ستذكر ان ذاك اليوم عيد ستحلق ثم تنتخب الثيابا
تريح النفس من اصلاح قوم لهم صادفت أدمغة صلابا
شغلوك عنا يا حكيم (وما فهموا) ولا بلغوا اطلابا
ألم تسمع من الحكم الغوالي لشوقي فهي ترشدك الصوابا
(وليس بعامر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا)
أريد الصدق منك وأنت أهل أعيذك أن تخادعني جوابا
اذا لم تشف انفسنا بعذر بلخص ما يخالجنا .. ارتيابا
سنسأل عنك (معطي) حين يأتي فيكشف عن حقيقتك النقابا
يجاذبني اليك الشوق قلبا اذا صبرته خفق اضطرابا

عتاب كله الغاز و (معطي) ما زال معنا .. وهذه القصيدة واضحة الدلالة ان رفيق يتساءل في رقته لماذا غاب عنه صديقه طوال هذه المدة فاذا تحجج بالتدريس فإن حجته مردودة لأن التدريس بالنهار وليس بالليل وإذا قال انه يتعبد ليلاً فحجة مقبولة على كل حال . ولكن اليس له في الأسبوع يوم راحة لما لا يأتي إلى اصدقائه فيقضي هذا اليوم معهم في صحبة وانتهاز فرص ، ثم يهدد ابا فكري بقوله سيسأل «معطي» عنه ويظهر أن معطي كان على بينة من أمر رفيق وأصدقاء رفيق والخلاصة في هذه القصيدة انها رقيقة شافية للغرض لها مضمون جميل في لغز اعتاد شاعرنا ان يجعله دائماً في أسلوبه الدعابي ..

وقصيدة «دراهمي سرقت» فإن الكلام فيها موجــــه إلى المرحوم الحاج موسى البرعصي الذي كان صديقاً وخليلا للمرحوم رفيق وكانا رفيقين يقضيان سهراتهما معاً وبصحبة أصدقاء آخرين .. والحاج موسى كان من سكان منطقـة « سيدي حسين » وكان عارفاً باراً بأصحابه دائم الصلة بهم يسأل إذا غـــابوا ويفرح إذا حضروا ومن بـــين أصحاب رفيق الحاج سليمان الصلابي المحامي وهو معروف بسلامة نيته وطيبة قلبه يقبل مزاح اخوانه في سعة صدر ونبل معاملة .. وهو محل تجلة عارفيه فقد عاش حتى الآن محباً للخير ساعياً في كل عمـل وطني ولعل اللجان التي تكونت في ليبيا لنصرة فلسطين والجزائرخيرشاهد على فعاله وسبقه للأعمال الوطنية والخيرية وفضلا عن هذا كله فالحاج سليمان الصلابي دائم الابتسامة قل أن تراه غاضباً أو مكروباً .. وفي هذه القصيدة يظهر ان شاعرنا كان في جلسة «ببراكة» الحاج سليمان .. والبراكة غالباً تطلق على الأكشاك التي تخصص في شاطىء جليانة للمصطافين ... ويظهر أن رفيق ادعى ضياع نقود لديه وقال انها ضاعت ببراكة الحاج سليمان وهذا الواقع ذلك ان رفيق أراد ان يهـــدد اصحابه بقصيدة ليولموا له وليمة «عزومة» فتخيل ضياع نقوده بالبراكة وكتب إلى الحاج موسى البرعصي يشتكيهم عنده حتى يحكم لـه بايلام وليمة يحضرها الأصحاب .

وقد جاء في ديوان رفيق تحت عنوان دراهمي سرقت ، ١٩٣٤ – يشتكي للحاج موسى وربما أدخله في الشكوى من فقدانه بعض النقود ويريد ان يلقـي اللوم على صاحبه أو مضيفه لأنه لا يختار الأمين من الخدم ولذلـك فهو يقترح تغريمه لا بدفع النقود ولكن بما هو ادهى وذلك باقامة وليمة تأديبـاً له وتنبيهاً لكي يحتاط.. هذا ما ورد في الكتاب تحت عنوان القصيدة هو ما جاء في تعليقي عليها ..اصدقاء يقضون فراغهم ليلا ببراكة على شاطىء مصيف جليانة يسهرون ويستمتعون بالأيام .. وشاعرنا عن له ان يشنف اذانهم بقصيدة يدعي فيهـــا دعواه هذه :

يا سيدي موسى اليك شكايتي — مما دهى جيبي من الأصحاب
كنا مع الأصحاب في (براكة) — مشئومة الأعتاب والأبواب
رحنا لكي نحيي النفوس ونلتقي — فيها ونلعب جائز الألعاب
ولقد تمتعنا بكل لذيذة — من مأكل وفواكه وشراب
وفكاهة ونوادر ولطائف — ومباحث راقت ذوي الألباب
حتى توارت بالحجاب وخلفت — أستار ليل حالك الجلباب

وأشار رفيق إلى الشمس .. والذي يظهر لي ان القصيدة ناقصة لأن هـذا المصراع لا بد وان سبقه ما يشير بوضوح إلى الشمس وهي طبيعة شعرية لا بـد منها .. غير ان ديوان رفيق لم يشر إلى هذا ولو من طرف خفي أو بتعليق .

قمنا وقد آن الرواح وكلنا — متأثر من فرقة الأحباب
عدنا المساء الى المدينة وانتهت — تلك السياحة لي بشر مآب
لما تفارقنا جلست بقهوة — كي يستريح الجسم من اتعاب
فتشت جيبي ما وجدت دراهمي — فشككت في نفس وعدت حسابي
حققت فيما صرفت وما بقي — فعلمت اني ما فقدت صوابي
واستيقنت نفسي بأن دراهمي — سرقت وفي براكة (الصلابي)
اقسمت ما وقعت ولا ضيعتها — ولقد حلفت ولست بالكذاب
انا لست متهماً سليمان ولا — فتحي ولا موسى فهم اترابي
حاشاهمو من كل ظن سيء — أهل العفـاف سلالة الأنجاب
لكنني والحق لست .. بـآس — ذاك المدد من وراء الباب

ان حل الابواب يوما آفة لا تشتبه الا من البواب
هذا حديثي يا كليم بسطته والحكم حكمك فاشفني بجواب
واعلم بأني لا اريد لضائع عوضاً ولا ارضى بهتك حجاب
لكن يعوضها سليمان بما ترضاه لي من جملة الاصحاب
يكون من أذكى طعام طيب ويخصني من بينهم بشراب
هذا وان هو لم يجب بمروءة حدثه عن ظفري وحدة نابي
واخبره ان الليث عند غضابه يلقى المنيـة ليس بالهيـاب
واشرح له في الهجاء وانه يبقى من الاجداد للاعقاب
لا يستحق الهجو الا انني ادعوه فيما بعد بالسلابي
انا في حماه قد سلبت دراهمي فهو الكفيل بها مع النهاب
يقري الضيوف ولا يحافظ جهده عما لهم من ملبس وثياب
شدد عليه في العقاب فربما صلحت نفوس عولجت بعقاب
اما انا فجزاء حسن الظن قد ضاعت نقودي واحتسبت مصابي
عوضي على الله الكريم..فانه حسبي اليه مرجعي ومآبي
والله يرزق من يشاء مضاعفاً من فضله..منا.. بغير حساب
واليك مني في الختام..تحية يا خيرة الاصحاب والاحباب

سامح الله رفيق لقد كال اللوم على البواب والبواب الفقير له من عزة نفسه ما يربو به عن السرقة وحتى في تخيله لم يترك جانب البواب ..فهو نزه اصدقاءه عن السرقة ورمى عبئهـــا على كاهل لا طاقة له بحمل المسئولية وكم جميل من رفيق ان يصدر البواب في قوله .. ذاك الممدد من وراء الباب •• وهذه الصفة لا تطلق على الخدم ولكنها صفة الغفراء •• ويظهر ان الحاج موسى لم يستجب

او لم يوفق في تنفيذ ارادة رفيق٠٠والحاج موسى البرعصي كان محامياً شرعياً ٠٠ ورفيق لم ينقطع عن مداعبته فهو يتابعه بالقصيدة التالية :

الشيخ موسى البرعصي نعم الوكيل والوصي
يقضي على الخصم بلا ريث ولا تربص
بالشرع والقانون او بحيلة ... ومخلص
اذا أتى ... لحاجة لا يمشي الا بالعصي
وانه اذكى .. من اياس في التخلص
وشاعر .. مبرز مثل عبيد الأبرص
لكنه ... لخله ليس بوافٍ مخلص
يحل لي هجاؤه لهجره ... المنغص
فأنت يا ثلج الشتا ويا فساء الحمص
افتح لنا عينيك كالطماطم المعفص
واذكر عهوداً سلفت لا تنسنا (يا بو العصي)

* *

٤١

لم تلد ليبيا شاعراً مثل رفيق ...

رفيق يتخيل في كل قصة واقعــة معينة ، وهو اذ يصف اي نوع من الجمال فأنما ليأتي على ذكر من يحب. وانا لم اقف على حقيقة حب رفيق رغم انني اعلم انه كان يحب وحب رفيق ضرب مدى واسعاً في الرقة واثلم كل عزة تتصدى لتجرع الغرام فهو عزيز كريم متأفف متكابر حتى يقف على محراب حبه فأنه ضعيف حائر يستجدي ويستعطف ويتلمس كل وسيلة للتقرب ويتذرع بالصبر والسلوان حين لم يصل.. ويقول ديوانه وقد وضعته لجنة من معارفه واصدقائه .. ان كل الاسماء الواردة في القصيدة التي عنوانها (حكاية المرج) في كل قصائد الشاعر انما هي مكان الاسماء الحقيقية .. ومعنى هذا ان الشاعر يضع القصة ولكنـه يختار اسماء من عنده لتدلل على اسماء ابطال الرواية الحقيقين وذلك دفعاً للتشهير او التعريض بالناس ولو كانوا اصدقاء لا يثيرهم قول صاحبهم.. والشاعر كما اسلفنا ضمن ديوانه وقائع تاريخية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفترة التي اجتازها كمرحلة في شبابه وهنا يروي رفيق قصة اصدقاء خرجوا لمسح اراضي الجبل الأخضر تمهيداً لتسجيلها وفي الرحلة تعرض اصدقاؤه لمتاعب وقد درب اصحابه في دائرة التسجيل العقاري على استصحاب كلاب معهم في الرحلــة لأنهم في طريق رحلتهم يضيعون الوقت في صيد الارانب وبعض الحيوانات .. حتي يرفهوا عن انفسهم اثناء رحلتهم وكان

لمدير دائرة التسجيل العقاري (كلبان) ... فاستصحبهما معه واركبهما مع جملة ركاب السيارة. وكانت الطريق المودية حتى المرج إبان نظم القصيدة احراشا ولم تدخل عليها طريقة التعبيد فكان قطعها صعبـــاً .. ومرهقاً .. وقصد الشاعر بقوله (سيدي) رئيس دائرة التسجيل العقاري ومن يعرف روح رفيق ومن عاصر رفيق ومن رافق رفيق سوف يعلم ان شاعرهم لا بد وان يتندر بالرحلة التي قام بها اصحابه وتعرضوا فيها لما سيطلق رفيق من عقـــال سكوته فيقول :

جاءت لنا من طريق المرج اخبار … بعض يسر وبعض فيه اكدار
ابو (شجيرة) راويها .. وايده … (شاهين) عدلان هل في ذاك انكار؟
اما الرواية ان صحت : خلاصتها … (سيدي) وكلباه في سيارة ساروا
لمـا تحركت السيارة اضطربا … وجاذب الحبل نباح .. وهرار
هذا يعض وهذا يبتغي هربـــاً … فحار سيدي وضاعت منه افكار
وقد تخيـــل في اثوابه .. فزعاً … وخمشتـه من الكلبـين اظفار
صارت هنالك صيحات وعربدة … كل الرفاق لها من خوفهم ثاروا
وحـــار سائقهم مما دهاه فقـــد … ضلّ الطريق ومـا عاقته اوعار
لولا سياسة (معروف) بتهدئة … الكلبين مسحاً لشطت عنهم الدار
وقيل اخرج خبزاً من حقيبتـــه … وفته لهما .. والخـــبز سمار
بعد (اللتي واللتيا) جاوزوا خطراً … كادوا يلاقوه والاسفار اخطـــار
الحمد لله يا هـــذا وحق لنـــا … من سلامتكـــم اكل واسكار
وان تصدق دفعاً للبــلاء فما … خاب امرىء هو للخيرات مدرار

لا بد من دعوة الاخوان تجمعهم | عند الرجوع فان تبخل لك العار
هذي رواية « شاهين وصاحبه » | تمت ولكن اتتنا.. بعد .. اخبار

قص شاعرنا القصة في اسلوب ساحر.. تجلت فيه الدعابـة حية طليقة باسمة لاتشين المداعب ولا تحقـده .. بل ان شاهـين وصاحبه .. وهو تلقيب من عند الشاعر على الاسمين الحقيقيين سيضحكان لسرد القصة هكذا بعد ان صورهما رفيق بريشته منزعجين يفضان شجار الكلبين معهما وقد ثار الركاب ولولا ـ معروف ـ الذي اخذ الخبز وفته للكلبين بالسيارة حتى رضيا وشبعا ما انفك نباح الكلبين وضجيجهما .. واللوم على سيدي ـ رئيس دائرة التسجيل الذي ابى إلا ان يركبهما في سيارة مع الرفاق .. ولكن هل وقف الحديث عند هذا الحد؟ وقد طلب رفيق ان يتصدق الصاحب وان يولم للجميع دفعاً للبلاء إذ كان على وشك ان تقع كارثة به .. يقول شاعرنا ان الاخبار لم تقف عند هذا الحد ..

يقال ارسلها (مهذار) فقد وصلت | من اهل برقة قالوا عنـه ثرثار
أما رواية (مهذار) فقد وصلت | الى البريد لاجـل الطبع تختار
يقال قد خرجوا للصيد يصحبهم | مهندس و« اشيري» وانفـار
مشوا الى الليل ما صادوا فقابلهم | ذئب فلما رأوه كلهم خاروا
فر الكلاب فجروا حبل ماسكهم | فخر للارض والرعديد خوار
تفرقوا في ظلام الليل ما اجتمعوا | الى ان انبثقت للصبح انـوار
عادوا وهم بين مفجوع ومفتقد | للنعل والكل طول الليل سمار
سمعت هذا فما صدقته .. ولقد | تكون في الصيد بعد الانس اكدار

ويصعب الصيد احياناً فلا حرج   فانما الصيد ارزاق واقـــدار
(أبا المسيح) اذا صادت كلابكمو   صيداً فلا تنسني لكن سأختار

يبدو ان صاحبه الذي يداعبه مسيحي ممـــا نعته بقوله أبا المسيح فبعد ان وصف الشاعر القصة قـال ان اخباراً جديدة وصلته بان ضمن صحب رئيس الدائرة كان مهندس ومعه (اشيري) مباشر والرواية رواهـا (مهذار) قال الناس عنه انه ثرثار والخبر كان للنشر في البريد والبريد كانت جريدة المرحوم عمر فخري المحيشي باسم بريد برقة .. وقص القصة بان الجمع خرج للصيد طوال الليل فلم يصطادوا .. غير انهم فوجئوا بذئب ففر الجميع والكلاب المشدودة بحبل إلى يد صاحبها فرت وجرت الحبل بيد ماسكها..حتى سقط على الارض.. ولكن رفيق لا ينسى وصفه للجمال وحبه للرئام وحسنها المتمثل في عيونهـــا الواسعة السوداء .. فهو يناشد صاحبه اذا اصطاد فلا ينسى الشاعر من نصيبه ولكن الشاعر يريد نصيبه شاة من معيز الرئام حيث يترسم في شكلها وعيونها الجمال الذي ما فتىء الشاعر يتغنى به .

اريد ظبياً صغيراً لا قرون له   أخشى من النطح ان النطح ضرار
اذا تذكرت ذاك اليوم عاودني   خوف واقلقني هم وتـذكار
أمـا الظباء فمهما ثار ثائرهـا   عندي لها حكمة كبرى .. وآثار
عندي عصا كعصى موسى اهش بها   ولي مـآرب اخفيهـا واسرار
إياك إياك ، ان تنسى هديتنـا   فما تنجيك مهما قلت اعـذار

ويمضي رفيق في مداعباته فما ان يترك صاحباً حتى يقفز الى آخر يتندر معه بأثر نفساني من آثار هوايته وها هو يناقش موضوعاً بين صديقين حبيبين له .. فقد جاء في ديوان رفيق ان المرحوم عيسى بن عامر كان يسمى الاستاذ محمود مخلوف (طهزاوي) وذلك ان مخلوف كان مغرماً بأدب الدكتور طه حسين

كما كان من المعجبين بشعر جميل صدقي الزهاوي شاعر العراق الفحل المتوفى في عام ١٩٣٥ .. والحقيقة اني عرفت رفيقاً وسمعت منه كثيراً ثناءه على الاستاذ محمود مخلوف .. فهو يحبه ويقول فيه ان محمود مخلوف طيب القلب متأجج الوطنية صادق في اقواله غير مستغل وليس انتهازياً كغيره .. وهو في جميع انفعالاته انما يتحرك بوحي من عقيدته وضميره ..

سألوني ، وانا لست بأهل	للفتاوي
ما هو المقصود ان قلنا لشخص	طهزاوي
قلت يعني انه يعشق طه	والزهاوي
ولذا فالاسم من اسمين جاء	بالتساوي
قال (عيسى) في جدال واعتراض	ودعاوي
ما لكم من غير علم كلكم في الجهل	هاوي
ذاك اسم نصفه اعمى ونصف ذو	مساوي
قلت كلا انت يا عيسى لفعل	الشر ناوي
لك يا عيسى لسان كشواظ النار	شاوي
انما انت لمحمود على الاحقاد	طاوي
قال لا تغتر بالمحمـــود تهوي في	المهاوي
من رفاق السوء شيطان من الخيرات	خاوي
قلت لا .. ذاك خليلي ولأشعاري	راوي
وبحق لي صديق ورفيـق في	القهاوي
قال .. قال الله حقا يتبع الشاعر	غاوي
انت تهذي بهراء وهو من بعدك	عاوي
قلت دع هذا فما المقصود تعداد	المساوي

وافتنا في (اللفت) هل عندك في	اللفت فتاوي ؟
قال فيه جوهر العقل وللحكمة	حاوي
اكله فيه شفاء .. لعليل الجسم	ضاوي
قلت ان كان كما تذكره يا	(بو البلاوي)
لا ارى غيرك محتاجاً اليه	للتداوي

قلنا ان رفيق متندر متفكه يحب خلط شعره بالعامية فهـــو يربط القافية ربطاً لا يفكه عقل آخر فبعد ان دافع رفيق عن مخلوف لأنه صاحبه في المقاهي وحافظ لوده وشعره قال عن عيسى بن عامر انــه لا يعرف الا (اللفت) وهو نوع من الخضروات جل استعماله في اكلة (الحرويسة) وهـــو شوربه الدقيق محشوة باللفت وتساءل رفيق قائلاً ان عيسى بن عامر لا يعرف الا اللفت فلما فتىء في مخلوف افتنى انت في اكلة اللفت وذكر رفيق على لسان عيسى بن عامر قوله ان محمود مخلوف لا تغتر به لأنه سيهوى بك الى المهاوي لان مخلوف من رفاق السوء .. وهو شيطان خاو من الخيرات وهذه دعابة من الشاعر تحمل في طيها عطفه الشديد وحبه للاستاذ محمود مخلوف .. وكان رفيق يحب محمود مخلوف اكثر من جميع من عرف من الناس ..

والحقيقة ان الاستاذ محمود مواطن غيور محب للخير .. نزيه عفيف صادق الوفاء لمن اراد ان يوفي اليه ويحبه .. ولرفيق اصدقاء كثيرون وكلهم يحبونــه ويجلونه ويتعبرونه صاحب مدرسة في الوطنية ورغم انهـــم يشعرون بكونهم تلامذة له .. الا ان رفيق لم يجعل صداقتهم مسيجة بأسلاك مريبة بل لقد هدم كل حجاب يحجبه عنهم ومن ثم كان حنين رفيق حين غادر وطنه شديداً وحازباً وممضاً ثقيلاً .. اصدقاء رفيق كثيرون وهم من خيرة طبقة الشباب في بلادنا اقول هذا بصدق ذلك ان الذين تتلمذوا على مدرسة رفيق هم الذين يمثلون الطبقـــة النيرة الواعية في بلادنا.. واذكر من هؤلاء .. علي فلاق ومحمد مخلوف وعقيلة بالعون

وعبد الكريم لياس والمرحوم الشريف ابو مدين « الماقني » والمرحوم ابراهيم اسطى عمر ومن اصدقائـه المرحوم خليـــل الكوافي والمرحوم خليل القلال والمرحوم الدكتور فتحي الكيخيا والمرحوم توفيق نوري البرقاوي والمرحوم الطيب الاشهب هذا عدا طبقات كثـــيرة من السكان ... كان على رأسهم عمر المحيشي وعلي الجربي والدكتور العنيزي والحاج سليمان الصلابي وغيرهم وغيرهم .. اما المرحوم الشريف بو مدين « الماقني » فقد كان وسعه الله برضوانه مدرساً فاضلا وفيلسوفاً واديباً وذواقاً للشعر ووفياً لأخوانه وحنوناً على احبائه .. باراً بمعارفه .. وكان الى فترة اغتراب الشاعر رفيق .. رفيقـاً لا يفارقه .. وذات يوم بينما كان رفيق مع اصدقائه ليلاً على شاطىء البحر في بنغازي اذ به يسقط في ماء الشاطىء .. ففزع الاصدقاء اليه وانقذوه واحاطوا به يهنؤونه بالسلامة .. اما الشريف بو مدين فكان الوحيد ذا الحنان .. بكى .. وما فتىء يبكي حتى استدر رفيقه ينثر عليه ابياتاً ادخلته التاريخ الذي نسي غض شبابه وفلسفته وأدبه .. وكم من اديب فيلسوف عالم لم يضعه التاريخ بين دفتيه بسبب جرمان او سوء حظ .. والشريف الماقني ابو مـــدين ولد عام ١٩١١ في بنغازي ودفن فيها عام ١٩٦٢ بعد وفاة الشاعر بعام واحد .. قضى نحو ثلاثين عاماً في التدريس ومن تلاميذه طبقة كبار الفنيـين اليوم من دكاترة ومهندسين ومحامين وقضاة يعملون اليوم مسهمين في النهضة الليبية .

بكى الشريف لحالي حين شاهدني ... خرجت تقطر ارداني من البلـل

وضمني هو والاخوان في شغف ... واكثروا من عناق الود والقبل

قد كاد ينشب عزرائيل مخلبه ... لولا بقيـة ايام من الأجـــل

نجوت من لجــة كادت توصلني ... عوماً الى دارنا الاخرى على عجل

زلت برأسي رجلي اذ هويت وهل ... تأتي مصائبنا الا من الزلل ؟

نزلت أهوي هوي الصخر ارسله سيل تحدر للوديان من جبل
في ذلك الموقف المرهوب ساورني شوق لوجه حبيب قد تمثل لي
ناديت باسم الذي اهوى فاسكتني عبد السلام الذي قد جاء في عجل
فقلت خلوا سبيلي كل حادثة من اجله اتلقاها بلا زعل
لا تعذلوني فاني في محبته « انا الغريق فما خوفي من البلل »

لم يذكر كتاب رفيق عن عبد السلام هذا الذي جاء الى شاعرنا في عجل شيئاً وهو دون شك صديق للشاعر وكان ضمن رفاقه .. ان هذا العبقري الفحل صاحب المدرسة الرفيقية لم يسكته ظرف عن التغني بالحرب .. وهو منفعل ابداً بالحبيب وحتى عندما سقط الى الماء .. وهو ازرق عباب غويط سحيق يهدده بخطر الغرق كانت كلمة رفيق وهو محدق به الموت .. هي .. حبيبي .. وهذا لم يكن مبالغة منه في الحب والغرام ولكنه كما يبدو في كل صفحة من صفحات حياته مغرم حقيقة بشخص معين لم ينفك عن ذكراه والتغني به .. ومن هنا كان رفيق ملهماً الهامه بتأثير غرامي يصل الى مرتبة العشاق الكبار الذين خلدهم التاريخ في ميدان واحد بيد ان شاعرنا الكبير رسم للذهن الصورة الكريكاتورية لحبيبه المغرم به الولهان في سبيله الماثل طوال حياته في مخيلته فمن هذا الحبيب يا ترى ؟ وهل اذا تقرب رفيق وترك وطنه مرغماً مبعداً مطروداً سينسى عيسى ابن عامر واصحابه ؟ ها هو الشاعر يبعث بقصيدته « ذكريات » الى صديقه عيسى .. فيقول :

تركنا لذة الدنيا وما فيها من المتعة
واصبحنا بحمد الله في السجدة والركعة ..
من البيت الى المسجد لا دخله ولا طلعه
ولا قهوة ولا شهوة ولا « نقره » ولا سمعة

ذكرنا ما مضى منـــا فسال الجفن بالدمعة
وبادرنـا على ندم الى التوبة والرجعـة
كفانا الله انفسنا فقد كان من التسعة
وكنا ندخل الحانات كالسارق بالشمعة
فنشرب مثل فيل الهند بعد الاكل والشبعة
فاما الشرب بالبرميل و «المزة» بالقصعة
وكم من ليلة كانت اخرهـــا وقعة
بدأنا الشرب فيهامن غروب الشمس للطلعة ..
فما زلنا نمضي الوقت بالجرعـــة فالجرعة
ويمضي الوقت في ضحك مع الأحباب فالسرعة
وحتى لا نفرق بين طول الشخص والصمعة ..
فنخرج بعد نصف الليل والحراس في هجعة
فلو قابلنا الجن «خرا» من شدة الفجعة
فلا تترك ماخوراً ولا طاقة ولا بقعة
ولا نترك دلاعا ببستانا ولا قرعة
الى ان يصبح الصبح فلا نوم ولا ضجعة
«تفصعنا» على الدنيا فكان جزاؤنا (صفعة) ..
رمانا الدهر بالتغريب والفرقة والفجعة ..
جزانا بالذي كان من التمريق للسلعة

وقد تبنا الى الله لنا في عفوه   طمعة

حتى وهو في غربته لم يترك فرصة دون ما يشغلها بحنين أو يدثرها بوصل ووفاء وهو يتفنن بتوبته .. ويذكر لصاحبـــه عيسى ان ترك الاثار التي كانت تنشي مخيلته وتروق حياته ..وهو .هنا يتلذذ بالتوبة وما التوبة في جوانحه الا تشفياً للضيقة التي يكابدها ويتحمل جراءها كل كساد فكري وروحي .. ان رفيق يهوى بلاده ويهوى فيها من يهوى من جمال حركة واستعبد احساساته ووجدانه وصيره عذرياً ولم يك من قبيلة العذر ولا من اهلهم .. ذلك انـــه خلق من حبـــه محراباً جديداً بصومعة حديثة وزوايا تطل على الهام الحب .. ونوافذ الغرام .. فقد سجل لنفسه البياذة سمت على المفاهيم القديمة بوصفها الوصف الحر الطليق الشفاف .. ان رفيق حين يعلن توبته فانما ليقول عن نفسه انه ترك لذة الدنيا وما فيها من متعة فهو يعيش بين السجدة والركعة .. ويعبر تعبيراً شعبياً بقوله« لا دخله ولا طلعه » وهي بمعنى انه يعيش بدون مجتمعه الذين كان يدخل عليهم ويطلع .. في غربته من البيت الى المسجد .. وهي انه حالة نفسية تعتري كل فاشل في أمر يريده سيما في حالة الخوف والازمات يتحول الانسان الى ناسك دون ارادة أو شعور .. ها هو رفيق من البيت الى المسجد .. لا يذهب الى مكان اخر ذلك انه ليس له مكان يجمعـــه واصحابه واحبابه في الموطن الجديد الخـــالي من مجتمعه .. ها هو رفيق وحيداً .. لا قهوة .. يجلس فيها تجمع اخوانه ولا شهوة يشتهيها فيتندر بها بين احبابه ويزهو ويعتز ويفتخر ولا (نقره) وهي مجلس يضم الاخوان والاخلاء يحتسون فيـه الخمر .. ويقال لمن يحتسي الخمر (امنقر) بمعنى ثمل .. ولا سمعة .. أي ولا احد يعرفه فيقدره منزلته كما كان حاله بين اهله وذويه واصدقائه في بلاده ومسقط رأسه وحين تذكر رفيق ماضيه سالت عيونه بالدموع وندم على ما فعله فتاب ورجع ..واتى رفيق على ماضيه حين كان من التسعة والتسعة في المثل الشعبي يقال (من التسعة اللي يدفوا على النار) بمعنى الشقاوة والمتعة والذكاء..يذكر رفيق ماضيه حين كان شربه مع رفاقه بالبرميل أي ان الخمرة كانت بالبراميـل وليست في

زجاجات صغيرة و (المزة) أي مشهيات الخمر كانت بالقصعـــة .. وكم من ليلة كان عقباها حرج (وقعة) وكان الوقت ينقضي مع اخوانه في ضحك من اول الليل حتى صباح الغد وحتى الجن كان يخشاهم ولكن (القصعة) دلالة على الدنيا جازته بصفعة شديدة وهي غربته ..

* * *

٤٢

ملحمة الذكريات ...

شاعر مطبوع عاش صباه وشبابه في بلاده بين اصدقــاء اوفوا له المودة وصافوه المحبة واصاخوا الى شعره فترنموا به ، وتمثلوا بكثير من امثـــاله .. وانطلقوا في كل سانحة يرتلون آيات الوفاء لشخصه حتى انهـــم اطلقوا عليه فيما بينهم لقب (السيد) .. اما رفيق فكان يشعر بهذا الود وذاك الوفاء .. ويحس بثقل مسئوليته نحو احبابه وخلانه فكان لزاماً عليه وهو الشاعر الفحل ان ينتج تباعاً وان يكون عند حسن ظنهم ولذا فلم تك فرصة تمر عليه معهم الا واستغلها وسجلها ووضع فيها ذكرى وذكرى وحملها من التاريخ اسطورة الواقع وحشاها بمترادفات وكلمات محلية يعرفها جيله منالعبارات الدارجة والتي تعني وتضحك.. رفيق الذي عرف جليانة وعرفته رمالها الهادئة الساكنة النظيفة وعرفه بحرها الساحب في غير حدود .. المترامي بدون اسيجـة .. المتلاطم دون خوف ولا ضرر الباسم للآلي خطوا به رجـــالاً .. عرفت رفيق – مرابيـع – المدينة أي صالوناتها وعرفته ثلة من الوعاة كانت توفيه حد المحبة..عرف رفيق سواقي درنة وعرفه واديها واهلها وعرف رفيق الجبـــل بجماله وعرفته الصحراء بسكونها وصمتها الرهيب ومن لا يعرف رفيق البلبل الصداح الباسم للاحداث الساخر من الحياة الواهب نفسة للتجلي .. المنشد عند الأزمات الكريم بطبعه الأنف الشامخ برأسه .. العزيز الذي لم يرضَ الذل ... الشاعر الذي عاش حياته لآخرته ..

ونظم لآخرته برنامجها .. اما برنامج نهايته فهو سفر خالد يحمل جميع الصور التي رسمتها الأحداث المتكررة الرتيبة بجميع صفاتها الحسنة والسيئة في جميع اثوابها الجميلة والرثة ومتعدد ميزاتها الطيبة والخبيثة ..في اطار الصراحة والصدق والأمانة في الخبر .. ترك رفيق من حياته لآخرته ديواناً من الشعر .. نعم انـه ديوان شعر في ظاهره .. ولكنه في باطنه تاريخ بلاده السياسي والاجتماعي في حقبة حرمت بلاده فيها من تاريخ .. فكان رفيق الشاعر الذي لا ينسى ولأنه المؤلف الذي جمع في شعره حياة طويلة .. لمرحلة طويلة إبان فترة عصيبة .. انجلت ولم تترك للقارىء أية صورة مطبوعة إلا ديوان رفيق .. وحتى جهادنا وبطولاتنا وكفاحنا المرير طوال الحقبـة التي كتب لها رفيق لم يجمعه كتاب تصويري بالمعنى الصحيح .. ما عـدا ما نستشفه من الأشعـار الشعبية احياناً أو من اقوال بعض الشيوخ الاحيـاء .. ومن هنا كان رفيق رجلاً أدى لبلاده خدمة جليلة فيما قاله وعبرمانظمه من أشعار ملحمة الذكريات هذه التي رسم فيها رفيق كل شبر عرج عليه في قصيدته الطويلة التي قال ديوان رفيق ان الشاعر كان يريدها تصل الألف بيت .. وكان قد ارسل بها الى صديق له في بنغازي من مقره الذي لم يألفه بعيداً عن وطنه .

اخي بعد تقديم ازكى السلام — وبعد السؤال عن العافيـة
احيطك علماً بأني اخذت — كتابك من مدة ماضيـة
فسر به القلب كل السرور — وزال به كدر الغانيـة
حمـدت الاله على انكم — من الله في عيشة راضيـة
اعدت تلاوته مرة — وكررتـه مرة ... ثانيـة
فكيف اعبر عما به ؟ — من الحكـم الفذة الغاليـة
وعما به من بليغ الكلام — ومن حسن الفاظه الساميـة
شهدت بأنك أمليته — بروح مهذبـة عالية

وفيه دليل الاخاء الصحيح   يدل على نفسك الزاكية
فلا زلت يا أخي سالماً   سعيداً وفي حالة حالية
وبعد اجيبك بالاختصار   على « الملتحي » عطه داهية
تفرعن هذا العجوز الخبيث   وصار كتيمور الطاغية
ألم ترعرجته ؟.. ليتها   تصير الى رجله الثانية
ليقعد في البيت في راحة   وفي بيته الراحة الضافية
ويقصر اذ ذاك من جريه   ويمكث في البيت كالجارية
أليس له تلفون يرن   يخبر عن نشأة البادية
فيكفيه لكن على وجهه   عن السعي .. لا اقصد الماشية
ليقصده الناس من كل صوب   الى الغرفة الرحبة العالية
تطل الى الشرق من « طاقة »   على سبخة وسخة طامية
تفوح اذا الريح ماجت بها   برائحة تطرد الشاهية
فلا يأكل الضيف في بيته   وتلك له حيلة خافية
يغطي علينا بها بخله   ويحسبنا « نية صافية »
اتيناه كم مرة عندما   شكا تخمة الرز والبامية
فجاء بتمر يسمى الجدع   واكثر من لبن الثاغية
وقام بحق .. بإكرامنا   كما هي عادته الجارية

أما الصديق الذي راسله فهو المرحوم الاستاذ حسين فليفلة وكان مربياً فاضلاً وقد كانت اولى دراستي بمدرسة الصابري « العنيزي » على يديه مع طائفة من اصدقائي ..

والاستاذ حسين توفى عام ١٩٤٧ وكان لين الجانب يحب تلاميذه ويتفانى في تحضير الدروس لهم .. واذكر ان الاستاذ فليفلة كان يدرس لنا صباحاً وبعد الظهر يكرس جهده لاعطائنا دروس العشيقة في منزله .. مجاناً وبدون مقابل وحتى يخلق من فصله ومدرسته جيلاً يباهي بهم غيرهم في المدارس الاخرى الأمر الذي جعل مدرسة الصابري آنذاك من اشهر المدارس ونسبة النجاح فيهــا كبيرة لأبعد حد .. وكان في كل موسم يخرج لنا تمثيلية نمثلها بأشعار رمزيــة تهدف كلها الى التغني بروح الوطنية والمجد الوطني الى درجــة ان السلطات الايطالية عقب تمثيلية من تلك التمثيليات اعتقلته مدة ثم افرجت عنه .. كان اديباً ذا خط جميل منسق .. وذا اداء في العبارة مشبع وكان يحفزنا للمستقبل محبباً لنا في حريتنا .. فاذا كنا عنده عشية احضرت لنا الشاي زوجته المربية الكبيرة « الحاجة » بديعة فليفلة .. ولهــا الفضل الاكبر في نشأة الجيل من فتياتنا فهي اول ناظرة في برقة جددت ونظمت المدارس .. في شدة دون عنف ولين في غير ضعف .. وادت هذه المربية رسالتها على أحسن وجه .. توجــه للفضيلة والحياء والتعليم النظيف الطاهر .. فـاذا ما لاحظت ميوعة في فتاة انصبت غضباً وثارت ثائرتها .. فهي لا ترى مـا يظهر للمرأة او الفتاة بمظهر الغيبة فيها.. وحتى المدرسات كن يخشينها .. ويتقين غضبها وثورتها في الحق . .. وهنا نجد رفيقا يحيى الاستاذ فليفلة .. اما الملتحي وهو على ظني اعتقد انه المرحوم موسى البرعصي فهو محامي كان ملتحياً .. ويقول رفيق « عطــه » داهية .. وهذه الكلمة من قبيل الدعابة وكان شيخاً حبيباً لرفيق ومن ثم كان رفيق يداعبه كلما تحدث عن اصحابه .. ورفيق يبرهن على انــه يحب الشيخ موسى البرعصي بدليل ما سيأتي في ملحمته .

وفي الحق ان « العطيب » كريم	له نسب في بني « طامية »
فقلب كبــير وعزم قــوي	وعين بها سعة رائيــة
وان كان في رأسه واللســان	وفي الرجل باقعة داهيــة

فاخلاقــــه واحاديثه (على كل حال) وقل باهية
بسطنا على (الملتحي) فلا يظن .. محبتنـا .. واهيـة
وانا ناجيه (حاشاه) من (غليظ) الهجاء .. بلا قافية
فنعم المحب ونعم الحبيب حبيب له لحية وافية
اتاح لها الله مثل اسمه فلا يتركن لها باقية
ولا يذهبن به قولنا حبيب الى نية ثانية
فدعنا من (الملتحى) ودعه يفكر في امرأة شاكية
كثير الدعاوى كثير البلاوى له شنطة تشبه البالية
تذكر (تأبط شراً) اذا تأبطها وابتعد ناحية
ففيها مصائب (كالديناميت) تجز من صنع المانيـة
وفيها الكراريس مملوءة دعاوى تشيب لها الناصية
(دعاويه في رأسه) حرمت على عينه الرقدة الهانيـة
يذاكر في الليل شيطانه ويذكر في الصبح في الزاوية
ففي الصبح يجذب في جبة وفي الليل في سترة (باقية)
وبالاختصار فكالسندباد حكايتـه تضحك الباكية
ونختم بالخير .. اخباره وفي هذه نبذة كافية
وهذا من المتن شيء قليل فقد بقي الشرح والحاشيـة

كل ما اعجبني من عمل لجنة الرفيقات انها شرحت العبارات المحلية الدارجة وقد اغفلت المناسبات التي قيلت فيها ابيات رفيق كما اغفلت الأسماء دون عـذر وهذا أهم شيء يمكن او يمس الديوان .. فمتى كان قارىء الشعر عالماً بالغيب .. ان الاجيال التي ستقرأ ديوان رفيق سوف تقف حائرة في المضامين وعند الدعابات ذلك انها في حاجة الى معرفة السبب والموضوع والقصد .. وهذا كان يسيراً على

اللجنة لو التفتت اليه طالما استعدت بجهودها الى اخراج ديوان رفيق .. وهي بأغفالها هذه الضرورات من النماذج الظاهرة في الديوان انما توهم جيلاً مقبلا سيطل على روح الشاعر رفيق من خلال ديوانه فلا يقف على جلية العبقرية التي نحن بصدد نقدها واجلائها وايضاحها بصعوبة ادراكنا للمناسبة التي لم نحضرها ولم نعاصرها .. إذ إننا عرفنا رفيق في المدة التي عقبت ديوانه الأول هذا ..



أنا تلميذ لرفيق على صلة ومعرفة به ولكن متى ؟؟ فحينما كان رفيق الشاعر الوطني المغلف ، والنابغة الشادي في الآونة التي عاصرت بقاء الايطاليين في ليبيا.. كنت أنا آنذاك طفلاً ثم صبياً لا اعرف شيئاً عن رفيق أو عن شعر رفيق .. فقد اخرجت ايطاليا من ليبيا مندحرة وأنا ما زلت طالباً بمصر .. ومن هنا وجدت صعوبة في التسبب والاسناد والوصول إلى قصد الشاعر والمناسبة والمضمون .. وسآخذ مما جاء في شرح لجنة الرفيقيات تفسير بعض العبارات فقول رفيق (العطيب) معناها .. التافه القليل القيمة ، تستعمل الكلمة للتلميح مثل استعمال كلمة (لا ابالك) في العربية إذ المقصود منها التفخيم وكلمة (طامية) اسم قبيلة موطنها الجبل الاخضر و (باهية) بمعنى طيبة حسنة . وجاء قول رفيق المرأة الشاكية يقصد ان الملتحي محام شرعي وكلمة تأبط شراً الشاعر الجاهلي المعروف وقد سمي بهذا الاسم لأنه جاء الى امه يحمل في كمه افعى فقيل تأبط شراً ، فغلب عليه هذا اللقب .. والكراريس جمع كراسة وهي كلمة اصطلاحية عند الفقهاء تطلق على الملزمة من الكتاب .. وقول رفيق (عادية في رأسه)

مثل دارج والدعاوي المقصود منها دعاوي الرجل الصالح أو المظلوم ودعاويه في رأسه بمعنى حلت عليه الدعوة والشاعر هنا نقـــل الدعوى القضائية الى دعوة المظلوم أي الرجل الصالح من باب الدعاية والزاوية يشير الشاعر الى انه كان متبعاً لطريقة دينية .

ونتقل الآن من بعده   من العم سيدي الى ناحيه
لنذكر ساعات انس مضت   ولذاتها لم تزل باقيـــه
عرفنا بها قيمه الوقت لا   حساب الدقيقة والثانيـه
سويعاته ذهب ما لها   عقارب دقاتها هاديه
فمن بعض ساعاته اننا   اتيناه في ليلة شاتيه
وقام وجاء بماء الزبيب   يشعشع كالفضة الصافيه
وجاء بلوز وموز لذيذ   اطابته في درنة الساقيه
واكثر من كل ما نشتهي   وتطلب انفسنا العاصيه
ودار المدام ودام الحديث   على قصة الصخرة الداميه
وذلك ان لهذا .. مكانـــاً   على ساحل البحر كالطابية
احاط به الماء حتى غـدا   يضاهي جزيرة (سردانيه)
فيذهب في الصيف وقت الاصيل   تروّح عن نفسه العانية
ويغسل عينيه من (طمز)   تسايح كالزبدة الدافية
الى مغرب الشمس ثم يعود   الى قهوة الشاطىء الزاهية

تنحنح (سيدي) وقال اسمعوا و (قربع) طاسته الثانية
وجر الحديث و (سيدي) اذا تحدث كالاصمعي راوية

فقال ذهبت الى صخرتي نهاراً وشمس الضحى حاميه
فجاء عطيل وجاء (الطويل) وجاء معلم (اودانيا)
واقبل (كاظم) في كفه زجاجة خمر من الغاليــه
واخرج من جيبه حمصاً وفولاً و (فقوسة) عاصية

يقول رفيق (الصخرة الدامية) .. ورفيق حين يقول هذه الكلمة انمـــا يستوحي ذكريات حلوة وجميلة حية صاخبة .. الصخرة .. هي مجموعة صخور الشاطىء الفاصلة بين المياه التارعة من البحر الغريق وتكون شبه بحيرة قصيرة ليست عميقة حيث يصطاف فيها سكان منطقة الشارع الذي سمي الآن بشارع رفيق مخلد (الصخرة الدامية). وهذه الصخور تمتد مسافة كيلومتر على البحر (الكورنيش) المواجه لشارع رفيق وبه ثقوب جوفاء كبيرة (كنا نسمي كل ثقب بالبئر) وهي عدة آبار اطلق عليها (بئر الجمل).. نسبة لموت جمل بهذا البئر حيث كان صاحبه يغسله و (بئر الكلبة) حيث نعقت داخله .. وبئر اليهودية أو « حفيرة » اليهودية حيث ماتت يهودية فيــه و « حفيرة الرقريق » حفيرة الاغريق حيث كان بعض اليونانيين يجلسون عنده .. وعلى هذه الصخور كان شاعرنا يجلس ويقضي اوقاتاً طيبة شهية مع اصدقائه واحبابه .. وقدوصفه كتاب رفيق بالقول (ان الصخرة الدامية صخرة كبيرة على شاطىء بنغازي لونها يميل الى الاحمرار ولذلك سميت بالدامية في الجهة الشمالية من بنغازي وفي المنطقة المحصورة بين منار بنغازي شرقــاً وبين الميناء غرباً .. ويوجد حاجز

صخري طبيعي يفصل بين المياه العميقة شمالاً (الجبرا) والمياه الضحلة جنوباً « قبلة ». وله مدخل من الجهة الجنوبية وفي وقت الصيف عندما تكون المياه في حالة الجزر « التراجع » يؤم الناس عند الأصيل تلك الجهة للتمتع بمنظر البحر حيث يقضون اوقاتهم على هذا السطح الممتد شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً .. وفي هذا المكان كانت للشاعر جلسات مع اصدقائه بجوار هذه الصخرة الكبيرة وقد عاصرت هذه الحالة عندما كنت صبياً فقد كنت اذهب مع الصبية الى هذا الشاطيء حيث كنت اشاهد اكثر المصطافين من اليهود .. وقد كانوا يأتون بالغذاء كل بعائلته يستحمون في المياه الضحلة ويلعبون ويقضون اوقاتاً كانت في الحقيقة ممتعة وجميلة . وشاعرنا كان رقيق الاحساس فكان يلتذ البقاء في هذا المصيف نهاراً أما ليلاً فانه يذهب مع اصدقائه الى مصيف جليانه .وسر بقاء الشاعر نهاراً بمصيف « المجزره » كما كان يسمى راجع الى انه يحب الجمال ويرغب في مشاهدة الكواعب والغواني .. وكانت فتيات ونساء اليهود يأتين في اجمل حللهن الى هذا الشاطيء ، فيخلعن ملابسهن ويعمن ويعلبن فكان رفيق يشاهد هذا الجمال فيصفه ويرفه عن نفسه ويحلم كانه متمتع به . وهو في الحقيقة بعيد عن تناوله او حتى الجلوس معه .. فقد كانت حالة المواطنين مكبوتة ومراقبة ومتابعة ، والشاعر المرهف الحس الرقيق .. يتطلب المتعة ومشاهدة الجمال فكيف له به .. اذا كانت خطواته مراقبة ومتابعة وهو من ضروب حياته ان يقرب الجمال ويشاهده؟ فكان رفيق رحمه الله يستمتع ولو بالبصر .. فيجلس على هذا الشاطيء فيشاهد اليهوديات وفتيات اليهود يلعبن ويمرحين ويعمن ويرتمين على الرمال حاسرات بالمايو حيث يبدو الجمال .. غير مبرقع وحيث تبدو المفاتن فكان هذا يهز من مشاعره ويحركه وينمي الموهبة فيه ويدفعه الى النظم ، فيغرد ويشدو ويبيت ليله مع الراح متخيلاً مفاتن النهار .. فيقول ويبدع .. ولولا ذلك ما قال رفيق اذ ان

لكل رجل قلباً . . تدفعه نبضاته ودقاته الى الحب ، ومتى كان المرء خالياً منه لعدم توفره فان المشاهدة ينبوع من ينابيع حركة النفس .. فيحب بالخيـــال ومن كان لا يحب حتى بالخيال .. .. فهو جماد خالٍ من الحركة .

* * *

٤٢

شاعرنا الكبير مع ذكرياته

ها نحن مع شاعرنا وغريدنا ومنشينا حين نقرأ .. ومطربنا حين نحن الى النشيد الذي يروح عن النفس ويبعث فيها السلوة او الأمل او اللذة او الاستمتاع بالجميل .. وها هو رفيقنا واديبنا مع ملحمته الشعرية عن ذكرياته مع الاصدقاء والاحباء والخلان والاوفياء .. ها هو يداعب اصدقاءه (سيدي) و «الطويل» ومعلم « اودانيا » و « كاظم » الذي جاء وفي كفـه زجاجات خمر من الغالية والذي اخرج من جيبه حمصاً وفولاً و « فقوسة » عاصية ليقول :

وقال (اشربم) فضحكنـــا   على تمصر الفاظه الخاطيه
ودار الحديث ودار المـــدام   على تلكم الصخرة الداميه
فاقبل (شاهـــين) في مشيه   (يرهون) جمته عاريـــه
فجبى بغير سلام ومال   الى الشرب من تلكم الباطيه
وتلك له عـــادة ان اصاب   (بلاشا) فكالفيلة الظاميه

فما زال (يلقح) حتى هذى وصار (كمهبولة) الثانيه
وفي ما يحدث اخوانه حديث التظاهر و (المافيه)
يسرح من ها هنا وهنا ويبلف اذ افلتت راغيه
فكح ليسترها بعدما عوت مثل (كريوة) السانيه
ولكن سيدي أتخفى على نباهة آذانه .. خافية ؟ ؟
فلم يملك النفس حتى لكاد يسيح علي الضرطة الفاشيه
وحاول (شاهين) لما رأى وشم روائحها الغاشيه
مغالطة القوم في سترها فكشف بالهرجة العاليه
فقال الهوا عندكم جيّد وما اجمل اللجة الصافيه
فجاوبه (كاظم) ضاحكاً على ذقنه ضحكة هازيه
كحشاش طنطا وقال له وارسلها نكتة خازيه
ولكن تحركت الريح يا (شاهين) بأنفاس (ايمانيا)
فساح (الطويل) ومات عطيل وبال معلم (اودانيا)
فهذي رواية (سيدي) ولي انا النظم لا غير والقافيه
وقد قال في حق (شاهين) شيئا كثيراً وذاكرتي ناسيه
فقال يعض .. تلاميذه فاذانهم كلها داميه
اذا قرأوا عنده حرجوا عكاريت سيما همو باديه
وقال كذلك كالخنفساء كثير الفسا (عطه داهيه)
وقال وقال ولكني نسيت مقالاته الباقيه

فنترك ذاك الى فرصة تكون له ضربة قاضيه
فإنا سنفرد فصلاً له يوضح اخلاقه الجافيه
فمن مثل هذا حكايات (سيدي) على (الكراكوز) ابي خاجيه
فاين جحا على حكاياته اذا انطلقت عنزه راعيه
(فسيدي) بحق (كطه حسين) وابصر (نقادة واعيه)
لطيف ظريف ولكنه جريء على الفئة الباغيه
فنختم بالخير اخباره ونتركه هو والباديه
يعاني فرائض اجدادهم الى عهد نوح الى الجاريه
لقد ملأوا رأسه بالسهام
فخوفي عليـــه من الراميه
وخوفي على عقلـــه ان يصير
كعقل المهندس في (خانيـه)

أصدق ان رفيقاً أراد من هذه الملحمة صياغة الفية بدليل رجوعه على المصرع لمرات عدة وان ما يشجعه على هـــذه الملحمة هي سهولة الوصول الى الغرض بالمفردات الدارجة وهي دون شك تسهل للمنتج الشاعر التغلب على كثير من المتاعب اللغوية في القصيدة.. ولكن مع هذا كانت المفردات والاسماء اللغزية التي جاء بها رفيق في شعره هذا محببة وخفيفة بل لقد احسن في وضعها الى حد انه تندر بمن يريد في اسلوب يقرأ بنهم وشهية وجب في قوله عن كاظم قال (اشربم) يقصد انه تمصر.. وبمعنى ان كاظم قلد التعبير المصري إذ أن المتكلم في مصر لا يقول للجمع اشربوا بل (اشربم) وهذه حقيقة تندر بها رفيق. وقوله اقبل شاهين يرهون طلو

سنيع لان عبارة رهون في العامية تعني نفس ما تعنيه عبارة اجلوذ الحصان بمعنى اسرع ، فيقال رهون الحمار بمعنى اسرع ، وشاهين جـاء يسرع في سرعة الحمار أو كما يتراآى الحمار مسرعاً في الاقبال أو الادبار .. وعبارة (جبى) بمعنى عرج وجاء في طريقه قاصده والباطيه هي اناء الشرب .. وبلاش .. بمعنى مجان .. و (يلقح) بمعنى يشرب الخمر وهي كلمة دارجة يقال فلان (يلقح) إذا كان يحتسي الخمر .. وقوله (مهبولة) كناية لامرأة كان يعرفها عهدها بأنها كثيرة الكلام عن الناس تخدش اعراضهم ، فسميت مهبولة بمعنى مجنونة .. حـديث التظاهر و (كربوة السانيه) هي تلك العقدة الموصلة بعجلة الحبل تحدث قزقزة عالية كلما جرها الحبل .. والضرطة هي خروج الريح .. هـذا كله تندر من رفيق باخوانه واصحابه لا يقصد الاهانة ولكن دعابة يحبونها هم انفسهم ..

وننتقل الآن من بعده	الى سي معلم (اودانيـا)
اخينا العزيز (ابي احمد)	كثير السكوت على داهيه
تراه (يبحلق عينيه) من	وراء طبيعته الساهيــه
ويطرق اطرافه الافعوان	فتحسبه نيــة صافيه
ويضحك حتى يخاف عليه	من البعج في حالة عاديه
ولا سيما بطنه اصبحت	من الشحم ناتئـة رابيـه
ذهبت برفقته مرة	من (البرنيشي) الى ماريه
دخلنا الى البيت بعد التردد	خوفاً من الالسن الواشيه
فاقبلن شيء يجر الحرير	وشيىء الى نصفها عاره
وحيين في أدب واحترام	وصار التعارف في ثانيه

الى هذا الحد يصل الوصف القصصي مدارج الرقي لاسيما اذا كان المقصودسرد قصة واقعية .. ولعل رفيق ذكر الحقيقة المرة تلك الحقيقة التي كثيراً ما يتوقى الشاعر اباحتها في مثل هذا القالب ولكن عباقرة التاريخ حين يدخلون التاريخ لا يهمهم ما سيقال عنهم .. والمهم عندهم ان يتركوا عملا يخلد بعـــد مماتهم .. ورفيق احـد اولئك الذين لا يكذبون .. لا على انفسهم ولا على الغير .. ولا يراؤون ولا يتظاهرون بما ليس من سماتهم ومن شيمتهم .. ها هو رفيق يصف واقعة حدثت وكثير من الناس لا يروقهم ان يصف شاعر له مكانته وشخصيته في البلاد محلا للدعارة مثلا ولكن الادب المنطلق لا يعرف حدوداً مع حقيقـة الواقع .. ها شاعرنا يدخل البيت بعد التردد خوف الوشاة وها هن يقبلن اسراباً بعضهن يرتدي الحرير والبعض عارية الى نصفها ويجمل التعارف بين رفيق والغواني ولكن ماذا سيحدث له من الحيزبون .. تلك العجوز المتصابية ؟

فجاءت على غرة حيزبون ... تبربر مزبدة راغيـه
فقالت وهل في يديكم جواز ... يبيح الدخول الى داريه
فأمـا أنا فادعيت بأني ... غريب ومن بلدة قاصيه
وهذا اخي وكلانا أتى ... من البحر في الجمعة الماضيه
ولكن اخينا رأت وجهه ... تبدل من شمس (اودانيا)
وصار يشابه (محمود) أو ... (رفافيد) في نظر الرائيه
ولم يتكلم من الخوف أو ... مخافة (كشفتنا) الخازيه
فقالت كذبتم وهيا اخرجوا ... الى حيث القت الى الهاويه

فما زلت امسح اطرافها   واخرجت سيجارة غاليه

ودسيت في كفها فضة   وقلت نزيدك.يا(ماريه)؟

فبعد اللتيا وبعد التي

اجابت ولم تك بالراضيه

فقالت اذن اسرعوا انني   اخاف من الشرطة الآتيه

★

اية واقعية بعد هذا اللون من الأدب وان كان طليقاً ؟ الأدباء والقصاصون يمجدون الأدب الغربي وينقلون عن شعرائه ويطرونه اطراءاً يخرج عن افق القارىء والسامع ويحلونه مكاناً علياً من صدورهم وينحنون لهالته تقديراً واجلالاً.. يلبسونه ثوباً من الماس حتى يخيل اليهم انفسهم انهم تجاوزوا حدود العقل ..كل هذا الجانب تمتع به الأدب الغربي حين لم يلتزم وحين كشف عن الحقيقة ذلك الدثار الذي كان يحجبها قبلاً.. وسرى هذا الأدب في كواليسه الى العقول فسما مع سمو الانسان ، وارتقى مع رقي الوعي ووصل مع الفكر الى قمة الآدب .. لا لسبب الا لخروجه عن التزمت القديم وكشفه النقاب عن وجهه ليبدو ادباً لا يقف عند الحدود .. اما ادبنا فمع الاسف حتى حينما يسمو احياناً عن الآداب الاخرى بمثل قصيدة رفيق هذه التي انطلق فيها فانتج أدباً وصفياً طليقاً لم يحجبه تزمت ولا خشية ولا رهبة كاتب .. لأنه ادب والأدب لا يخشى حامله السرقة او الاعتداء .. ادبنا هذا .. بدلاً من ان نقيمه ونعطيه حقه من النقد ، ونمجده ولو بأقل من تمجيدنا للأدب الغربي او العربي المعاصر له .. نحن على

النقيض نقلل من شأنه ومن اعتباره ومن مكانته ونتنكر له صراحة وننعته بأنه قول وكفى .. وهذا ما حدا بالآداب العربية الى جثوهـا بعيدة عن ركب الحضارات الجديدة .. بينما نرى الركب الفكري الغربي يسير بل يطير طيراناً ليصل الى القمر مع سفن الفضاء .. وكم انا في حاجة الى كلمة من اديب اسمعها بهذا الشأن !! ولاتابع قول رفيق :

أنت ام ابليس مذعورة تنتف شيبتها باكية
وقالتلنا اسرعوا وادخلوا الىآخر البيتفيزاويه
وجئنا لباب فكان (الكنيف) فقالتهناومشت(جاريه)
فقلت تفضل فقـــال أنا ؟ فقلت نعم •• وبلا لاغيه
فتحت(الكنيف) فكانظلام وفاضت روائحه الغاشيه
فاقسم لايدخلن (الكنيف) ولو ذهبت روحه فانيه
فقلت اخي ليس وقتالعناد ولا ساعة (الهرجةالفاضيه)
تفضلهنـــا واصطبر ريثما تزول مخوفنـا الطاريـه
ولكنه (جاء من جـده) وادرك الفاظي الهازيه
فقال وانـت اتهـزأ بي ؟ وتمزح في ساعة زاريه
وطالالعناد وطال الجدال الى ان مضـت برهة كافية
وادركنا الله من لطفه بستر فضيحتنا الخازيه
فجاءت تبشرنا الكندير وتفرح اذا خلصت ناجيه
.. عرقاً .. ناديةخرجنا واجسامنا والثياب مبللة

وهاجرني بعدهـــا مـــدة الى أن ترضيه ثانيــــه
ومر زمان .. اذا قلت هيـــا (تفضل) نذكر الفاظيـــه
فيضحـك حتى يكاد يبـول ويضرع يطلب كتمانيـه
فهذي وقائع استاذنا وكم مثلها لم تزل خافيــــه
فسل عنه (معطى) يخبرك كم له من فصول « باودانيا »
ونختم بالخير أخبـــاره ونستر عوراتها الباقيـــه
فان له مع « حلاقـــه » حديثاً يريد له راويـــه
ولا ننكر الحـق في انـــه اديب له قيمة غاليه
كثير الإصابة في نقده فلست تصيب له خاطيـه
ولكنه يعتني بالثياب ويعشق انواعها الراقيه
وبالاختصار فنعم الصديق لـه عندي الرتبة العاليـه

لم يترك شاعرنا كلمة دعابة الا وحشاها في قصته مع رفيقه حكاية « ماريا » حيث عرج الشاعر وصديقـــه الى المحل الذي تديره ، وكيف ان الشرطـــة مر رجالها وكان وقتئذ الخطر على العرب ارتياد المحلات التي يرتادها الايطاليون فما ان سهل الله الحيزبون العجوز المتصابية ماريا وسمحت لهما بالدخول بعـد أن دفع لها النقود في يدها وقالت لهما اسرعا واقضيا حاجتكما واخرجـا .. حتى دخلت « الداورية » الشرطة فأدخلتهم الى المرحاض «الكنيف» وأغلقته عليهما فانتشرت عفونة المرحاض فيهما وتمرد صاحبه الذي ينعته بأنه من مكان اسماه «اودانيا» وستر الله الفضيحة وخرجا من عند ماريا .. وصاحبه هجره ومرت مدة على هذا الهجر والقطيعة ولكن رفيق استسمحه .. وسأل عنه وصار كلما يقابله رفيق يقول له « تفضل » وهي تعني مـــا تعني من القصة .. حتى يقول

شاعرنا سل عنه « معطي » وهو اسم كذلك موضوع فمعطي يعرف عن صاحبه فصولاً عدة سيما فصله مع حلاقه ثم يعترف رفيق بأدب صاحبه وانه كثير الاصابة في النقد . . وانه أنيق الملبس ، وبالاختصار فهو عنده نعم الصديق .

* *

٤٤

مــع رفيق في ذكرياته

١

أعلل نفسي بأني قد أكون غير متعرض شخصية أحد حـين نقدت ديوان شاعرنا الكبير رفيق وحسبي انني أودي خدمة للأدب ورفيق ذاته كثيراً ما كان على نقيض ما كنت اعتقد انه مفيد وكنا إلى مـدة قبل وفاته غير متفقين في بعض المعتقدات وانا حين تناولت رفيقاً بشرح بعض محتويات ديوانه والتعليق على جودتها .. لم أكن متحيزاً .. والله يعلم وحده انني إنما قصدت نزاهة النقد وبرزت في كتاباتي كلها ناقداً حراً لا اقف الا عند حـد الحقيقة .. والأدب يتطلب لرفعته نفوساً لا تؤمن بالأحقاد .. خالية من التعقد والتزمت والالتزام .. وكان بديهياً أن اعجب بهذا الاعجاب ولعل القارىء ينفذ إلى أعماق الشاعر حينما يقرأ له .. ودعابات رفيق ونكاته وأسلوبه المتحرر الجزئي الساكب في تفصيل الحوادث والأحداث .. لا يمكن لأحد ان يغمطها حقاً واني حين اقول عن رفيق بأن الواقعية الجديدة في شعره .. والانطلاقات الحية الـتي تضمنتها قصائده وجودة التعبيرات المنتقاة انتقاءاً يدل على سعة إطـلاع وعمق في التجارب كل هذه تجعل رفيقنا وشاعرنا في مصاف كبار الشعراء في العالم العريق في المعرفة وإذن فمن الجحود والنكران ان لا نعترف بهذه العبقرية .. وفي قصيدة رفيق

عن الشاعر والقائد الفاشستي الايطالي «دانونزيو» مثلاً ما يجعلنا نكبر عبقريته..
لأسباب منها أن شاعرنا أراد أن يلفت النظر إلى مدينة « فيومي » التي كان بطلها وان يوغوسلافيا احتلتها من ايطاليا احتلالاً بالقوة والنصر العسكري ..
واراد ان يوصي بأن الفاشية ليست وليدة موسوليني بل كانت وليدة ذلك العصر الذي سبقها عندما كانت اوروبا رازحة كلها في نطاق ضيق من الحريات وكانت كلها تتغنى بالفاشية. فقد اراد رفيق أن يذكر الايطاليين بأنهم لا يفرحون باحتلالهم ليبيا وان الحرب سجال .. ثم اراد ان يتخذ من شخصية « دانونزيو » مسلكاً ليقول لدانتي انه ليس أول من جاء بالمسرحية الالهية وأول من جاب الجحيم ومعه فرجينيو .. وأحل رفيق أبا العلاء المعري والمتنبي والزهاوي كلهم محل الصدارة من الأدب والشعر .. في نفس الوقت الذي خرج رفيق فيه من نزعة المعتقد الضيق والاقليمية والقومية إلى نطاق اوسع مدى وأعم ادراكاً.
ايماناً منه بأن الأدب يساوي بين القيم .. ويربط بين شتى المذاهب والمعتقدات ذلك ان الأدب روح لا مادة وان الأديب غير السياسي .. ومن هنا كان لزاماً على الأديب ان يشارك في احداث الأدب العالمية. ووفاة الشاعر جبرييلي دانونزيو كان حدثاً عالمياً يحرك الهام الشاعر فيقول عنه ما يستحقه من أمجاد الحياة ..
والآن فلنعرج على ملحمة الذكريات التي يحملها شاعرنا.

وننتقل الآن من بعده	الى (سي اخينا) ولو ثانية
اخينا (الطويل) بلاخصلة	سوى أن اخلاقه راضية
لطيف بشوش ولكنه	سريع العبوس بلا داعية
وقد قال لي عنه دكتورنا	به جنة لم تزل خافية
اذا لم يقلل من الخندرس	فسوف تحل به داهية
الم ترَ صحته اصبحت	مزعزعة ركنها واهية
ومازال يشرب شرب الحمير	مع الصحب للساعة الثانية

ويصبح يشكو ليرتاح من   تلاميذه ساعة هانيـــة
وقـــد كان حدثني مرة   عن القرد بالقصة التالية
وذلك‌ان «أخينا» مشى   الى جهة الشرق في ضاحية
فلما تباعـــد في مشيه   لأجل التريض والعافيـة
وقدمالت‌الشمس‌نحوالغروب   تراجع كالناقة الراعيـة
يميل ويحدب في قامـة   تزيد ذراعاً عن السارية
فتحسبه نخلة مالهـــا   جريد تحركها ساقية
فقال وقد لاح في وجهه   شحوب‌من الوقعة‌الماضية
دخلت المدينة لاعلم لي   بقـرد تسلط في الناحيـة
تفلت من حبله وانبرى   يعاكس من مر بالسانية
فبينا أمر عـلى غفـلة   اذا القرد يرقص قداميـه
وفي لمحة الطرف في قفزة   على كتفيَّ .. وألوى بيـه
وصار يهمهم في اذني   ويلمس خديَّ من ناحية
ويطلب شيئاً ولكنني   اضعت من‌الهول‌افكاريه
فلم‌أستطع‌بعدطول‌العراك   سوى ان اطاوع ربانيه
وقفت وسلمت‌امري‌اليه   فصار يحمش اطرافيه
تجمعت الناس‌من حولنا   يصيحون في ضجة عالية
سمعت‌مشيراً‌يصيح يقول   تقدم الى مركز الناحية
فسرت به والجموع ورائي   تسير مهللة باكيـة
الى أن أتيت الى مركز   قريب بـه قوة كافية

فجاءوا اليّ وبعد اللتيا خلصت نجياً .. من الداهية
ولكنه فر فوق السطوح وغاب عن الأعين الرائية
تنفست من بعده الصعداء وجاءوا بماء من الخابية
تشهدت لله من بعدمـا شربت وعادت لي العافية
خرجت وما كدت اذهب حتى اتى قردنا .. مرة .. ثانية
وطار الى منكبي راكباً كما كان في المرة الماضية
فعدت الى موضعي صائحاً فجاءوا على الصرخة العالية

كلمات خفيفة الروح وظلال وريفة الأطلال .. وبسمات حلوة عذبة تتسرح من افوام عامرة بالحب سخية بالمحبة .. سهل ممتنع يرتبط ببعضه فلا تفاكك ولا مج ولا تعقيد ...«بحبحة» في الخيال وعمق في المعنى والمغزى وقصارى القول.. ان رفيق يأخذنا معه في هذه القفزات والوثبات البهلوانية الى عالم عامر بالنكتة والمزاح والطرافات..وقفنا على القصة الأولى ثم الثانية ثم غيرها وها هو رفيق يتنقل بنا كالرحالة من حالة الى حالة .. ويربطنا معه في الخيال والواقعة حتى يجعلنا نألف قرداً يتحدث عنه وللمرة الثانية يتحرش ببطل القصة فلما ان حضر الناس وقوة البوليس ليزيلوه من على منكبه في المرة الأولى ويطرد فيختفي حتى يحل منكبه ثانية ويقفز فوقه فلا يتحرك وها هو يصيح ويصرخ ويستنجد فما عساه فاعل بنفسه أو بالقرد هذه المرة ؟

ولكنَّ عاشقنا لـم يخف ولم يخشَ من نحوهم عادية
وظـــل يعانقني صابــــراً على الضرب كالصخرة القاسية
فبعـد انجـذاب وصوت سلاح تفرقع (كالبمبة) الداوية

تخلصت منه .. ولكنـــه اقام على الباب قداميه
رموه فاخطـــأه رميهـــم ففر إلى جهـــة .. ثانيـــة
وقالوا اقم عندنـــا للمساء لتهرب في الظلمة الداجيـــة
فصار المساء .. وجاء الظلام ولم يـــذهب القرد للسانية
فجاءوا بثوب وقالوا تستر به وامش في حالة خافيـــة
فما كدت اخلص الا بنذر «لسيدي الوحيشي وللزاوية»
فقلت اخي هذه قصـــة لعمرك لم يروها راوية
ولو ان « شارلي » اتى مثلها لعـدت من المثل الراقيـة
ذكرت بها قصة « السندباد » مع الغول في الجزر الخالية
فلا تبتئس بعدها انني اهنيك بالنعمة الضافية
هنيئاً لحسنك حتى القرون عليه موله .. صابية
وكانوا يقولون ان الطيور على مثل أشكالهـا هاويـة
فصرنا اذا قيل ان القرود عرفنا حكايتك الباقيـة
فهذي حكاية عمي « اخينا » وكم مثلها لم تزل خافية
وأما دخول الكنيسة في « سلوق » فادهى من الداهية
فسل عنه قسيسها اذ أتاه مساءاً وأنوارها خافية
وراح الى هيكل في الجدار يقبل اطرافه العالية
وصار الذي صار فاختم بخير ودع ذكر أحواله « الخارية »
وتلك لها قصة .. وحدها تريد لها .. كتباً وافيـة

ها هو الشاعر يخرج من دعابته الى تشبيه صاحبه بالقرد ويخلص من رواية صديقه والقرد ولكنه لا يقف عند وضعه لحادثة القرد وكفى بل يقول اسأل عن حكاية دخول الكنيسة في سلوق .. وينبغي ان نعلم بأن مدينة - سلوق - حيث شنق الزعيم الخالد عمر المختار كانت بها كنيسة وذلك ابان الاحتلال الايطالي حيث كان السكان المسيحيون بها يؤدون مناسكهم فيها ورفيق نظم قصيدته هاته التي كان يريدها من ألف بيت عام ١٩٣٧ حين كانت سلوق مقراً ومركزاً ارهابياً ضد الأهالي .. ويقول رفيق سل القسيس بالكنيسة عن صاحبه « اخينا » حين جاءه ليلاً والأضواء خافية وراح يقبل أطراف هيكل في الجدار ثم خدث حدث ومن الخير ان يختتم رفيق قوله هذا عن اخينا ؟ .. انه لن يذكر عنه شيئاً بل انه سيمدحه ويثني عليه بما يستحقه لما يربط بينهما من صداقة ووفاء ..

فندعو له الله باللطف في — مباديء جنته الآتيه
أطلنا عليه المزاح فلا — يظن بنا ظنة خاطية
فنعم الحبيب ونعم الصديق — له عندنا قيمة غالية
أديب له في اللطائف باع — وذوق وذاكرة صافية
وقد كان يأتي الي نهاراً — فيحرمني الرقدة الهانية
لنذهب نرتاض بعد الأصيل — إلى جهة البركة الزاهيه
فيا لهف نفسي على ما مضى — من الصحبة الحلوة النامية
سأحفظ ماعشت ذكر «اخينا» — وذكر شمائله الزاهية
يسمى العريبيد خنفر والسمطية والعجل — والراوية
قصير مكير له خنفر — كعصبانة الشمس في خابية
ووجه قد اسودّ من فعله — وخبث سريرته الخافية

«يبرطع» في شرب كاس صغير ويصبح في حالة «خارية»
فكم ليلة بت في رعيه اتبع خطواته الخاطية
وجيىء به بعد طول الصراع الى بيته الساعة الثانية
ليرقد لكنه بعدما اروح يتبع آثارية
فكم ذاق من «خرط مسعودتي» على ظهره ضربة قاسية
لقد اشبه الطبل بين يدي يصيح ويأكل بالعافية
وكم لكمة ورمت عينه أدرت خنافيره دامية
ولكن دقي في جيفة وهل تشعر الجيفة البالية ؟

قول الشاعر حلوف اسبانية هو تكنية أو كنية يكنى بها السمين البدين وعبارة حلوف تعني خنزير ويظهر ان خنازير اسبانيا اسمن من غيرها في البلاد الأوروبية الاخرى .. والشاعر كما اسلفنا يلقب أصحابه من مودة وثقة وحب بألقاب لا تحفظ فيها وكان اصدقاء رفيق يحبونه فلا يتأثرون بالتسامي التي يكنى اياهم بها فعبارة خنفر قصير الانف وعبارته « خارية » بمعنى « التبرز » وقول رفيق خرط بمعنى الضرب ومسعودتي هي عصا رقيقة عرفها اصدقاؤه لديه .. وكان رفيق اسماها مسعودة .. ويختتم شاعرنا قصيدته بالمثل المألوف عندنا والذي يقول « الدق في الجيفة حرام » بمعنى ان الحيوان الذي ينفق حرام ضربه أو تقطيعه من قبيل الميتة .

انها رحلة خيالية عذبة هادفة بالنسبة الى ترتيب درجات اصدقائه ومداعباته لهم .. وهي اسطورة ادبية أوحى بها فكر صاحب حي لا يرقد والذي يظهر جلياً في شعر رفيق هو انه كان خالياً من النغمات الفكرية .. فالشاعر على ما اعتقد لم يتزوج قط ولم ينجب فكان هذا الخلو المادي والاجتماعي موفراً عليه الكثير من المنغصات. وقد عاش ولم يلد ولم يتزوج ولكنه ولد في حقيقة الروح

ملايين الأنجـــال وتزوج خلوده الروحي والفكري فهو رب الاسرة الكبيرة من انتاجه وأستاذ مدرسة ستحيا مخلدة باسمه سائرة بتعاليم مبادئه في الحريـــة وتذوق الحياة والتغزل والترنم بالحب ووصف الجمال .. والتعبير الجريء حتى في ساعات الخوف والوجل .

* *

٤٥

كيف عـــاد رفيق إلى وطنه ...

هاجر ، وصبر ، واصطلى بنار المتابعة والمراقبة ، وفارق من يحب وتأوه، وأرق ، وتكمد وتكبد وذاق صنوف الحرقة وتذوق اصناف التجربة المرة ،كل ذلك بسبب شعوره الوطني.. كل هذا بصدد عقيدته وجراء رغبته في حيـــاة الحرية والسيادة والاستقلال .. شاعرنا عميق النظرة أصيل الفن .. مـــدرك الظريقة ،يقول شعره عن تفهم ومعرفة وينسج مـــن شعره كل ثوب يليق لأي عصر . وينحت من طينة عبقريته كل تمثال يليق لأية عبادة ، فهو يقول في الجمال حتى لتحسبه ممسكاً بالجمال يعرضه عليك ويهجو حتى لترى المهجي أمام ناظريك في الصورة التي يرسمها الشاعر ،ويمدح حتى ليحبب اليك من مدح ولو كان عدوك ويرثي حتى لترى المتوفي مبعوثاً اليك من جديد في صورة الحسن الذي شاءه شاعرنا يتندر حتى يضحك رغم حموتك .. يداعب حتى لتقول ان من يداعبه عدو ثم مـــا ان يخرج بك من القصيدة حتى ترى من داعبه ومازحه أجل مخلوق وأعظم شخصية .. وخلاصة القول ان رفيق عميق له اصالة فنيـــة ظاهرة وبارزة وهو مثقف ثقافة شعرية مطبوعة .. وهو دون جـــدال شاعر عصره في بلاده .. فإذا اردنا ان نعريه عن هاته الاصالة فإنما الدليل ينقصنا لأن

الثابت لدينا انه عبقري ... وكلمة مخلصة فقط هي التي تعطينا الملامح وتهدينا الى الحقائق ، الا وهي .. ان كل ما عندنا من تراث شعري منذ فترة احتلال ايطاليا لبلادنا الى اليوم ان هو الا حصيلة ما تركه رفيق لنا .. فإذا حاولنـــا تبديد هذا التراث لنزعة نقدية فقط وقبل ان نحصل على رفيق آخر فإننا دون شك نهدم اثراً طيباً من آثار امجادنا وعزتنا .. وها هي صورة اخرى لرفيق الذي تصله انباء بلاده بأن العدو جلا مهزوماً مطروداً خاسراً الجولة تاركاً ليبيا لليبيين .. وها هو الشاعر يشمر الى العودة .. وها هو يعود الى وطنه .. مردداً ابياتاً سارت مسرى الامثال ..

وكل مسافر سيؤوب يومــــاً اذا غنم السلامة والايابا
ويا وطني لقيتك بعـــد لأي كأني قد لقيت بك الشبابا

ها هو رفيق يسمع بطرد الاغتصاب وبكبوة المغتصب وبجلاء الجائر المتسلط؛ ايطاليا تنهزم وتدخل ليبيا قوات محتلة وتستلم الامن فيها قوات من الجيش الليبي العربي .. افليس عليه ان يقول وهو في طريق العودة عام ١٩٤٥ قصيدة يبثها لواعجه وذكرياته .. بعد ان منّ الله عليه بعودته وعدوه مطرود منهزم خاسر خاسي فماذا قال ؟

قد « انتلف » الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار
الى بئس المقر وحيث القت برحل حول ساحته الدمار
مضت مصحوبة بدعاء شر يكرره شمـات واحتقـار
شقيت بحبها ولقيت منهـــا جفاء مسني منــــه الضرار
هجرت لأجلها وطني وأودى بخير العمر شيب وافتقـــار
الا يا ام عمرو لا تظنني بأني عنك يشغلني اصطبـار

قد انعقدت محبتكم بقلبي «كما عقد الحليب ـ الخنفشار»

من الانصاف ان لا نرى الثوب كما هو منسوج مظهراً خارجيـــاً.. انما إذا دققنا وامعنا النظر في أسلاكه وحياكته نتبصر الجودة في الغزل والنسج ثم جودة الرداء نفسه .. وقد لا يستسيغ البعض عبارة رفيــق « انتلف » بمعنى ذهب .. ولكن اذا علم بالعامية ان عبارة انتلف تعني .. ذهـــاب الانسان الممقوت .. وتعني زوال الشيء المكروه .. فـإذا قيل لانسان « انتلف » تعني اذهب دون رجعة او ارحل غير مأسوف على فراقك .. وهنا الغاية التي قصدها رفيق فقوله قد انتلف تعني الفرحة للذهاب .. وهو هنا يضيق بالحمار الذي ظل حقبة دون رغبته فقال انتلف مكان قوله رحل او ذهب أو مشى .. او طـــرد ... وام عمرو هاته « ايطاليا » التي هجر من أجلها وطنه وأودى بخير عمره «الشباب » مشيب وافتقار .. لا تظن انه يشغله اصطبار عنها فالمحبة انعقدت بقلبه نحوهــا كما عقد « الدوث » الخنفشار . الحليب و « الدوث » خميرة الحليب توضع لرب الحليب .. ورفيق هنا يشمت ويتشفى وقوله ان محبتها « ام عمرو » انعقــدت بقلبه من قبيل المجاز فالعكس هو المقصود .. ولكنه هنا يريـــد ان يناجيها بعواقب الظلم فـــإذا ناداها بالجفاء لا يمكنه ان يسرها لواعجه ويفسر لهــما احاسيسه ..

احبك رغم من ضحكوا وقـــالوا	« كلام الليل يمحوه النهـــار »
ذكرنا عهدك الماضي فقلنا	« وفي الماضي لمن بقي اعتبار »
فهل وعظتك احداث الليالي	بما فيه اعتبار واذكار
وهـل ايقنت ان الحق يعـلو	وان عواقب البغي البوار
لقد اسرفت في الطغيان حتى	بدت منك الحماقة و « الفشار »
ودلاك الغرور الى التغني	باحلام فبددها اندحار

احلك جهل قدرك في محل — اعز مكانة منه .. الوجار
فكنت كنملة فرحت غروراً — باجنحة فاهلكها .. المطار
تولت مثلما جاءت بخزي — (فلا رجعت ولارجع الحمار)
ذكرنا ضجة كانت هراءً .. — ودعوى مدع .. وله خوار
وجعجعة وليس هناك طحن — ومعزاة تنب .. لها يعار
وسنوراً يمثل دور ليث — اذا هو حين جد الجد قار
تبجح وادعى ما ليس فيه — فكذب مدعاه .. الاختبار
قد انفضح الذي أخفى طويلاً — من التدليس وانهتك الستار
وكانت شر عاقبة تلاها — حتام مسكه زتت وقار

ها هو الشاعر يفشي حبه المجازي ويعريه عن حقيقته اذا هو تساؤل هل وعظت أم عمرو احداث الليالي بما فيه الاعتبار والاذكار ؟ وهل ايقنت ايطاليا بأن عواقب البغي ان هو الا اندحار وبوار وان الحق يعلو .. ويذكر الشاعر ايطاليا بقوله لقد اسرفت في الطغيان حتى بدت حماقتها ظاهرة وهي (فشار) وتعني بالعربية الضوضاء والتظاهر .. والدلال .. دلال الغرور الذي تتغنى بأحلامه .. بدد هذا الدلال اندحار وهزيمة وذلك الحكم الجميل باحتلال النيل والشرق ذهب سحابة صيف .. لقد انهزمت من ليبيا والحبشة والصومال ومن كل مكان طغت فيه باحتلالها وحمقها .ان جهلك يا ايطاليا احلك مكاناً خير منه وارقى الوجار وهو مأوى الضبع الكريه وقد مثلت دور النمله حين اراد الله لها الهلاك ففرحت بجناحيها اللذين اهلكاها طيراناً .. وانك كالسنور الذي مثل دور الأسد ثم بدأ فاراً صغيراً هزيلاً .. والاختبار كذب مدعى ايطاليا فإذا هي بعد التبجح انفضحت وانهتك ستارها وخاتمتها كانت زفتاًوقاراً .

١

اعز من الحياة الذي حياء　　اصيب بما يضيم .. الانتحار
فان الموت خير من حياة　　اذا انجى من الموت الفرار
ذكرنا من شقائك ام عمرو　　ثمود .. وكيف اشقاها قدار
اطاعت رأيه فثوت وكانت　　عقوبتها بأن خلت الديار
كذلك من اطاع الفرد جهلاً　　فإن مآل دولته .. انهيـار
تلا عتب على الأقدار فيما　　لقيت فليس من قدر قمار
وليس من السياسة في محل　　صياح و «انكلاب» واغترار
لقيت جزاء فعلك فاستريحي　　فمالك والفتوح والانتصار
وليس عليك فيها بعد عار　　اذا ابقى الحياة لك الاسار
«فما في صولة الأرباب عيب　　ولا في ذلة العبدان عار »
سنذكر ما حيينا منك ثأراً　　له في طي اضلعنا .. اوار
سنذكر حادث البطل المفدى　　« ابي المختار » ما طلع النهار
ونأخذ ثأره حتماً .. فعار　　نعيش وشيخنا دمه جبار
شهيد الحق مبدؤه جهاد　　بإيمان وذاك لنـا شعـار
شعار للشباب الحي اني　　كفيل انـه لحمـاه ... جـار
سيبذل في هوى الاوطان روحاً　　وان لم يدع للموت اضطرار
وفي همم الشبيبة لي رجاء　　ولي بهـم اعتـزاز وا فتخـار
اذا لم نستقلّ فمستحيل　　يقـر لنـا على ضيم قرار

هذه الأبيات التي تعد منهجاً حياً للوطنية ذكرنا من شقائك أم عمرو ثمود ..

يقصد كيف كان قدراً عاتياً في ثمود حتى كانت الخاتمة خلو الديار منه ومـــن جبروته .. وتمثل بقول ابي الطيب المتنبي :

فما في صولة الأرباب عيب   ولا في ذلة العبدان عار

ويذكر رفيق الأجيال والشباب بالشهيد عمر المختار الذي كان مبـــدؤه الجهاد في سبيل الله والوطن ثم ها هو يختتم القصيدة بقوله انه من المستحيل ان يقر لنا على الضيم والقرار ما لم نستقل ونتحرر ونسود بلادنا .

.. مجمل ما جاء في الكتاب الأول من ديوان شاعر الوطن الكبير احمدرفيق المهدوي .. وطنية في عمق واصالة في الفن.. مفردات سهلة الفهم محبوكة مـتراصة لا تحتاج الى قاموس مخلوطة احياناً بالمفردات الدارجة ليسهل فهم المضمون للعامة عندما يريد ان يخاطب روح الجماهير...دعابات وسخريات ومزاح متواصل.. عتاب وود وحب وهجر وقصص ولوعة ووصف حي لكل حركات النفس .. والحقيقة ان رفيق .. اثر تاريخي للأدب الليبي يجب ان يقدس .. ويأخذ محله اللائق من نفوسنا ومنذكرانا له ومن حياته التي عاشها لله والوطن مخلصاًمتأججاً بالحب للوطن المفدى .. واعتقـــد ان وزارة المعارف لو طبقت حفظ بعض أبيات رفيق كمحفوظات للمدارس تكون قد أسدت خدمة لتاريخ التربيـــة الوطنية في بلادنا حتى نعيد جيلاً يؤمن ببلاده ويتغنى بأمجاد شعره الوطني الخـــالص ومن ثم يخلد المواطـــن البارزة في المسلك الرفيقي في الشعر الحديث . .

وفي الكتاب الثاني لديوان رفيق سأحرص بعون الله على تفسير الشواهد والآثار التي سأجل فيها أصحابه دون كلل ولا ملل يدخل على القارىء.وحسبنا من رفيقنا وشاعرنا انه حيٌ في قلوبنا وان مدرجه في الجامعة الليبية يبعث مع السنين طاقات ليبية جبارة ستحمل مع الزمن راية الأدب لتقدم الى رفيق باقة

من زهور الفكر الذي لا يتحيز والعقل الذي لا يتأخر والوجـــدان الذي لا ينكر للرجال حقوقها .. وهناك سيظهر التمثال النحاسي الجبار لرفيق شاعـــر الوطنية والحب والجمال .. وصاحب المدرج الذي انبعثت من عتباته الانطلاقات الفكرية الجديدة في عالم الأدب.

***

٤٦

حقيقة الفترة السابقة للاستقلال

من يتغنى في جميع اطوار حياته بالحنين الى الوطن وإلى اهل الوطن لا شك انه يحس بثرى بلاده تراباً مقدساً ، فيستجمع كل جارحة ، ويلملم كل حساسية ويجند كل شعور .. ليقابـــل التربة .. ليلثم الحصى ، ليجل مقدسات الوطن الحبيب .. وليعبر من خلال كل ذلك الى حياته في بلاده يمارس حقه كاملاً .. ويتمتع بصفا حياته تاماً ويبني لمجد وطنه ما كان قد فات عليه البنيان .. وها هو رفيق المهدوي يرجع بعد غربة طويلة قطعت من عمره احلاه ومزقت اللذة من صباه والتهمت عمراً من عمر رفيق القصير .. ففي ٣٠ / ١٢ / ٤٥ ومع مطلع عام ١٩٤٦ تناثرت حول قدمي الشاعر الورود المفتحة براعمهـــا لاستقبالها .. وانتشرت الشمس لتستقبل مشاعر النور والحرية والجمال وترطبت الأرض اليابسة لتضمغ عيني الشاعر بندى طالما حن واشتاق اليه وهرع الاحباب والاصحاب والأهل والسكان الى محط رحال رفيق يهنئون ويصافحون ويقبلون ويكون لطول الفراق ورحم الله القائل الامير .

وكل مسافر سيتوب يوماً إذا رزق السلامة والايابا

ويا وطني لقيتك بعد لأى كأني قد لقيت بك الشبابا

أما (السيد) ابو مسعوده تلك العصا الخيزران الرقيقة والتي طالما لمست اقفية اصدقائه واصحابه من غضب أو دلال .. شاعر الوطن الكبير المغفور له احمد رفيق فانه يقول :

رجع المطوح من بعاده — عاد الغريب الى بلاده
الحب يفعم .. روحه — والشوق يلهب في فؤاده
وبشائر المستقبل الزا — هي تضاعف من جهاده
ليرى حيـــاة حرة — هي وحدها اقصى مراده
كانت مناه وكان من — جرائها سبب اضطهاده
اهون بمـا قاساه من — عسف ونأي عن بلاده
لو كان مقتصراً عليه — ما تفكر في ازدياره
لكنه الوطن العزيز — اصيب حتى في جماده
ظلم العـــدو وجوره — بلغ النهاية في اشتداده
قد ضر لكن لم يكن — باضر من عدم اتحاده
من ذا الذي يدعو الى — تقسيم جزء وانفراده؟
تمزيق برقة عن طرا — بلس خروج عن سداده
ما تلك غـــير خيانة — تاتي على باقي عتاده
ومن الذي يرضى بحـ — ـكم غير حر في بلاده ؟
وطن اذا لم يستقل — بغير شرط من قياده
ويعيش عزيزاً هانئاً — بجماع رأي من سواده

لسنا حماة .. عرينه		كلا ولا آساد واده
فاحكم على المنشق عن		رأي الجماعة بارتداده
ومن المسر لنيل نفع		بالتزعزع في اعتقاده
وعلى المشاغب المراتب		بالمصيبة في رشاده
يا قوم كل يدعي		وطنية هي من تلاده
ويسر حسوا في ارتضاء		واقتناصاً في طراده
ويقول إني خادم		وطني ويبرق في ارتعاده
والحال يشهد اننـــا		لم نسع الا في فساده
فاذا اردتم نجحـــه		فيما يحاول من جهاده
كونوا جميعاً قوة		لا .. كل فرد .. باجتهاده
أما الحياة معاً وأما		الموت من أجل اتحاده

يقول ديوان الشاعر في حاشية الصفحة السادسة من الكتاب الثاني (وجهت اليه رابطة الشباب الليبي الدعوة لتكريمه فلباها لكي يبدي وجهة رأيه وينصح باتباع الطريق السوي للوصول الى ما نبغي .. ولقد افهمهم ان تلبيته لهذه الدعوة لم تكن فرحاً بالتكريم بشخصه ولكن سرور بوجود شباب طامح يسعى الى تحقيق الغاية .. اليس اسمها (رابطة الشباب الليبي) وهذا ما يصبوا اليه) ثم يقول الديوان : ان دعوة من اخوانه في طرابلس وصلته ولم يتمكن من تلبيــة الدعوة الخ . وفي آخر حاشية الصفحة جاء : اما جمعية عمر المختار فقد كان احد اعضائها البارزين وسنرى في قصائده الوطنية ما يشرح وجهة نظره من عدة

نواح) .. وانا لا ارغب مطلقاً في ازاحة الستار عن بعض الذكريات ذلك ان حلوها ومرها متفقان في لذة العمل الوطني الخارق .. وحقيقة ان رفيق عند رجوعه الى ارض الوطن كانت موجة العمل الوطني على اشدها هياجاً .. وكانت هناك جمعية اطلق عليها اسم جمعية عمر المختار . هذه الجمعية انبثقت عن فكرة للمرحوم اسعد بن عمران الذي كان احد جنود الجيش السنوسي ثم مرض وعند زيارتنا له بمستشفى القلعـــة بكى وطلب منا تبني فكرة جمعيته التي اسسها بالمعسكر السنوسي بالكيلو التاسع بعدالاهرام حيث تم تدريب الجيش السنوسي الباسل .وقد اسس المرحوم اسعد بن عمران جمعية عمر المختار الخيرية من لفيف من اخوانه كان من بينهم علي الجدايمي وفرج بالروين والمرحوم السنوسي كدوم ورجب النيهوم وصابر وبن غزي ويحيى مخلوف والمرحوم الزروق فلاق ومحمود غالمرني وفتحي الجهمي والدكتور مهدي المطردي ولفيفاً من الجنود بالمعسكر .



٤٧

للام في نسلها نصيب

ليت رفيق المهدوي حياً يشهد معرض الاشغال اليدوية بمدارس بنات اليوم ليعجب بأكثر مما اعجبه معرض الاشغـــال اليدوية الذي زاره عام ١٩٤٦ في بنغازي واوحى اليـه بقصيدته تحت عنوان (معرض مدرسة البنات) وليرى المعارض تعم انحاء ليبيا وفي جميع مدارس البنات والبنين .. ان رفيق يهزه كل عمل مجيد ، ويأخذ بمجامع لبه فعل حميد .. ولعـــل الشاعر حينما يرى نشاطاً ملحوظاً سيما من المرأة .. يهتز له ويفرحه ، ويوحي اليه بما يشجع هذه النهضة وهذا التقدم .. وذلك ان الايدي الناعمة حين تقبض بالمطرقة لتخبط بهـــا الصندان .. لا شك تغري من خلالها تلـك الاظافر الملونة المطاطة ، وتترك في النفس اثراً لم يكن مألوفاً من قبل .. والحياكة الناجحة المتطورة كذلك اثر من آثار الفن .. فمتى عرضت الفتاة ملابس وانواعاً من الطرزيات ليراها الانسان فيباركها ، ويشجعها ويعجب بها .. حركت هـــذه الانتفاضة كوامن الفن في الفنان الآخر فاستجاب تلقائياً لفن البراعم .. وكان عليه اثر الحركة التي تدفعه الى تقييم فن الفتاة .. ان يقــدم خاطراً من الخواطر ليهديه أثراً فنياً للفن .. فالكاتب يدبج المقال والقصاص ينثر من خياله على شخصية القصة لونـاً رطيباً

ليزين اللوحة التي يرسمها للمضمون والايديولوجية . وهكذا يلعب النشاط الفني دوره في الحياة ليحرك ساكناً او يثير رغبة .. ورفيق الشاعر المجدد الفنان يرى من خلال هذه اللوحة الفنية للمعرض شخصية معينة فمن هي هذه الشخصية التي يرجع بالفضل اليها ؟

نجاح تعليمنا البنات دليل فضل المعلمات

شكراً لسعي بذلن فيه عناية الام مخلصات

هنا يضع رفيق وسام الشرف في هذه النهضة التي كان من نتائجها نجاح هذا المعرض .. يضعه على صدر المدرسة المعلمة فهي صاحبة الفضل الاول على البنت التي تتعلم .. فهو يشكرها على سعيها التي بذلت فيه عناية الأم المخلصة.. فتقديم لهذه القصيدة بهذا المضمون الطري في بيتين اثنين يعتبر في حد ذاته تمكناً اصيلا من فن طيع المقود لفكره الخصيب ، وتخطيطاً سلساً يدل على قوة الشاعر في الوصول الى الغرض الذي يهدف اليه دون استعصاء ولا تكلف .. ورفيق يلد البيت من الشعر كما لو كان مرصوفاً في ذهنه قبل ان يفكر فيه .. ان شاعرنا ضرب مقياس النهضة بعصاة سحرية ليقيس في حقيقة واقعية نهضة الفتاة ويرجع اسبابها الى المعلمة .. ولكن .. من هي المعلمة ؟

فمن مساع (حميدة) في مطالب العلم ناجحات

ومن فنون «بديعة» في بدائع الفن باهرات

ثمار غرس تعهدته بالرعي الحاظ ساهرات

تعهد البنت وهو غض جناه ياتي بطيبات

لم يطل رفيق انتظار الأذن لتسمع من هي المعلمة التي ارجع الفضـــل اليها نيابة عن المعلمات .. وجعلها نموذجاً للمعلمة .. بل اطلق الرجل من عقالهـــا لتذهب حاملة شعلة العلم ولتسلمها الى حميدةوبديعة فهل كان رفيقمنصفاً في هذا الحكم الجرىء السريع ؟ اعتقد ان القارىء لا يشذ عن تأييد رفيق اذا علم ان حميدة هي السيدة الحاجة حميدة محمد طرخان والتي اشتهرت باسم الخوجة حميدة العنيزي وقد حشت لجنة الرفيقيات في ديوان شاعرنا رفيق بتعليق جاء فيه (يقصد السيدة حميدة محمد طرخاناشتهرت باسم حميـــدة العنيزينسبة لعائلة زوجها . كانت اول رائدة لتعليم البنت في بنغـازي بعـــد زوال الحكم العثماني وقد كانت لها مدرسة خاصة لتعليم القراءة والكتابـة واشغال الابرة في ١٩١٧ وما زالت حتى الآن تؤدي واجبها . وهي الآن رئيسة الجمعية النسائية الخيرية .واضيفالى تعليق لجنة الرفيقيات ان السيدة الحاجةحميدة العنيزي كانت زوجة للضابط العربي المعروف المرحوم عبد الجليل بك العنيزي وكان متقاعداً توفى زمن ما قبل الحرب بقليل .. كان ذا مظهر انيق جميل القالب وكنت آتي الى منزله فأجده جالساً على اريكته يطالع كتاباً .. فأمكث مع نجله عدنان في مذاكرة لم تبخلعلينا الخوجة حميدة بشرحما نريد مذاكرته بينما كانت السيدة حميدة تعد كذلك دروسها للغد .. والذي عرفته في الحاجة حميدة العنيزي .. وهو فضل لن ينساهلها التاريخ انهـــا مذ عرفتها عن طريق المدرسة .. درست فأحسنت التدريسووجهت فأرشدت الىالنهضة والتقدموهي الى جانب مجهودها الفكري والتربوي عنيت بالفتاة، فما تزوجت تلميذة لها او معلمة كانت تلميـذة لها .. الا ووقفت موقف المعد المعتني بحفل الزواج ولها يرجع الفضل في تنسيق وتجميل كثير من البيوت التي شاءت الظروف ان تكون مقراً لتلميذاتهـــا وصديقاتها .. ولم يكن المنزل يحمل طابع المدنية في كثير من بيوت الحاضرة قبل السيدة حميدة العنيزي وهي التي مـا زالت تقاوم على حساب اعصابها في

سبيل نهضة المرأة وتقدمها وتحررها . فقد شاركت في المؤتمرات النسائية الدولية ومارست التفتيش ورئاسة الجمعية النسائية حتى اليوم ولها فضل الخطى الثابتة الموجهة التي تخطوها المرأة اليوم قدماً الى التقدمية العربية الاسلامية والتحرر الشريف كما ان لها مواقف معروفة في ردع بعض من سلكن طيشاً فهي ورعة تقية لا تحب من جيلها من تنحرف ولن ترحم منحرفة بل تكون عليها سوط عذاب .. وهي طوال جهدها هذا ومجهودها الطويل تراقب خطى تلميذاتها وتدعوهن وعظاً ، وتوجههن الى الطريق القويم والدرب السليم .

أما بديعة فهي كما عرفها ديوان الشاعر (السيدة بديعة سرور اشتهرت باسم بديعة فليفله نسبة لعائلة زوجها تعتبر هي والسيدة حميدة أول من شارك في التعليم وكانت غاية في النشاط واليهما يرجع كثير من الفضل في النهضة المدرسية) واضيف قولي .. اني أرى من الاجحاف وقد تناول رفيق الحاجتين المعلمتين الرائدتين الكبيرتين فادخلهما تاريخ ديوانه .. ان أترك هذه الفرصة تمر مر الكرام فالسيدة بديعة فليفله رائدة كبيرة من رائدات النهضة النسوية في بلادنا اشتغلت بالتدريس طوال العهد الغابر للاحتلال ثم كانت أولى من تأسست على يديها المدارس مع السيدة حميدة العنيزي .. ولها نشاطات مدرسية مشهورة وهي المغضوبة التي تخشاها المدرسات والتلميذات ، فمتى رأت السيدة بديعة أمراً قد يعرض السمعة ولو قليلا لسوء التأويل اقتصت في الحين من الطالبة أو المدرسة ... والمعروف عنها انها لم تؤيد ميوعة في المرأة ولا تبرجاً مشيناً في الفتاة . وهي حريصة كل الحرص على اخلاق الفتاة .. ادت مهمتها على أحسن وجه .. زوجها المغفور له الاستاذ حسين فليفله .. استاذ الجيل ورائد المدرسة في الخرة التي تؤمن بالوطنية ، وهو صديق لرفيق ومن مدرسة الحيشي .. عرفته استاذاً حراً فاضلا مكيناً قوياً في مادته أو مواده التي يدرسها فرحم الله فليفله ورفيق .

البنت كالنبت خيره في نجابة العرق والنواة
أما ترى في الحصاد تبدو خباثة البذر والنبات
ان قيل ان الفتاة أم لامة في غد سيأتي
فما رقي الشعوب الا بامهات مهذبات
للام في نسلها نصيب مما لها من تعودات
هي النواة التي عليها سعادة الأهل في الحياة
تهذيب اخلاقها كفيل بصونها بين سافرات
وهل مع الجهل مايرجى من وأدها بين جاهلات
البيت عنوان ما لقوم وما لشعب من الصفات
عليه قِسْ ذوق ساكنيه في اللطف أم هم من الجفاة
إني أرى للنساء فيه وظيفه قلب في الذوات
صلاحه لا يكون إلا بهن ان كن صالحات
فعلموهن ما يربى فيهن روح المربيات
نريد منهن ان يكن ربات بيت وامهات

لمامة خاطفة نقدها كان على أسس من المعرفة الذاتية كما قال رفيق (وظيفة القلب في الذوات) ويقصد بالذوات جمع ذات يريد به الجسم .. انه اوضح معالم الطريق للمربية والتلميذة وخطط لها مستقبلها في قالب سلس وفي خريطة هندسية

ملحوظة ومرئية ومعروفة فالى المدرسة والمدرسة والتلميذة تحية رفيق الخالدة.. وتحيات للمربيتين الكبيرتين ، والرائدتين الفاضلتين الحاجة حميدة العنيزي رئيسة الجمعية النسائية .. والحاجة بديعه فليفله على مجهودهما ومـا قدمتاه من خدمة للعلم ونهضة الفتاة وتكوين البيت الجديد .

٤٨

حسن يوسف التريكي

الموز .. بين رفيق والحصادي

لم يخلُ شعر رفيق من هجاء.. ولكن متى كان يهجو ؟ وما هي صفة هجائه ؟ ان رفيق حين يهجو لا يضمن شعره تقريعاً ولا قذفاً وانما كان يسلك في هجائه مسلك الدعابة التي يرى منعوتها فيها انها مزاح فيتقبلها راضياً ويبادلها مزاحه مخلصاً متودداً .. ورفيق يحب اهل درنة ويعجب بالمدينة لأنه تأثر بمناظرها الخلابة، وكم قال فيها وصفاً وكم تغنى بواديها وبسواقيها .. واشتهرت مدينة درنة بانتاج الموز .وعند رجوعه الى ارض الوطن مر بمدينة درنة .. وكان اهل درنه قد احتفلوا بالشاعر احتفالاً كبيراً .. اعدت الولائم وتهـافت السكان محيين ومهنئين ومرحبين ولكن شاعرنا الكبير لا يهدأ له بال حتى يتحرش بشاعر درنه المرحوم محمد عبد القادر الحصادي .. وها هو بعد هذه الحفاوة يرجع الى بنغازي وينشر في جريدة برقة الجديدة في ١٨ — ٦ — ٤٦ هذه الدعابة :

اليس عجبـاً ان امر بدرنـة
وامكث فيها .. لا اذوق بها موزا
فلو كان معدوماً لسليت خاطري
بان ليس في وسعي لمنعدم حوزا

ولكنني ابصرت في كل موضع
عراجينه مطلوقة تشبه الجوزا

الا انـــه كالنجم بعداً مناله
محال .. الا فوزاً .. لمن ناله فوزا

ولا بد ان الشاعر الحصادي قرئت له القصيده اذ كان (اعمى) فنشر بنفس الجريدة رداً يوضح فيه الموضوع ويحمل رفيق عبء هجائه

فما البخل في « درنا » يرى من صفاتها
.. ولم تحرم الزوار من موزها حوزا

الى ان يقول :

اجبت فان لم تقتنع بجوابنا
وعذري عن « درنا » فشل اهلها (روزا)

ويعنى بقوله (شل اهلها روزا) مثل معروف يقـــال لمن يقتنع أي بمعنى احملهم على ظهرك خلفاً فهل سيقتنع رفيق العملاق .. انه ما يصدق ان يجـــد المساجل حتى ينشب اظفار بيانه في مخيلته .. وهو كالاسد الذي يبحث عن فريسته .. والحقيقة ان المرحوم الاستاذ الحصادي كان عفيف اللسان قوي الاسلوب طيب القلب سمح النفس مهذبها .. ومحباً ومعجباً برفيق .. ولكن رفيق لم يسكت عن المعتذر .. وربما كان رده عرضاً لعضلات اصالته فهو يريد ان يخرج الى الناس في ثوب جديد من شعره الفكاهي .. وفي رأيي ان الشعر متى كان عجنة طيعة في يد الشاعر .. واستطاع الشاعر ان يسبك منها أرق واعذب النغم الغنائي .. واروع واوقع اللحن الغزلي، واعظم وارفع القول الوطني .. واضحك واندر التفكة المزاحي .. الى غير هذا من الالوان .. فانه فنان بارع ونحات

عبقري .. بامكانه ان يصنع من طينته كل شيء واذن فهو عبقري عميق الفن أصيل المقدرة موهوب مكين .. فها هو رفيق يرد على المعتذر بقوله :

ومعتذر عن اهل درنة قال لي ... اذا انت لم تقنع فشل اهلها روزا
اذا وا فقوا عما تقول وانهم ... انابوك عنهم حاميا دونهم حوزا
سأفعل ماشاءوا اذا قر رأيهم ... على حمل الاثقال او أكلي َ الموزا
فخذ اولاً للذود عنهم وكالة ... وننظر فيما بعد من يكسب «الكوزا»
اردت لها كحلا فاعميت عينها ... واحدثت بيني والمحبين لي (بوزا)
دخولك بين اللحم والظفر ان يكن ... لبخل بموز لن تنال به فوزا
ساطعمه بالرغم منك لأنه ... «يقوي على ماقيل من يلعب «الروزا»

فسرت لجنة الرفيقات في حاشية ديوان رفيق الثاني تحت عنوان (اشيلهم) في هذه القصيدة عبارة (روزا) بأنها (كلمة عامية ومعناها ان يتمدد الانسان على ظهره ويداه ملتصقتان بجنبيه ويطلب من غـيره ان يحمله وهو ممدد هكذا كناية عن عجز المخاطب عن الحمل بهذه الحالة لصعوبتها والكوزا.. معناها قضية بالايطالية) أما قصة رفيق من عبارة واحدثت .. بوزا فمعناها .. غضب يقال فلان امبوز .. بمعنى غاضب .. أما رفيق فانه لا ينفك ساخراً متندراً .. يرد رده بمطلع يا جارة الوادي قطعة الفنان الموسيقار محمد عبد الوهاب .. ولكن رفيق يقصد بالوادي .. وادي درنه وليتمعن القارىء كيف يذهب رفيق في سخريته ؟

يا جارة الوادي رقدت وعادني ... ما يشبه الخراف في ذكراك
مثلت في الذكرى نداك وفي الكرى ... فتشابه الحالان من جدواك
ولقد مررت على الرياض بربوة ... فيها «تزحلق» رجل من وافاك

لم ادر ماطيب الطعام على الطوى حتى شممت روائح «الابراك»

وتأودت اعطاف موزك في الهوى واصفر كالالوان من مرضاك

ودخلت في يومين كانا كالدجى وخرجت شكراً بالسلامة شاك

وتعطلت لغة السماح وخاطبت اذني باللغة « الهوا » شفتاك

لا امس كان هواي فيك ولا غد جمع السلو فكان يوم لقاك

* *

٤٩

وفي الناس مرضى شهرة..

ان المغالاة افساد للذوق السليم .. فليت يفيد الناقد الاطراء الذي لا يكون مستنداً على اساس من صحة الاسناد .. والحقيقة ان تندر رفيق هذا كل ما فيه من طلاوة وذوق مرجعه الى تقليد قصيدة « يا جارة الوادي طربت » تلك القصيدة التي لحنها استاذ الموسيقى واللحن العربي محمـــد عبد الوهاب والذي لم اتمالك عنده اخفاء ابتساماتي كلما مررت بأسطر القصيدة .. يبين في وضـــع العبارات موضع الاخرى.. فالقول : ولقد مررت على الرياض بربوة غناء كنت حيالها القاك ـ كما هي القصيدة وضـع رفيق مكانها تزحلق رجل من وافاك .. وهذا يعتبر من رفيق تعرض لعادة معروفة في درنة اذ ان جل الصبية يذهبون الى مكان في درنه اسمة « الزحيقة » بدلاً من ذهابهم الى البحر للاستحمام .. والزحيقة ... عين نابعة في ربوة داخـل الوادي القريب جداً من المدينة ... وللعين مسلك في حوالي المتر والنصف مبني بالاسمنت تجري فيه المياه النابعة من العين حيث تجري الى تحت الوادي.. ولما كانت هذه العين عتيقة وقد مر زمن بعيد على وجود المسلك فإن ارضية المسلك مزلاقة اي انها تبدو لزجة ..والرجلان لا تستطيعان الرسوخ عليها..من هنا كان الصبية يقفون عند العين فلا تـكاد ارجلهم تطأ

المسلك حتى يقعون في الماء ويدفعهم مد السيل دفعاً قوياً يشعرون الا وهم عند آخر المسلك .. ويقول الصبية لبعضهم اذا ارادوا الذهاب الى هذه العين.. هيا الى « الزحيقة » نسبة للزحلقة على الجليد وهي الانزلاق .. اما قول رفيق لم ادر ما طيب الطعام على الطوى فهو تقليد للقصيدة التي يغنيها عبد الوهاب لم ادر ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعـدي فطواك .. اما رفيق فانه يقول : حتى شممت روائـــح الابراك . والابراك بقول محشية او بالاصح ورق العنب يحشي بالارز واللحم والبقول فيسمى عند استوائـــه « براك » بلهجة بنغازي و (ابراك) بلهجة اهل درنـــة وبالتركية « الظلما ».. ولم يسكت الحصادي وجاء بقصيدة نشرها ببرقة الجديدة ١ — ٢ - ٤٦ يلوم ويعاند ويقـاوم العملاق .. ولكن القصيدة جاءت مضطربة تصطك قوافيها كما لو كانت امام اسماك المارد الجبار .. ومنها :

فكحلي جلا عين الحقيقة فانجلت   تحاكي عيوناً في الحمى احيت اللوزا

والواقع ان الكحل لا يجلو عين الحقيقة وهو مسحوق أسود يزين الجفن ولا يؤثر على النظر .. ولكن الحصادي اراد ان يقول عن الحقيقة انجلت بالكحل فبدت مثل العيون التي في درنة ويقصد الجمال .. والتي احيت الموز وبالتعهد والعناية والرعاية الى ان يقول :

فلن تطعموه رغـم انفي بقوة   لتقوى فكل بطيخكم وكل الجوزا
ولن تحملوهم « روزة » زقفونة   معريــة لا تستطيع لها روزا

وهو يتحدى رفيق بهـذه التحرشات .. و « روزا » بمعنى سبر الشيء أو معرفة وزنه ولكن رفيق.. وما اعذب مثل هذه المساجلات .. يرد في ٨ ـ ٢ ـ ٤٦ وعلى نفس الجريدة بعد ان شعر من الحصادي انه غضب لتجريح احس

به خلال شعر رفيق .. فأكد رفيق انه ما قال إلا تندراً ومزحاً، وانه يجل اهل درنة ويكرمهم ويحبهم وها هو يناجي الموز بخصوبة قريحـة ملهمة كما لو كان يناجي حبيباً عزيزاً هاجراً مصداً.

يا موز حالت دونك الاثقال | انت العزيز واهلك البخال
أهواك يا حلو النسيم واشتهي | وصلاً فيمنع وصلك العذال
يالابساً من عسجد لوناً إذا | جردت من قشر فانت هلال
يا ناعماً ما بال اهلك بعضهم | خشن القلوب كأنها .. اجبال
يا طيب الانفاس لو طيبت من | ارواحهم رقوا لنا وانالوا
جعلوك « فاكهة محرمة » على | من نالها .. اثم وانت حلال
لو انهم طلبوا لاجلك قيمة | ما كان يعوزنا لذلك مال
ياليتهم كانوا « نسيباً كارهاً » | في شرطهم لما حموك وصالوا

لا أدري ما اذا كان رفيق رحمه الله في هذا الابداع الدسم المتفجر من ينبوع الذهن الصافي السليم قـد كان يقصد الموز ذاتاً أم انه في درنة كان يهوى فنعته وكنى به وتغزل فيه بالموز ؟ ولماذا يقول يا ليتهم كانوا نسيباً كارهـاً ان الصهر الذي يكره هيهات تنفع فيه حيلة .. وهيهات تبلغ منه الوساطة جدوى فلماذا يتمنى رفيق ان يكون أهل الموز حتى نسيباً كارهاً .. هل كان اليأس في الوصل بالغاً اشده ؟ باقي القصيدة قد يوصلنا الى معرفة الشرط الذي اشترطه اهـــل الموز ..

شرطوا لوصلك «روزة» لم يعرفوا | معنى الكلام فاغربوا واحالوا

ايظنهم عندي ثقالاً ! انـــني | والله اخجل ان يقال ثقال
أني أراهم مثل خفة روحهم | فوق القلوب كأنهم آمـــال
واجلهم عن ان يكونوا « روزة » | لو « شلتها » لاقلها مثقال
لو زرتهم ووضعتهم في كفة | ونفحت في الاخرى «القريض» لشالوا
كانت ملاطفة فاضحت عندهم | « صنورة العرفي » لهـــا اذيال
ليست باعراس تجشم اهلهـــا | ان يتعب الزمـــار والطبـــال
صارت «كطحن الرز» لا يبغي به | الا الخصام وان يثار جدال
في الناس مرضى شهرة وشفاؤهم | في ان يقول الناس عنهم قالوا
هذا بلاغ لا ترموا بعده | منى مجاراة لما سيقال
ان كان فرحا فليكن كالمـــلح لا | اكثاره عدل ولا اقلال
سأقول ان عدتم سلامـــاً انني | اخشى عليكم ان تسوء الحال

ولم يقف الشاعر الحصادي عند حده فقـــد تحدى انذار رفيق .. فنشرت قصيدته بتاريخ ٢٤ — ٢ — ٤٦ — « ايا عابراً » ومنها :

ايا عابراً للفخر بالشعر ينتمي | اتهجو لاجل الموز اهل التكرم
تخاطبه انت العزيز واهله | وصفتهموا بالبخل وهو بدرهم

الى ان تقول القصيدة :

فما انت اسرائيل في الصور نافخاً | (فتنسف اجبالاً) بنفخك بالفــم
فان انت لم تقنــع بهذا وزدنـــا | فما عندنا غــير الخميس العرمرم

حتى تلقنا نخشى الصفائح والقنا فلا ردع في قول الصفائح بالفم
و «ذرية» من بعدها ان تفجرت على الارض دكت ياسلام نسلم

صنورة العرفى مثل مملي استمرار اذكار الشيء.والخلاصة ان رفيق قطع المساجلة لأنه شعر بتحرج الموقف لأن الأمر اخذ مجرى آخر .





٣٦

خرف لهم واقرأ زبورك

كنا طلبة في ارض الكنانة .. وذات يوم جاء رسول من السفارة الايطالية الى حي المغاربة بالقاهرة يبحث عن مجلة لدى اي طالب ليبي اشتراها.. كنت طالباً متطلعاً الى اخبار ومعرفة مجاهدينا .. الامر الذي حدا بي الى التطفل للتعرف على بعض الشخصيات الوطنية الكبيرة ، واذكر اني يوم عرفت الشيخ عبد الحميد العبار ؟ كدت أطير من الفرح . عبد الحميد العبار الرجل الذي حدثني أبي عنه عند ما كنت صغيراً .. الحقيقة اني رأيت فيه الشجاع الاسد حتى في نظرته وطريقة كلامه .. وتعرفت بعده على المرحوم صالح باشا الاطيوش .. وهو زعيم قبائل المغاربة الذي دوخ ايطاليا بعزيمته وصلابته وجهاده .. وذات يوم دعوت الشيخ عبد الحميد وصالح باشا الاطيوش الى تناول غذائهما بمنزلنا نحن الطلبة ولم يتكبرا او يتأففا لكونهما زعيمين ومجاهدين كبيرين ، فقد حضرا الى منزلنا بالقاهرة وتحادثنا. حضر معهما المرحوم الفضيل المهشهش شاعر عصره ونصحونا بالجهاد في سبيل الوطن وانتظار اوامر الامير ليعلن الجهاد من جديد . وشعرت باعتداد النفس وحب للوطن ما شعرت به قبل .. ثم تعرفت على الزعماء الكبار عون سوف وحمد السويحلي وعبد الجليل سيف النصر ثم استمر التعرف على اغلب الزعماء .. بديهي ونحن الطلبة المتعلقون بأنباء زعمائهم ان يندس بيننا عنصر رسول للسفارة الايطالية .. وجاء يسألنا عن مجلة الهدى فأنكرنا صلتنا بها .. علماً بأن العدد

الذي طلبه كنا قد قرأناه جميعاً .. واهم ما فيه مقال سياسي للاستاذ المجاهد توفيق نوري البرقاوي من العراق .. حيث يلجأ السياسي الليبي الدفاع عن بلاده .. المقال نار .. وفوهة بركان تندلع نيران ثورانه حمماً على السياسة الفاشية في ليبيا .. وانذاراً بقرب ميعاد الزحف الجديد على الارض المغتصبة .. ثم شاءت الظروف ورعتنا عناية الله فأسس الجيش السنوسي، وتحررت البلاد ورجع توفيق نوري البرقاوي مع رجوع شاعرنا الكبير احمد رفيق المهدوي ولما كان ورفيق صديقين عزيزين وبطلين من ابطال الجهاد فقد ارتبطا بواقع الصراحة بينهما والمداعبات المتوالية . وقد انشأ البرقاوي جريدته (الجبل الاخضر) وشهر قلمه بعد ان جرد سيفه في الجهاد .. نفي توفيق البرقاوي وكان احد معتقلي بنينا الذين اسهموا في الحركة الجهادية ثم هاجر الى الشرق وطوف باليمن وحضرموت والجنوب والبحرين ولحج ثم استقر في العراق حتى تحررت البلاد فخف الى الوطن راجعاً ليحمل نفس الرسالة التي شرد ونفى واعتقل وذاق الامرين من اجلها .. كان استاذاً في الجغرافيا وخبيراً بالفلك وذا قلم جبار صريحاً نزيهاً لا يداهن ولا يتملق ولا يطلب شيئاً من متاع الدنيا الزائلة لنفسه لذا كان موضع التقدير حتى لحق بالرفيق الاعلى السنة الماضية .. خلال سبتمبر ١٩٦٥ عين مديراً للمطبوعات في عهد الاستقلال كما كان قبل الاستقلال عضواً في الجهات الوطنية .. ثم عين متصرفاً للكفرة ثم لدرنة ثم لبنغازي بعد تعيينه مديراً للاملاك .. واخيراً مستشار بالتسجيل العقاري وذلك بعد احالته على المعاش. وقد اعتبر المرحوم البرقاوي اعادة تعيينه تكريماً له وتقديراً لجهاده والحقيقة ان ارجاع بعض الرجال ذوي الماضي الطيب الى الوظائف يعتبر تقديراً وتجلة للماضي المشرف سيما اذا كان اولئك الرجال من النزهاء الذين عاشوا فقراء وهم في حاجة الى العمل حتى بعد كبرهم .. كان البرقاوي متحمساً لقضية برقة فلما اوشكت الجبهة الوطنية على انها لا تستطيع الاستمرار في مطالبها وطالبت بأعلان استقلال برقة .. اعلن البرقاوي ان برقة ستستقل ولما كان رفيق رحمه الله لا يغفل اعلان استقلال جزء من الوطن الكبير خفية ان يقع الجزء الآخر

فريسة لأطماع الخارجية.. وتقول الدول الكبرى ان قضية ليبيا حلت باستقلال برقة .. وكان يومئذ الموقف يطلب التمسك باستقلال ليبيا كلها ، غير مجزأة ذلك ان تونس الشقيق يرزح تحت الاستعمار الفرنسي وكذلك الجزائر ومراكش ويقول الليبيون انهم يعتبرون القنطرة للشمال الافريقي اذا استقلت ليبيا غير مجزأة فان استقلال تونس والجزائر ومراكش يعتبر حتماً وهذا ما حدث فعلاً بفضل الله وجهاد الشعب الليبي وحكمة عاهله المفدى .. فلما اعلن توفيق قوله ان برقة ستستقل .. رد عليه احمد رفيق بقوله :

ان شح وعدك رغم كل مناوي — صلى عليك الله يا برقاوي
اما انا فبمعجزاتك مؤمن — ومصدق ماجاء عنك وراوي
يا ايها المدثر المشهور قم — ياسيدي يا «بو العبا الحمراوي»
شمر لذيلك منذراً ومبشراً — واشف العقول من الجنون وداوي
ان كذبوك فمن مركب جهلهم — بالفرق ما بين النبي والحاوي
انا لفي زمن رؤوس رجاله — كالقرع والبطيخ والقلعاوي
لا خير في احد .. فاما جاهل — بالغش ممتلىء واما خاوي
خرف لهم واقرأ زبورك مالهم — اذن تصيخ لحجة وفتاوي
فأرح دواتك والقليم فانهم — لا يؤمنون ولو قذفت «الجاوى»
و اقبل سلاماً من عبيدك سيدي — صلى عليك الله يا برقاوى

هذا شرح ظروف هذه القصيدة وملابساتها .. امـــا البرقاوي الذي جاء يرتدي الزي العربي .. عباءة حمراء كستنائية وعقالاً على المنديل الطويل العريض الابيض الذى كان يغطي رأسه .. فهل لأبي العبا الحمراوي ان يسكت .. انه رد ولكن في غير هذا المكان .. والآن نقـد هذه القصيدة من الناحية الفنية عسير وغير ذي جدوى طالما كانت دعابة محشوة بالمفردات التي تؤدي جانب الغرض من

المزاح وهذا شأن القصائد التي ترمز الى شيء معين للتندر بشيء من المداعبة المعنية ولكننا مع هذا نحس ان رفيق يجذبنا معه في كل بيت لنأتي على البيت الذي يليه .. الواقع ان الابتكار في هده القصيدة من نوع الفلكلور ليس إلا . ومع ما عليه القصيدة من الرموز تعطي صورة الدعابة الجريئة العذبة .. فالذي يطلع بتمعن على القصيدة يكاد يرى رسم الصديق الذي يداعبه .. ويطل على الاحداث الجارية ذلك الحين .. وجميل جداً ان يقول رفيق لتوفيق « خرف » و « واقرأ زبورك » ويناشده بان يريح دواته وقلمه لأن أهل عصره لا يصيخون لو قذف لهم الجاوي ذا الثمن الغالي . البخور الذي يعجبه . وخلاصة القصيدة ممتعة رقيقة حلوة ولو انها ليست دسمة الموضوع .. فهي متنفس تنفس منه الشاعر وعبر عن احساسيسه وانذر فيها .. دعابة من شاء وسولت له نفسه عدم تصديق اعلان الاستقلال .

٥١

لفظ العروبة واسم الشرق يجمعنا

جاء في شرح الديوان الثاني .. مـا يلي : (اخذت الاوضاع تتخذ شكلاً تحكمياً من قبل الدولة المحتلة .. وشرع المواطنون في مقاومتهـا على صفحات الجرائد ببيان تصرفاتها الجائرة وكانت الوطن قد بدأت ومن قبلها برقة الرياضية في حملاتها المشهورة فارسل رفيق قصيدته)التي عبر فيها عن احاسيسه وتوجيهاته .. وجاء في الشرح ان (الوطن اسم أول جريدة وطنية صدرت في بنغازي عـام ١٩٢٠ اسندت رئاسة تحريرها الى المرحوم عوض بوخيله وكان يقوم بتحريرها المرحومان عمر فخري المحيشي والاستاذ محمد محمد بن عامر ولكنها لم تدم لان السلطة الايطالية في ذلك منعتها من الصدور .. ولما وجدت جمعية عمر المختار فكرت في اصدار جريدة رياضية عرفت باسم برقة الرياضية وكان ذلك عـام ١٩٤٣ ثم تعطلت عن الصدور وعادت الى الظهور عندما اصبح للجمعية مطبعة تحت تصرفها وهي مطبعة المحيشي وكان ذلك في سبتمبر ١٩٤٦ وفي أول يناير عام ١٩٤٧ استبدل اسم برقة الرياضية باسم (الوطن) .

قال رفيق في صحيفة الوطن في ٢١ / ١ / ١٩٤٧ :

عش رافع الرأس حراً أيها (الوطن) ... يعينك الحق والاقبال والزمن

جرّدْ يراعك مبرياً بذي شطب ... من الصراحة كي تصغي له الاذن

فرب قول جريء كان انفذ من سهم ورب مسيء قصده حسن
مقالة الحق جلجلها وان جرحت ولا يهمك من في نفسه احن
فالجهر بالحق فخر لا يفوز بـه في مأزق الهول الا الفاتك اللسن
وما الشجاعة في حرب بافضل من تصريح حر بحق .. أهله وهنوا

جودة الشعر ما كان يتفاعل معـه القارىء .. فتنصت الاذن في خشوع ولهفة .. مـا ان تلتهم المصراع حتى ترف في شوق لاستقبال المصراع الآخر .. الشاعر الذي يستطيع ان يقود الاذان بانغـامه الى الارهاف لما يقول هو ذلك الشاعر الملهم الذي ينتمي الى الخلود .. ويقول رفيق (عش رافع الرأس) فيه اعتزاز يذهب باحساس القارىء الى التخيل بان للوطن رأساً يرفعه اذا اعتز .. ويخفضه إذا انحط وانهار .. وهذا تعبير لذيذ ممتع مستساغ ، وقوله (ايها الوطن) منادى لمعروف .. وجميل جداً ان ينادي الشاعر وطنه فيخاطبه في استعارة الصحيفة .. والواقع ان اطلاق الشاعر على صحيفة الوطن اسم المذكر .. الوطن بليغ ومؤثر وجميل .. ثم ها نرى الشاعر يناجي الوطن بان عونه الحق والاقبال والزمن .. وهي مرادفات متغايرة ، ولكنها تنتقل في قيمتها مع وصفها فلو قال يعينك الزمن والاقبال والوطن .. ما كان اجاد •• ونراه يسترسل ليدفـع الوطن الى هدفه وبوسيلة تجريد اليراع بعد بريه أي تهذيبه بذي شطب وهو السيف ولكنه سيف الصراحة •• وهو الذي تصغي الاذان له •• ويرسم الشاعر الصورة الحية التي يقيم فيها القول الجريء بانه انفذ من السهم •• ثم يعفو ويكفر عن سيئة المسيىء لانه ربما كان قصده حسناً •• وهذا يدل على نفسية الشاعر المتسامحة •• لان المسيء من ابناء الوطن اذا كان حسن النية فان غفران خطئه خـيـر من التمادي في ذمه واستهجان فعاله بحيث يكسب الوطن عضواً صالحاً •• غير ان رفيق يقول من باب الاطلاق في الوطنية كلمة الحق دعهـا تجلجل حتى ولو جرحت فلا تهتم بمن في نفسه مرض لان الجهر بالحق فخر يفوز به الفاتك ذي

اللسان الفصيح في وقت الهول والشدة حتى يقول .. ان تصريح الرجـل الحر بالحق الذي اهله وهنوا عن التصريح به ليس بافضل منه الشجاعة في الحرب .. وهذا قول بالاضافة الى جودته يعني مضموناً دسماً قوياً مشبعاً بالفائدة .

صحيفة الشعب كوني رائداً فطناً ... لقد تشابهت السعدان والزمن
وغـر قومـاً سراب كاد يحسبه ... ظمآنهم لجـة تجرى بهـا السفن
كوني الدليل فقد ضلت بنا طرق ... « وغيب الرشد حتى خفت الرزن »
قومي باعلان آراء الشباب فـكم ... من مبدع بينهم لكنهم دفنوا
جنى على فضلهم ان الصحافة لم ... تشجع النشأ حتى انهم جبنوا
اين الشباب اراهم ساكتين وقـــد ... آن الكلام وحان المنطق العلن
يا ايها « الوطن » المحبوب لي طلب ... اليك فانشر حديثي انه خشن
وما عليك انا المسئول ان فرطت ... اليّ بادرة « فـــالحر ممتحن »
قل للذين عن الحرباء قد درسوا ... فن التلون ان الناس قد فطنوا
ثوب الخداع وان اخفى اذا بزغت ... اشعة الحـــق افشى سره البدن
لقد علمنا يقيناً ان عطفكمو ... على قضيتنا « من بختنـــا » محن
« رأيتكم لا يصون العرض جاركمو ... ولا يـــدر على مرعاكم اللبن »

(غيب الرشد حتى خفت الرزن) شطر من قصيدة لابي العلاء المعري تمثل بها الشاعر لعلاقتها بما يريد التعبير عنه ..لا ادري ماذا يقصد رفيق من قوله غر قوماً سراب ولكن الذي يبدو لنا من قوله قومي باعلان آراء الشباب الذين جنى على فضلهم عدم تشجيع الصحافة للنشأ وهو يرى الشباب ساكتاً وقد آن وقت

الكلام وحانت علانية المنطق .. يبدو ان رفيق لم يعجبه منطق الغرب الذي يقول آنذاك باعلان إمارة في برقة وادارة ايطالية في طرابلس وفرنسية في فزان.. واحياناً تدور اشاعات وشائعات بان ليبيا ستحكم من هيئة اممية .. وتارة يشاع جعلها ادارات تحت النفوذ الاجنبي فهو يطلب من صحيفة الوطن ان تنشر على مسئوليته حديثه هذا في قصيدة وان تعرض في هذه القصيدة الى بادرة سوء ذلك ان الحر ممتحن معرض للخطر كما هو المثل .. وقصد الادارة المحتلة آنذاك بقوله للصحيفة قل يا (وطن) للذين يتلونون تلون الحرباء ان الشعب فطن الى دسائس الاستعمار ذلك ان الثوب الذي يخدع بمظهره وفي باطنه العذاب اذا بزغت اشعة الحق عليه نفذت اليه الابصار فجعلت ما تحته وكشفت سره لان البدن يبين من اشعة الحق فتظهر العيوب المخفية بالثوب الخادع .. وتمثل بقول المتنبي رأيتكم لا يصون العرض الخ .. وهذا التوجيه من الناحية الشعرية الفنية توجيه جميل في سبك طيع سهل الفهم قوي الحجة حسن التمثيل والتشبيه استعارة بليغة ومحسنات لفظية رطبة حلوة .. وبيان في القصيدة ظاهر وواضح .

يا ايها الاصدقاء (المالكون) لنــــا	بالجود « واستعبدتنا » منهم المنن
ارى لزاماً علينـــــا ان نقول لكم	انا سئمنـــــا وعوداً كلها دخن
هذي مطالبنا غراء واضحة	وحقنا لا توارى وجهه جنن
واننا امة قامت موحدة	قلوب ابنائها لم تغوهــــا الفتن
فلن يفرق فيما بيننا احد	قد انتبهنا وطار «النوم» والوسن
لفظ العروبة واسم الشرق يجمعنا	شعارنا الحب ثم « الله والوطن»

من يقرأ هذا الانتاج السامي الراقي وهذا السبك الرصين المبتكر الخلاق .. لا ينساق فقط مع ترديد النغم ولكنه يجد نفسه مشدوهاً مأخوذاً بالمعنى والقصد وفي نشوة من عذوبة القافية ورصانة المصراع وقـــوة التعبير وسمو المفردات..

الحقيقة ان الجودة والتقيم الخفي للقصيدة هما اللذان ينفذان مع اللسان حين تصفى الآذان الى القصيدة.. ونظم رفيق هذا يشعر القارىء فيها انه يقفز مع مفرداتها وتتخلل لثته حين يقرأها رضاب حلوة كما لو كانت القصيدة شهدا شافياً للنفس والجوارح والاحاسيس .



فهرست